إيزابيل الليندي

مملكة التنين الذهبي

ترجمة: رفعت عطفة

ورد

إيزابيل ألليندي

مملكة التنين الذهبي

رواية

ترجمة: رفعت عطفة

مملكة التنين الذهبي

* إيزابيل ألليندي

* مملكة التنين الذهبي

* ترجمة رفعت عطفة

* الطبعة الأولى 2005

* موافقة وزارة الإعلام رقم 78522

* الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع

سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053

* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر

* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر

* التـــــــــــوزيع: دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 30249

العنوان الأصلي للكتاب:

EL REINO DEL DRAGÓN DE ORO

إلى صديقتي تابرا تونوَا، الرحالة التي لا تكلّ،
التي حملتني إلى الهيمالايا وحدَّثتني عن التنين الذهبي.

1

وادي أهل الثلج

كان تِنْسينغْ، الراهبُ البوذي، وتلميذُه، الأميرُ ديلْ باهادور، قد تسلّقا لأيّامٍ قِممَ شمال الهيمالايا المرتفعة، منطقة الجليد الأبدي، حيث لم يضع قدمه على امتداد التاريخ سوى بعض اللامات. ما من أحدٍ منهما كان يعدّ الساعات، لأنّ الزمن لم يكن يهمّهما. التقويم اختراع بشريّ؛ والمعلّمُ علّمَ تلميذَه أنّ الزمنَ غير موجودٍ من الناحية الروحية.

المهمّ بالنسبة إليهما هي الرحلة، التي يقوم بها الشابُّ لأوّل مرّة. يتذكّرُ الراهبُ أنّه قام بها في حياةٍ سابقة، لكنّ تلك الذكريات كانت مشوّشة قليلاً. كانا يسترشِدان بإشاراتِ رَقٍّ ويهتديان بالنجوم، في أرضٍ تسودها ظروف قاسية جدّاً حتى في الصيف؛ فالحرارة التي تصل إلى عدَّة درجاتٍ تحت الصفر خلال شهرين في العام كانت محتملة، حين لا تهبّ عواصف تُنبئ بالكارثة.

كان البردُ شديداً، حتى حين تكون السماء صافية. كانا يرتديان غفارتين صوفيتن ومعطفين خشنين من جلد الياك(*)؛ ينتعلان جزمتين من جلد هذا الحيوان ذاته، شعره إلى الداخل، بينما الخارج مُكتّم بالشحم. ينتبهان إلى كلّ خطوة، لأنّ انزلاقاً واحداً على الجليد

(*) Yak ويُسمّى قوتاش وخشقاء، وهو ثور التيبت الضخم، طويل الشعر.

يعني أنّ من الممكن أن يتدحرجا مئات الأمتار إلى هوّات سحيقة تقطع الجبال مثل ضربات فأس الرّب.

كانت تبرز على خلفية السماء قممُ الجبال الثلجية، كثيفة الزرقة، حيث يتقدّم الرحالتان دون عجلة، لأنّه لم يكن يوجد في ذلك المستوى من الارتفاع ما يكفي من الأوكسجين. يرتاحان باضطراد كي تعتاد رئاتهما ذلك. يؤلمهما صدراهما وآذانهما ورأساهما، يعانيان من الغثيان والإنهاك. ما من أحد منهما كان يذكر نقاط ضعف الجسد هذه، ويقتصران على مراقبة التنفّس، كي يخرجا بأكبر قدر من الفائدة من كلّ شهقة هواء.

كانا يمضيان بحثاً عن تلك الأعشاب النادرة الأساسيّة لتحضير المحاليل والمراهِم الطبيّة، التي لا توجد إلاّ في وادي أهل الثلج المتجمّد. إذا ما انتصرا على مخاطر الرحلة سيكون باستطاعتهما اعتبار نفسيهما مبتدئين، ذلك أنّ عريكتهما ستقوى مثل الفولاذ، فقد وُضِعت إرادتهما وشجاعتهما على المحكّ مرّاتٍ كثيرة خلال هذه الرحلة. كان التلميذ بحاجة إلى الفضيلتين كلتيهما ليقوم بالمهمّة التي تنتظره في الحياة. لذلك كان اسمه ديلْ باهادور، الذي يعني في لغةِ المملكةِ الممنوعةِ «القلب الشجاع». الرحلة إلى وادي أهل الثلج كانت واحدة من آخر مراحل التدريب القاسي، الذي تلقاه الأميرُ خلال اثني عشر عاماً.

لم يكن الشابُ يعرف السببَ الحقيقيَّ للرحلة، التي هي أهمّ من النباتات العلاجية، أو تدرّجه كـ لاما أعلى. لم يكن باستطاعة معلّمه أن يكشف له عن ذلك، كما لم يكن باستطاعته أن يُحدِّثه عن أشياء أخرى كثيرة. سيكتشف ديل باهادور سببَ الرحلة إلى وادي أهل الثلج لاحقاً، حين سيجد نفسه أمام تمثال التنين الذهبي العجيب.

كان تِنْسينغْ وديل باهادور يحملان على ظهريهما حزمتين

فيهما البطانيات والحبوب وشحمة الياك التي لا غنى عنها لاستمرارية البقاء. كانا يحملان حبال شعر الياك ملفوفة على خصريهما، التي تفيدهما في التسلّق وبيديهما عَصَوَيْن طويلتين وقَوِيّتين مثلَ دَعامة، يستخدمانهما للاستناد عليهما والدفاع عن نفسيهما، فيما لو هوجِما، ولنصبِ خيمةٍ مرتجلة في الليل. كما كانا يستخدمانهما للتأكّد من عمق وصلابة الأرض قبل أن يطآها في تلك المناطق، حيث الثلج الطريّ الذي كثيراً ما يُغطّي فجواتٍ عميقةً، كما دلّت تجربتهما. كثيراً ما كانا يواجِهان صدوعاً، فإذا لم يستطيعا القفز فوقها يُضطران لأن يقوما بدورة طويلة. وأحياناً يمدّان القائمة فوق طرفي الهاوية، لتجنّب ساعات من المسير، وحين يتأكّدان من أنّها ثابتة على كلا الطرفين يتجرّآن على وطئها والقفز إلى الجانب الآخر، الذي لم يكن قط أكثر من خطوة، لأن إمكانيّة التدحرج في الفراغ كبيرة. كانا يقومان بذلك دون تفكير، وعقلاهما صافيان، واثقين من رشاقة جسميهما وحسن حظّيهما، لأنّهما لو توقّفا ليحسبا حركاتهما ما استطاعا القيام بذلك. وحين يكون الصدعُ أعرض من طول العصا يثبتان حبلاً إلى صخرة عالية، ويربط واحد منهما الطرف الآخر من الحبل إلى خصره، يستجمع قواه ويقفز، متذبذباً مثل رقّاص، كي يصل إلى الضفّة الأخرى. كان التلميذ الشاب، الذي يتمتّع بصلابة وشجاعةٍ في مواجهة الخطر، يتردّد دائماً لحظةَ استخدامه لأيّ من هذه الطرق.

كانا قد وصلا إلى واحدةٍ من تلك الهوّات فراحَ اللاما يبحثُ عن المكان الأنسب للعبور. أغلق الفتى عينيه قليلاً، مُصلّياً.

ـ هل تخاف أن تموت، يا ديلْ باهادور؟ ـ استفسر تِنْسينْغْ مبتسماً.

ـ لا يا معلّمي المحترم. فلحظة موتي مسجّلة في كتاب قدري قبل ولادتي. سأموت حين أنهي عملي في هذا التقمُّص، وتكون روحي جاهزة للطيران، لكنّني أخاف أن تتكسّر عظامي كلّها وأبقى

حيّاً هناك في الأسفل ـ ردَّ الفتى مشيراً إلى الهوّة المريعة التي كانت تنفتح عند قدميه.

ـ ربّما كان هذا عائقاً... ـ قَبِلَ اللاما بمزاج رائق ـ إذا فتحت عقلكَ وقلبكَ، سيبدو لك هذا أسهل ـ أضاف.

ـ ماذا ستفعلُ لو سقطتُ في الهوّة؟

ـ لو حدث ذلك، قد أُضطرّ لأن أفكّر بالأمر. أفكاري الآن شاردة في أشياء أخرى.

ـ هل أستطيع أن أعرف فيمَ، يا معلّمي؟

ـ في جمال المشهد ـ ردّ، مشيراً إلى سلسلة الجبال اللامتناهية، بياضِ الثلج الناصِع، والسماء الساطعة.

ـ إنّه كمشهد القمر ـ لاحظ الفتى.

ـ ربّما... في أيِّ منطقة من القمر كنتَ، يا ديلْ باهادور؟ ـ سأل اللاما، متظاهراً بابتسامةٍ أخرى.

ـ لم أصل إلى مثل هذا البعدِ بعدُ، يا مُعَلِّمي، لكنّني هكذا أتصوره.

ـ السماء في القمر سوداء، وليس فيه جبالٌ كهذه. كما لا يوجَد ثلج، كلّ شيء هناك صخور وغبار رماديّ.

ـ ربّما استطعتُ ذاتَ يوم أن أقوم برحلة كوكبية إلى القمر، مثل معلّمي المحترم ـ اعترف التلْميذ.

ـ ربّما...

بعد أن ثبّت اللاما القائمة، خلعا غفارتيهما ومعطفيهما، التي كانت تعيق حركتهما بخفّة كبيرة وحزما أمتعتهما في أربع حزم. كان اللاما يتمتّع بمظهر رياضيّ. كتفاه وذراعاه عضلات خالصة، عنقه بعرضِ فخذِ رجلٍ عاديّ وساقاه كأنّهما جذعا شجرة. كان جسده، جسد المحارب المريع هذا يتناقضُ بشكلٍ واضحٍ مع وجهه

الرزين، وعينيه الحلوتين وفمه الرقيق، دائم الابتسام، الذي يكادُ يكون لأنثى. أخذ تِنْسيْنغْ الحِزمَ حزمةً فحزمة، استجمع قواه وهو يلوح ذراعه مثل شفرة طاحونة، وقذف بها إلى الجانب الآخر من الهوّة.

ـ الخوف ليس حقيقيّاً، يا ديل باهادور، فهو ككلّ ما عداه موجودٌ في عقلك فقط. تشكِّلُ أفكارُنا ما نفترض أنّه الواقع ـ قال.

ـ عقلي الآن يخلق حفرة عميقة كفايةً، يا معلّمي ـ تمتم الأميرُ.

ـ عقلي يخلق الآن جسراً آمناً جدّاً ـ ردَّ اللاما.

قام بإشارة وداع للفتى الذي كان ينتظر على الثلج، ثم خطا خطوة في الفراغ، واضعاً قدمه اليمنى في منتصف العصا واندفع في جزء من الثانية إلى الأمام، مدركاً بقدمه اليسرى ضفّة الطرف الآخر. قلّده ديل باهادور برشاقة وسرعة أقل، لكن دون أيّة علامة تخون عصبيّته. ارتديا ثيابهما بسرعة وراحا يسيران.

ـ هل بقي كثير؟ ـ أراد ديل باهادور أن يعرف.

ـ ربّما.

ـ هل من الرعونة أن أطلب منك ألا تجيبني دائماً بـ ربّما، يامعلِّمي؟

ـ ربّما هو كذلك ـ ابتسم تِنْسينغْ، ثمّ وبعد وقفة، أضاف أنّ عليهما، حسب تعليمات الرق، أن يتابعا شمالاً. ما زال أمامهما أكثر الطريق قسوةً.

ـ هل رأيت أهلَ الثلج، يا مُعلِّمي؟

ـ إنّهم كالتنينات، تخرج النار من آذانهم ولهم أربعة أزواجٍ من الأذرع.

ـ يا للروعة! ـ هتف الفتى.

ـ كم مرَّةً قلتُ لك ألاّ تصدّق كلّ ما تسمعه: ابحث عن حقيقتك الخاصّة ـ ضحك اللاما.

ـ يا مُعلِّمي، نحن لا ندرس تعاليم بوذا، بل نتحادث فقط... ـ تنهّد التلميذ منزعجاً.

ـ لم أرَ أهلَ الثلج في هذه الحياة؛ لكنّني أتذكرهم من حياة سابقة. لهم أصلنا نفسه، وكانت لهم منذ عدّة آلاف من السنوات حضارة متطورة كالحضارة البشرية، لكنَّهم اليومَ بدائيون جدّاً ومحدودو الذكاء.

ـ ما الذي جرى لهم؟

ـ إنّهم عدوانيون جدّاً. قتلوا بعضهم بعضاً ودمّروا كلّ ما كان لديهم، بما في ذلك الأرض. هرب الباقون الأحياء منهم إلى قمم الهيمالايا. هناك بدأت ذرّيتهم تتدنّى والآن هم كالحيوانات. ـ وضّح اللاما.

ـ هل هم كثر؟

ـ كلُّ شيء نسبيّ. يبدون كثراً إذا هاجمونا وقليلين إذا ودّونا. في جميع الأحوال، حياتهم قصيرة، لكنّهم يتكاثرون بسهولة، لذلك أعتقد أنّ في الوادي عدداً منهم. يعيشون في مكان منيع، لا أحد يستطيع أن يعثر فيه عليهم، ولكن بعضهم يخرج أحياناً للبحث عن الغذاء ويضيع. ربّما كان هذا هو سبب الآثار التي يعزونها لإنسان الثلج البشع، كما يُسمّونه ـ غامر المُعلِّم.

ـ آثار الأقدام هائلة. لا بدّ أنّهم عمالقة. هل ما زالوا شديدي العدوانية؟

ـ تسأل أسئلة كثيرة ليس لها عندي جواب، يا ديل باهادور ـ ردّ المعلِّم.

قاد تِنْسيْنغْ تلميذَه عبر قمم الجبال، قافزاً فوق الوهاد، متسلّقاً سفوحاً شاقوليةً، منزلقاً في دروبٍ ضيّقة مقطوعة في الصخور.

كانت هناك جسور قديمة معلّقة، لكنّها في حالةٍ سيِّئة ويجب استخدامها بكثير من الحكمة. حين كانت تهبّ الريح أو يسقط البَرد يبحثان عن ملاذٍ وينتظران. يأكلان *تسامبًا* مرّةً واحدة في اليوم؛ وهو خليط من طحين الشعير المحمّص والأعشاب الجافّة وشحم الياك والملح. كان الماء متوافراً بكثرة تحت قشرة الجليد. وكان يتولّد أحياناً عند الفتى ديل باهادور انطباع بأنّهما يسيران في حلقة واحدة، فالمنظر يبدو له دائماً واحداً، لكنّه لم يكن يكشف عن شكوكه: سيكون قلّة أدبٍ منه تجاه المُعلِّم.

وعند هبوط المساء كانا يبحثان عن مكان يلجآن إليه لقضاء الليل؛ يكفيهما أحياناً صدعٌ يستطيعان أن يرتاحا فيه محميَّين من الريح؛ بينما يعثران في ليالٍ أخرى على كهف، ولم يكن أمامهما بدّ من أن يناما من حين لآخر في العراء، متلفّعين بجلود الياك. وما أن يقيما معسكرهما المتقشّف حتى يجلسا ووجهاهما إلى الشمس متربعين يرتلان *مانترا* بوذا، مردّدين مرَّةً وأخرى *أوم ماني بادمِ* هوم، عليكِ السلام، أيّتها الجوهرة الرائعة في قلبِ زهرة اللوتس. كان الصدى يُرجع ترتيلهما مضاعفاً إلى ما لا نهاية بين قمم الهيمالايا الشاهقة.

كانا خلال سيرهما يجمعان عيداناً وأعشاباً جافّة، يحملانها في كيسيهما كي يشعِلا ناراً ويُحضِّرا طعامهما في الليل. كانا يتأمّلان ساعةً بعد العشاء. في هذه الأثناء يصبح البرد قاسياً مثل تماثيل من جليد، لكنّهما لا يكادان يشعران به؛ لأنّهما معتادان على عدم الحراك، الذي يمنحهما سكينة وسلاماً. في ممارستهما البوذية كان المعلّم والتلميذ يجلسان في استرخاء مُطلق، يتخلّصان من شرور وقيم العالم، رغم أنّهما لا ينسيان العذاب الموجود في كلّ مكان.

ثمّ وبعد أن تسلّقا الجبال لأيّام عدّة، صاعدَيْن إلى مرتفعات مثلّجة وصلا إلى تشينثان دزونغ، الدير المحصَّن لقدماء اللامات،

الذين اخترعوا طريقة المصارعة جسداً لجسد، المسماة تاو ـ شو. في القرن التاسع عشر دمّر زلزالٌ الديرَ الذي يبدو مهجوراً. كان بناءً من الحجر والطوب والخشب، فيه أكثر من مئة غرفة. ويبدو ملتصقاً بجرف مريع. لقد آوى الديرُ الرهبانَ، الذين كرسوا حياتهم للبحث الروحي وكمال الفنون الحربية، خلال مئات السنين.

كان رهبان التاو ـ شو في أصولهم أطباء، ذوي معارف فذّة في التشريح. اكتشفوا نقاط ضعف الجسم التي بالضغط عليها تُفقِد المرءَ الحسَّ أو تشلُّه، وجمعوا بينها وبين تقنيات المصارعة المعروفة في آسيا. هدفهم من ذلك هو كمالهم الروحي عبر السيطرة على قواهم الذاتية وعواطفهم. ورغم أنّهم كانوا لا يُهزمون في المصارعة جسداً لجسد إلاّ إنّهم لم يستخدموا التاو ـ شو لأغراض العنف، بل كتمرين جسدي وعقليّ؛ كما لم يعلموها لأيٍّ شخص، بل لبعض الرجال والنساء المُختارين. كان تِنْسينغْ قد تعلَّم التاو ـ شو منهم وعلّمها لتلميذه ديل باهادور.

الزلزال والثلجُ والجليدُ ومرور الزمن أتت على قسم كبير من البناء، لكن بقي منه قاعتان وإن كانتا خربتين. ويتمّ الوصول إلى إليه بتسلّق جرفٍ صعب وبعيد لم يحاول أحد تسلّقه منذ ما يقارب نصف قرن.

ـ قريباً سيصلون إلى الدير جوّاً ـ قال تِنْسينغ.

ـ هل تعتقد أنّهم يستطيعون أن يكتشفوا وادي أهل الثلج من الطائرات يا معلّمي؟ ـ استفسر الأمير.

ـ ممكن.

ـ تصوّر كم من الجهد سنوفّر! نستطيع أن نطير إلى هناك خلال برهة قليلة جداً.

ـ آمل ألاّ يحدث ذلك. إذا ما أمسكوا بأهل الثلج، فسيحوّلونهم إلى حيوانات في معرض أو إلى عبيد ـ قال اللاما.

دخلا إلى تشينثان دزونغ ليرتاحا ويقضيا الليلة في مأوى. كان ما يزال في خرائب الدير سجاجيد متآكلة، عليها صور دينية، وأوانٍ وأسلحة لم يستطع الرهبان المقاتلون الناجون حملها معهم؛ وعدّة تماثيل لبوذا في وضعياتٍ مختلفة، بل وتمثال ضخم للمستنير مستلقياً على جنبه على الأرض. الطلاء الذهبي تطاير، لكن ما عداه لم يُمسّ. ذراتُ جليد وثلج تكادُ تُغطّي كلَّ شيء، مضفيةً على المكان مظهراً جميلاً على وجه الخصوص، كأنّه قصر زجاجيّ. خلف البناء هَيار جليديّ شكّل السطح المستوي الوحيد حوله، نوعاً من الفناء بحجم ملعب كرة سلّة.

- هل يمكن لطائرة أن تحطّ هنا، يا مُعلّمي؟ - سأل ديلْ باهادور، الذي لم يكن باستطاعته أن يخفي انبهاره بالقليل من الطائرات الحديثة الذي كان يعرفه.

- لا علم لي بهذه الأشياء يا ديلْ باهادور، لم أرَ قط طائرة تهبط، لكن يبدو لي هذا صغيراً جدّاً، ثمّ إنّ الجبال تشكّلُ قمعاً تتقاطع فيه تيّارات الهواء.

وجدا في المطبخ قدوراً وأوانٍ حديدية أخرى، وشموعاً، وفحماً، وعيداناً لإشعال النار وبعض الحبوب محفوظة بالبرد. وكان هناك أواني زيت ووعاء فيه عسل، الغذاء الذي لم يكن الأميرُ يعرفه. أعطى تِنْسينْغ العسل للشابَ كي يُجرّبه، فشعر لأوّل مرّة بطعم حلوٍ في سقف حلقه. كادت المفاجأة والمتعة أن ترميا به على ظهره. حضّرا ناراً وأشعلا شموعاً أمام التماثيل، علامةَ احترام. سيأكلان هذه الليلة بشكلٍ أفضل وسينامان تحت سقف: فالمناسبة تستحقّ احتفالَ امتنانٍ قصيراً وخاصاً.

كانا يتأمّلان بصمت، حين سمعا زمجرةً طويلة انفجرت بين خرائب الدير. فتحا عيونهما لحظةَ دخل نمر كبير من نمور الهيمالايا إلى القاعة، وهو بهيمة يزن نصف طن، أبيض الجلد وأضرى حيوانات العالم.

تلقى الأميرُ أمرَ مُعلّمه بالتخاطر وحاول أن ينفّذه، رغم أنّ ردّ فعله الأوّل هو اللجوء إلى التاو - شو والقفز دفاعاً عن نفسه. إذا تمكّن من وضع يده خلف أذن النمر سيستطيع أن يشلّه؛ ومع ذلك بقي بلا حراك، يحاول أن يتنفَّسَ بهدوء، كيلا يشمّ الحيوانُ رائحةَ خوف. اقترب النمر من الراهبين ببطء. لم يستطع الشاب، على الرغم من الخطر الجليّ الذي يحيق بهما، إلا أن يُعجَب بجمال الحيوان الفائق. كان جلده عاجيّاً مخطّطاً بالبنيّ وعيناه بزرقة بعض أنهار الهيمالايا الجليدية. كان ذكراً بالغاً، ضخماً وقويّاً، نموذجاً تامّاً.

شاهد تِنْسينغ وديل باهادور، الجالسان في وضعية زهرة اللوتس، المتربعان وأيديهما على ركبهما، النمرَ يتقدّم. كلاهما كان يعلم أنّه إذا كان جائعاً فإنّ إمكانيّة إيقافه قليلة جدّاً. كان الأمل في أن يكون قد أكل، رغم أنّ إمكانية أن يوجد صيد في تلك البقاع الموحشة قليلة. كان تِنسينغ يملك قدرات نفسية فائقة، فهو *تولكو*، أي تقمص لاما عظيم من القديم. ركّز قوّته مثل شعاع كي ينفذ إلى عقل الضاري.

شعرا بِنَفَس السنّور الكبير في وجهيهما، بدفقة من الهواء الحار ونتنٍ يخرج من منخريه. زمجرة أخرى هزّت المكان. اقترب النمرُ وأصبح على بعد سنتيمترات قليلة من الرجلين، فشعرا بوخز شاربه. حام حولهما لثوانٍ بدت سرمدية وهو يشمّهما ويتحسّسهما بساقه الضخمة، لكن دون أن يعتدي عليهما. بقي المعلِّم والتلميذ جامدين تماماً، مفتوحين على العاطفة والشفقة. لم يلحظ النمر عندهما خوفاً ولا عدوانية، بل مشاركة فعالة، وما إن أرضى فضولَه حتى انسحب بالعزّة الوقورة التي جاء بها.

- ها أنت ترى، يا ديل باهادور، كيف أنّ الهدوءَ يفيدُ قليلاً أحياناً... - كان هذا هو تعليق اللاما الوحيد. لم يستطع الأمير أن يجيب لأنّ الصوتَ تحجّر في صدره.

وعلى الرغم من تلك الزيارة غير المنتظَرة، قرّرا البقاء لقضاء

الليلة في تشينثان دزونغ، لكنّهما احتاطا بالنوم بجانب النار وفي متناول أيديهما زوج من الرماح التي وجداها بين الأسلحة التي هجرها رهبان التاو ـ شو. لم يعد النمر، لكن في صباح اليوم التالي رأيا، حين شرعا بالسير من جديد، آثارَ خطواته على الثلج البراق وسمعا في البعيد صدى زمجرته على القمم.

بعد أيّامٍ قليلة أطلق تِنْسينْغ صيحةً فرح، وأشار إلى فجّ بين سفحين عمودِيين في الجبل. كانا جدارين أسودين من الصخر صقلتهما ملايين السنين من الحتّ والثلج. دخلا الفجَّ بحذر شديد لأنّهما كانا يطآن صخوراً منفلتة وهناك فجوات سحيقة؛ وعليهما، قبل أن يضعا القدم، أن يتأكّدا من ثبات الأرض بالعصا.

ألقى تِنْسينْغ حجراً في أحد الآبار فكان من العمق بحيث لم يسمعا ارتطامه في القاع. كانت السماء لا تكاد تُشاهَد فوقهما إلاّ كشريط أزرق بين جداري الصخر اللامعين. خرجت جوقة من الأنين المرعب للقائهما.

ـ من حسن الحظّ أنّنا لا نؤمن بالأشباح ولا بالشياطين، أليس كذلك؟ ـ علّق اللاما.

ـ ترى خيالي هو الذي يجعلني أسمع هذه الزمجرة؟ ـ سأل الشاب وقد اقشعرّ بدنه من الرعب.

ـ قد تكون الريح التي تمرّ من هنا كما يمرّ الهواء في بوق.

كانا قد قطعا مسافة جيّدة حين لفحتهما نتانة بيض فاسد.

ـ كبريت ـ وضّح المُعلِّمُ.

ـ لا أستطيع التنفّس ـ قال ديل باهادور ويداه على أنفه.

ـ ربّما كان من المناسب أن تتصوّر أنّها رائحة زهر زكيّة ـ اقترح تِنسيْنغ.

- من بين كل الروائح رائحة الفضيلة هي الأحلى - أنشد الشابُّ مبتسِماً.

- تصوّر إذن أنّ هذه هي رائحة الفضيلة الذكية - ردّ اللاما ضاحكاً أيضاً.

كان طول المشهد يبلغ كيلومتراً تقريباً، لكنّهما استغرقا ساعتين في قطعه. كان في بعض الأماكن من الضيق بحيث أنّه كان عليهما أن يتقدّما جانبيّاً بين الصخور، دائخين من الهواء المُخلخل، لكنّهما لم يتردَّدا لأنّ الرقَّ كان يُشير بوضوح إلى وجود مخرج. رأيا مدافنَ محفورة في الجدران، توجد فيها جماجم وأكوام من العظام الكبيرة جدّاً، بعضها له مظهر بشري.

- يجب أن تكون مقبرة أهل الثلج - علّق ديل باهادور.

نفحة هواء رطب وحار، لم يَخبِراها قط، أعلنت نهايةَ الفجّ.

كان تِنسينْغ أوّل من أطلّ، يتبعه تلميذه على مقربة منه. حين رأى ديل باهادور المنظر أمامه بدا له كوكباً آخر. ولولا أنّ الرحلة أنهكته ومعدته متقلّبة من رائحة الكبريت لظنّ أنّه قام برحلة كوكبية.

- هو ذا بين يديك وادي أهل الثلج - أعلن اللاما.

راحت تمتدّ أمامهما هضبة بركانية. بقع من النباتات الخضراء الضاربة إلى اللون الرمادي، وشجيرات ملتفّة وفطور كبيرة مختلفة الأشكال والألوان تنمو في كلّ مكان. وهناك جداول وبرك ماء فوّار وتشكيلات صخرية غريبة، كما تنبثق من الأرض أعمدة سامقة من الدخان الأبيض. ضباب خفيف يطفو في الهواء ماحياً حواف المنظر البعيد مضفياً على الوادي مظهر الحلم. شعر الزائران بأنّهما خارج الواقع، كأنّهما دخلا في بعد آخر. فبعد أن تحمَّلا عدّةَ أيامٍ عبور برد الجبل القارس، جاء هذا البخار الفاتر هديّة حقيقيّة لحواسهما، على الرغم من الرائحة المثيرة للغثيان التي كانت ما تزال موجودة بقوّة وإن كانت أقلّ كثافة مما في الفجّ.

ـ قديماً كان بعضُ اللامات المختارون لمقاومة أجسادهم ولحصانة أرواحهم بعناية، يقومُون بهذه الرحلة كلّ عشرين سنة ليجمعوا أعشاباً طبّية لا تنمو في أيّ مكان آخر ـ وضّح تِنْسينْغ.

قال إنّ الصينيين قد غزوا التيبت في العام 1950، وهدموا أكثر من ستة آلالاف دير وأغلقوا الباقي. غادر معظم اللامات المكان ليعيشوا منفيين في بلدان أخرى، مثل الهند ونيبال، حاملين معهم تعاليم بوذا إلى كلّ مكان. وبدل أن يقضي الغزاة على البوذية، كما أرادوا، فقد فعلوا العكس تماماً: نشروها في العالم كلّه. ومع ذلك فكثير من المعارف الطبية والتطبيقات النفسية للامات راحت تختفي.

ـ كانت الأعشابُ تُجفَّف وتُطحَنُ وتُخلَطُ بمكوِّناتٍ أخرى. إنّ غراماً واحداً من هذا المسحوق يمكن أن يكون أثمن من كلّ ذهب العالم، يا ديل باهادور ـ قال المُعلِّم.

ـ لا نستطيع أنْ نحمل الكثير من النباتات. من المؤسف أنّنا لم نأتِ معنا بياك ـ علّق الشاب.

ـ ربّما ما من ياك سيعبر بإرادته الهوات موازناً نفسه فوق عصا، يا ديل باهادور، سنحمل ما نستطيع حمله.

دخلا الوادي الغامض وما إن مشيا قليلاً حتى رأيا أشكالاً تُشبه هياكل عظمية. أعلم اللاما تلميذه أنَّ الأمر يتعلّق بعظام حيوانات متحجِّرة، سابقة على الطوفان الكوني. نزل على أربعة، وراح يحبو باحثاً في الأرض حتى عثر على حجر داكن فيه نقاط حمراء.

ـ هذا هو روث التنين، يا ديل باهادور. إن له خصائص سحرية.

ـ عليَّ ألاّ أصدِّقَ كلَّ ما أسمعه، أليس صحيحاً، يا مُعلّمي؟ ـ ردّ الشاب.

ـ لا، لكن ربّما تستطيع في هذه الحالة أن تصدّقني ـ قال اللاما معطياً إيّاه العيِّنة.

تردّد الأمير. فكرة لمسه لم تُغرِه.

ـ إنّه متحجِّر ـ ضحك تِنسينْغ ـ يمكنه أن يشفي عظاماً مكسورة خلال دقائق قليلة. قطعة صغيرة منه مسحوقة ومذابة في كحول الرزّ يمكن أن تنقلك إلى أيّ من النجوم الموجودة في السماء.

كان في القطعة التي اكتشفها تِنسينغ ثقبٌ صغير، مرّر فيه اللاما خيطاً وعلّقه إلى عنق ديل باهادور.

ـ هذا مثل درع، يملك قوة لحرف بعض المعادن. فالسهام، والسكاكين وبعض الأسلحة الأخرى القاطعة لا تستطيع أن تؤذيك.

ـ لكن قد يكفي سنٌّ ملوّث، تعثّرٌ في الجليد، أو ضربةُ حجر على رأسي كي تقتلني... ـ ضحك الفتى.

ـ جميعنا سنموت، هذا هو الشيء الوحيد الأكيد، يا ديل باهادور.

نزل اللاما والأميرُ بالقرب من منفذٍ بركاني يتصاعد منه البخار، مستعدين لقضاء ليلة مريحة لأوّل مرّة بعد عدّة أيّام. لأنّ عمود البخار الحار كان يحميهما. صنعا شاياً من ماء نبع حمّة قريب. كان الماء يخرج فوّاراً وحين تهدأ الفقاقيع يحرز الماء الشاحب لون الخزامى. كان النبعُ يغذّي جدولاً يصعد منه البخار، تنمو على ضفافه أزهار بنفسجية شحمية.

نادراً ما كان اللاما ينامُ. فهو يجلس في وضعية زهرة اللوتس مغمضاً عينيه؛ وهكذا يرتاحُ ويستعيد طاقته. كان يملك قدرة على البقاء بلا حراك تام، متحكّماً بعقله، بتنفّسه وضغط دمه ونبضات قلبه وحرارته، بحيث يدخل جسدُه في سبات. وبالسهولة التي كان يدخل فيها في راحة مطلقة باستطاعته أن يقفز أمام حالة طارئة بسرعة الطلقة، وكلّ عضلاته جاهزة للدفاع. حاول ديل باهادور أن يُقلِّده خلال سنواتٍ دون أن يستطيع. ما إن وضع رأسه على الأرض حتى نام منهكاً من التعب.

استيقظ الأمير وسط دمدمة مرعبة، ولم يكد يفتح عينيه ويرى ما كان يحيط به حتى انتصب مثل نابض، هابطاً على قدميه، منحني الركبتين ومنتشر الذراعين في وضعية الهجوم. شلّه صوت المعلّم الهادئ في اللحظة التي صوّب بها للضرب.

ـ على رسلك. إنّهم أهل الثلج. أرسِلْ لهم محبّة وحنوّاً، كما فعلت مع النمر ـ همس اللاما.

كانا وسط قبيلة من الكائنات المُنفِّرة بطول متر ونصف، تغطيهم بالكامل الجلود البيضاء، المشتبكة والوسخة، أذرعهم طويلة وأرجلهم قصيرة ومقوَّسة، منتهية بأقدام قرود ضخمة. افترض ديل باهادور أنّ أصل الأسطورة هو آثار هذه الأقدام الكبيرة. لكنّه تساءل لمن كانت تلك العظام الطويلة والجماجم الضخمة التي رآها في النفق؟

لم يقلِّل صغر حجم تلك الكائنات من مظهر الضراوة عندهم. وجوههم الفطساء والمشعرة تكادُ تكون إنسانية، لكنّها ذات تعبير بهيمي: العيون صغيرة وضاربة للحمرة، الآذان محدَّبة كآذان الكلاب، والأسنان مسنونة وطويلة. يُخرجون بين زمجرة وأخرى ألسنتهم، الملتوية في رأسها، كألسنة الزواحف، ذات اللون الأزرق البنفسجيّ الكثيف، وصدورهم مغطاة بدروع جلدية، ملطخة بالدم الجاف، ومربوطة إلى الكتفين والخصر. كانوا يهزّون هراوات مهدّدة وحجارة مسنونة، لكن على الرغم من الأسلحة ومن أنّهم يتفوّقون عليهم جدّاً بالعدد، فقد بقوا على مسافة حكيمة. كانت الشمس قد بدأت تُشرِق، ونور الفجر يُطلّ على المشهد الملفوف بضباب كثيف ومسحة من كابوس.

نهض تِنسينْغ على قدميه ببطء كيلا يُثير ردّ فعل مهاجميهما. بدا أهلُ الثلج بالمقارنة مع ذلك العملاق أقصر وأكثر انكماشاً مما هم، لم تتبدّل هالةُ المُعلِّم، بقيت بيضاء وذهبيةً وهو ما يدلّ على رزانته التامّة، بينما لم تكن هالةُ معظم تلك الكائنات بهيّةً بل مشوّشةً وترابية، وهو ما كان يدلّ على مرضٍ وخوف.

حَدَسَ الأميرُ لماذا لم يهاجموهما على الفور، يبدو أنّهم ينتظرون أحداً. بعد دقائق قليلة رأى هيئة أطولَ من البقية بكثير تتقدّم، رغم أن العمر قد حناها. كانت من نوع أهل الثلج، لكنّ نصفها العلوي أطول، ولو استطاعت أن تنتصب لبلغت طول تِنسينْغ، لكن بالإضافة إلى عمرها الكبير كانت تظهر حدبة تشوِّه ظهرها وتجبرها على السير بجذعٍ موازٍ للأرض. وبخلاف أهل الثلج الآخرين، الذين لا يرتدون غير شعرهم الطويل الوسخ والدروع، كانت هي تتزيّن بأطواق من الأسنان والعظام، وترتدي غفارةً من جلد نمر متآكل، وتحمل في يدها عكّازاً من الخشب الملتوي.

لم يكن ممكناً تسمية تلك الهيئة امرأة، رغم أنّها أنثى، كما لم تكن كائناً بشرياً، رغم أنّها لم تكن حيواناً تماماً. كان جلدها رقيقاً وتسلّخ في عدّة أماكن، كاشفة عن جلد محرشف ووردي، مثل ذيل فأر، تغطيه طبقة كتيمة من الدهن والدم الجاف والتراب والوسخ، تنبعث منها رائحة لا تُحتمل. كانت أظافرها براثن سوداء، وأسنانها القليلة في فمها رخوة وتتراقص مع كلّ زفرة. ويقطر من أنفها مخاط أخضر. عيناها الرمصاوان تتراقصان وسط خصلات شعرها الأجعد التي تُغطّي وجهها. عند مرورها تنحّى أهلُ الثلج باحترام، وكان واضحاً أنّها من يأمر، لا بدّ أنّها الملكة أو ساحرة القبيلة.

رأى ديل باهادور مندهشاً معلّمه يركع على ركبتيه أمام المخلوق المشؤوم، ويجمع يديه أمام وجهه ويرتل التحيّة المعتادة في المملكة المحظورة: «لك السعادة».

- *تامبّو كاتشي* - قال.

- غرْز - بِمْبّرْ - زمجرت هي راشة إيّاه باللعاب.

كان تِنسينْغ وهو راكع على ركبتيه على مستوى العجوز الحدباء، وهكذا كان باستطاعتهما أن ينظر الواحد منهما إلى عيني الآخر. قلّد ديل باهادور اللاما، على الرغم من أنّه لم يكن باستطاعته أن يحمي نفسه في تلك الوضعية من أهلِ الثلج، الذين كانوا ما

يزالون يهزّون هراواتهم. وبنظرة جانبية قدّر أن هناك عشرة أو اثني عشر يحيطون به، ومن يدري كم منهم في المناطق القريبة.

حمم ثَوَرانٍ بركاني ملتهبة وقديمة جداً بردت على السطح نتيجة احتكاكها بالجليد والثلج، لكنّها بقيت زمناً طويلاً تتقدّم سائلة إلى الأسفل. وهكذا تشكّلت كهوف وأنفاق تحت الأرض، حيث أقام أهلُ الثلج مساكنهم. انكسرت قشرة الحمّم في بعض الأماكن وصار النور يدخل من ثقوبها. كانت الكهوف في غالبيتها من الانخفاض والضيق بحيث لا يستطيع تِنسينْغ الدخول إليها، لكنّها تُحافظ على حرارة لطيفة لأنّ ذكرى حرارة الحمّم تستمرّ في الجدران ومياه المنفذ الساخنة تمرّ تحت الأرض. هكذا كان أهلُ الثلج يحمون أنفسهم من الطقس، وكان من المحال عليهم أن يستطيعوا قضاء الشتاء بطريقة أخرى.

لم يكن في الكهوف أيّ نوع من الأدوات، ليس غير جلود نتنة، وقطع لحم جافّ ملتصقة. أدرك ديل باهادور مذعوراً أنّ بعض الجلود كانت جلود أهل الثلج أنفسهم، مسلوخة بالتأكيد عن الجثث. البقية كانت جلود تشِغنوات، الحيوانات المجهولة في بقيّة العالم، التي يرعاها أهل الثلج في زرائب من الحجر والثلج. كانت التشِغنوات أصغر من أهل الثلج ولها قرون ملتوية، كأنّها قرون خراف، يستفيدُ أهلُ الثلج من لحمها وشحمها وجلدها وكذلك من روثها الجاف الذي يستخدمونه كطعام. ولولا هذه الحيوانات النبيلة التي كانت تأكل قليلاً جدّاً وتُقاوِم أخفض درجات الحرارة، ما كان باستطاعة أهل الثلج البقاء على قيد الحياة.

ـ سنبقى هنا عدَّةَ أيّام يا ديل باهادور. حاوِلْ أن تتعلَّمَ لغة أهل الثلج ـ قال اللاما.

ـ ولماذا، يا مُعلِّمي؟ لن تكون أمامنا فرصة أخرى أبداً لاستخدامها.

ـ ربّما أنا لا، أمّا أنت فربّما نعم ـ ردّ تِنْسينْغ.

وشيئاً فشيئاً راحا يتكيّفان مع الأصوات التي تصدرها تلك المخلوقات. بالكلمات المتعلَّمة من قراءة عقل غرْزْ ـ يمبْرْ، عرف تِنسينْغ وديل باهادور المأساة التي تُعاني منها تلك المخلوقات: ففي كلّ مرّة كان يولَد أطفال أقلّ، وقليلون منهم من يبقون على قيد الحياة. حظّ البالغين لم يكن أفضل بكثير. فكلّ جيل يصبح أقصر وأضعفَ من سابقه، وعمره أقصر بشكلٍ مأساوي، ولم يكن هناك غير بعض الأفراد الذين يقوون على القيام بالواجبات الضرورية، مثل تربية التشِغنوات، وجمع النباتات والصيد للطعام. كانت المسألة، كما أكّدت لهما غرْزْ ـ يمبْرْ، مسألة عقاب من الآلهة أو الشياطين التي تعيش في الجبال. قالت إنّ أهل الثلج حاولوا أن يُرضوها بالقرابين، لكنّ تقديم عدد من الضحايا، التي قُطِّعت وأُلْقيت في مياه المنفذ البركاني الغالية، لم يُنهِ أذى سحر الآلهة.

عاشت غرْزْ ـ يمبْرْ طويلاً، واستمدّت سلطتَها من ذاكرتها وتجربتها التي لم يكن هناك من يملكهما غيرها. كانت القبيلة تعزو إليها قدرات خارقة وانتظرتها جيلين كي تتفاهم مع الآلهة، لكنّ سحرها لم يُجدِ في إلغاء السحر وإنقاذ شعبها من انقراض قريب. عبّرت غرْزْ ـ يمبْرْ عن أنّها ناجت الآلهة مرّة وأخرى وأنّها ها هي تحضر أخيراً: ما كادت ترى تِنسينْغ وديل باهادور حتى علمت أنّهما من الآلهة. لذلك لم يُهاجمهما أهلُ الثلج.

أعلمَ عقلُ العجوز المكروبة الزائرَيْن بكلّ ذلك.

ـ لا أعتقد أنّ هذه الكائنات ستكون سعيدةً جدّاً حين تعلم بأنّنا لسنا آلهة، بل مجرّد كائناتٍ بشرية ـ أعربَ الأمير.

ـ ربّما... لكنّنا بالمقارنة معهم نحن أشباه آلهة، على الرغم من نقاط ضعفنا اللانهائية ـ قال اللاما مبتسِماً.

كانت غرْزْ ـ يمبْرْ تتذكّرُ العصرَ الذي كان فيه أهلُ الثلج طوالاً،

ثقالاً ويحميهم جلد سميك إلى حدّ أنّه كان بمقدورهم أن يعيشوا في عراءِ أعلى مناطق الأرض وأبردها، فالعظام التي رآها الزائران في الفجّ عظامُ أسلافهم، أهل الثلج العمالقة. هناك كانوا يحتفظون بها باحترام؛ على الرغم من أنّه لم يعد هناك من يتذكّرهم غيرها. كانت غرْزْ ـ يمبْزْ طفلةً حين اكتشفت قبيلتها وادي المياه الحارّة، حيث درجة الحرارة محتملة والحياة أسهل، لأنّ فيه نباتات وحيوانات للصيد، كالفئران والماعز إضافة إلى التشِغنوات.

كما أنّ الساحرةَ كانت تتذكّر أنّها رأت مرّةً في حياتها آلهةً مثل تِنسينْغْ وديل باهادور وصلت إلى الوادي بحثاً عن نباتات. وقد سلّمت أهلَ الثلج مقابل الأعشاب معارفَ قيِّمة حسَّنت ظروف حياتهم. هي التي علَّمتهم تدجين التشِغنوات وطبخ اللحم، مع أنّه لم يعد هناك من يملك القوّة لدلك الحجارة وصنع النار. كانوا يلتهمون كلّ ما يصطادونه نيئاً، وإذا ما اشتدَّ الجوع يقتلون كملاذٍ أخير تشِغنوات أو يأكلون جثثَ أهلِ ثلج آخرين. كذلك علَّمهم اللامات أن يُميِّزوا بعضهم عن بعض بالأسماء الخاصّة. فَـ غرْزْ ـ يمبْزْ يعني في لغة أهل الثلج «المرأة الحكيمة».

أعلمتهما غرْزْ ـ يمبْزْ بالتخاطُرِ أنّه مضى زمن طويل لم يظهر فيه إله في الوادي. قدّر تِنسينْغُ أنّه منذ ما لا يقلُّ عن نصف قرن، حين غزت الصينُ التيبت، لم تصل حملة واحدة بحثاً عن النباتات الطبيّة. لم يكن أهلُ الثلج يعيشون طويلاً وما من أحدٍ منهم، غير الساحرة العجوز، رأى كائناتٍ بشريَّةً، لكنّ أسطورةَ اللامات الحكماء موجودة في الذاكرة الجمعية.

جلس تِنسينْغْ في مغارة أكبر من البقيّة، الوحيدة التي استطاع أن يدخل فيها حبواً، ولا شكّ أنها كانت تُستخدَم مكاناً للاجتماعات، فهي تُشبِه قاعة مجلس. جلسَ ديل باهادور وغرْزْ ـ يمبْزْ بجانبه وراح أهل الثلج يصلون شيئا فشيئاً، بعضهم من الضعف بحيث لا

يكاد يستطيع الزحف على الأرض. الذين استقبلوهما ملوِّحين بالحجارة والهراوات هم محاربو هذه المجموعة المحزنة، وقد بقوا في الخارج يقومون بالحراسة، دون أن يفلتوا أسلحتهم.

اصطفّ أهلُ الثلج واحداً فواحداً، وكان مجموعهم يقارب العشرين دون أن نحسب المحاربين الاثني عشر. وجميعهم إناث تقريباً، وبالحكم من أسنانهن وشعرهن يبدين شابّات لكنّهنّ في غاية المرض. فحص تِنسينْغ كلَّ واحدة منهنّ باحترامٍ شديد، كيلا يُخيفهنَّ. كانت الخمس الأخيرات يحملن رضَّعَهُنّ، الوحيدين الباقين على قيد الحياة. لم يكن لهم المظهر المقزِّز الذي للبالغين، ويبدون قروداً صغيرة مضعضعة، بيض الشعر. كنّ مترهّلات لا يقدرن على حمل رؤوسهن وأطرافهن ويبقون على عيونهن مغمضة ولا يكدن يتنفسن.

رأى ديل باهادور، الذي حرّكته العاطفة أنّ تلك الكائنات ذات المظهر البهيمي تحبّ أبناءها مثل أيّ أمٍّ، يحملنهم في أحضانهنّ برقّة، يشممنهم ويلعقنهم ويضعنهم على أثدائهنّ كي يغذينهم، ويصرخن ضيقاً حين يتأكّدن أنّهم لا يُظهرون أيّ ردّ فعلٍ.

ـ شيء محزن جدّاً، يا معلّمي. إنّهم يموتون ـ أعرب الفتى.

ـ الحياة مليئة بالمعاناة. مهمتنا هي التخفيف منها، يا ديل باهادور ـ ردّ تِنسينْغ.

كانت الإضاءة في الكهف سيّئة جدّاً والرائحة غير محتملة، مما اضطرّ اللاما للإشارة إلى أنّ عليهم أن يخرجوا إلى الهواء الطلق. هناك اجتمعت القبيلة. خَطَت غرْزْ ـ يمبْرْ بعض الخطوات الراقصة حول الرُّضَّع المرضى، مُصوّتة بأطواق العظام والأسنان ومطلقةً صيحات مُريعة. رافقها أهل الثلج بجوقة من الأنين.

انحنى تِنسينْغ فوق الرُّضَّع دون أن يولي ضوضاءَ الحزن من حوله اهتماماً. رأى ديل باهادور تبدّل تقاسيم معلّمِه، كما كان

يحدث عادة حين يُفعِّلُ قواه الشافية. رفع اللاما أحدَ أصغرِ الرُّضَّع، الذي تتسع له راحة كفّه وفحصه بعناية. ثمّ قرَّبه من إحدى الأمهات مومئاً إيماءات وديّة كي يُهدِّئها، ودرس عدّة قطرات من حليبها.

- ما بهم الأطفال؟ - سأل الأمير.

- من المحتمل أنَّهم يموتون جوعاً - قال تِنسينغ.

- جوعاً؟ ألا تغذّيهم أمهاتهم؟

وضَّح تِنسينْغ له أنّ حليب أهل الثلج سائل أصفر وشفاف. استدعى على الفور المحاربين، الذين لم يبغوا الاقتراب حتى زمجرت لهم غرْزْ - يمبُّرْ بأمرٍ. أيضاً فحصهم اللاما ممعناً بشكلٍ خاصّ في ألسنتهم البنفسجية. الوحيدة التي لم يكن للسانها هذا اللون هي بالمحصّلة العجوز غرْزْ - يمبُّرْ. كان فمها تجويفاً سيِّئَ الرائحة ومظلم، لا يُغري بفحصه عن قرب. لكنّ تِنسينغ لم يكن بالرجل الذي يتراجع أمام العوائق.

- جميع أهل الثلج يعانون من سوء التغذية، باستثناء غرْزْ - يمبُّرْ، التي لا تُبدي غير أعراض كبِر السن. أُقَدِّر عمرها بمئة سنة - خلص اللاما.

- ما الذي تبدّل في الوادي كي ينقصهم الطعام؟ - سأل التلميذ.

- ربّما لا ينقصهم غذاء وأنّهم مرضى ولا يتمثّلون ما يأكلون. الرُّضع يتعلّق أمرهم بحليب أمهاتهم، الذي لا يفيد في تغذيتهم، إنّه كالماء، لذلك يموتون بعد أسابيع أو أشهر قليلة. البالغون يملكون وسائل أكثر لأنّهم يأكلون لحماً ونباتات، لكنّ هناك شيئاً أوهنهم.

- لذلك راح ينكمش حجمهم ويموتون شباناً - أضاف ديل باهادور.

- ربّما.

قلب ديل باهادور عينيه: فغموض معلّمه يخرجه عن صوابه أحياناً.

ـ هذه مشكلة الأجيال الأخيرة، لأنّ غرْزْ ـ يمبْرْ تتذكّر حين كان أهل الثلج طوالاً مثلها. على هذا النحوِ من المحتمل أن يختفوا بعد سنواتٍ قليلة ـ قال الفتى.

ـ ربّما ـ ردّ اللاما، الذي كان يفكّر بشيءٍ آخر، للمرّة المئة، وأضافَ أنّ غرْزْ ـ يمبْرْ تتذكّر انتقالهم إلى هذا الوادي. هذا يعني أنّ هناك شيئاً ضاراً، شيئاً راح يقضي على أهل الثلج.

ـ لا بدّ أنّ هذا هو السبب...! هل تستطيع إنقاذهم، يا مُعلّمي؟

ـ ربّما...

أغمض الراهبُ عينيه وصلّى لعدّة دقائق، طالباً الإلهامَ لحلّ المشكلة، والتواضع لإدراك أنّ الحلَّ في يده. سيعمل أفضل ما بوسعه، لكنّه لم يكن يتحكّم بالحياة أو الموت.

وبانتهاء تأمّله القصير، غسل تِنسينْغ يديه واتجه على الفور إلى إحدى الزرائب واختار أنثى تشِغنو وحلبها. ملأ قصعة بالحليب الفاتر والمرغي، وأخذها إلى حيث الأطفال. بلّل خرقة بالحليب ووضعها على فم أحدهم. لم يُظهِر هذا في البداية ردّ فعل، لكن رائحة الحليب شجّعته بعد ثوانٍ قليلة، فانشقّت شفتاه وبدأ يمصّ الخرقة بوهن. وبالإشارات طلبَ اللاما من الأمهات أن يُقلّدنه.

عملية تعليم أهل الثلج حلبَ التشِغنوات وتغذية الرُضَّع قطرةً فقطرة جاءت طويلة ومضنية. كانت قدرة أهل الثلج على التفكير في حدّها الأدنى، لكنّهم يستطيعون التعلّم بالتكرار. قضى المعلّم وتلميذه يومهم في هذا، لكنّهما رأيا النتائج في تلك الليلة ذاتها، حين بدأ ثلاثة من الأطفال بالبكاء لأوّل مرّة. في اليوم التالي كان الخمسة يبكون طالبين الحليب، وسرعان ما فتحوا عيونهم واستطاعوا التحرّك.

شعر ديل باهادور بالسرور وكأنّ الحلَّ حلّه، لكنّ تِنسينْغ لم يرتح؛ عليه أن يجد تفسيراً. درس كلّ ما كان أهلُ الثلجِ يدفعون به

إلى أفواههم، دون أن يتوصّل إلى سبب المرض، حتى بدأ هو نفسه وتلميذه يُعانيان من آلام في البطن ويتقيّآن الصفراء. لم يأكلا غير التسامبا، غذائهما المعتاد المصنوع من طحين الشعير والزبدة والماء الساخِن. لم يذوقا طعم لحم التشِغنو، الذي قدّمه إليهما أهلُ الثلج، لأنّهما نباتيَّان.

ـ ما الشيء الوحيد المختلف الذي تناولناه؟ يا ديل باهادور؟ ـ سأل المعلِّم بينما راح يُحضِّر شاياً مهضّماً لكليهما.

ـ لا شيء، يا مُعلِّمي ـ ردّ الفتى شاحباً مثل ميت.

ـ لا بدّ أنّ هناك شيئاً ـ أصرّ تِنسينْغ.

ـ لم نأكل غير *التسامبا*، لا شيء غيرها... ـ همس الفتى.

مرّر تِنسينغ إليه القصعة مع الشاي، فرفعها ديل باهادور إلى فمه وهو يتلوّى من الألم. لم يتمكّن من ابتلاع السائل. بصقه على الثلج.

ـ إنّه الماءُ، يا مُعلّمي! إنّه الماء الساخِن، يا معلّمي!

عادة ما كانا يسخنان ماءً أو ثلجاً لتحضير *التسامبا* والشاي، لكنّهما كانا قد استخدما في الوادي ماءَ أحد الينابيع المعدنية الساخن الذي كان ينبثق من الأرض.

ـ هذا هو الذي يسمِّم أهلَ الثلج، يا مُعلِّمي ـ أصرَّ الأمير.

رأياهم يستخدمون المياهَ خزاميةَ اللون لتحضير حساء الفطور، والأعشاب والأزهار البنفسجية أساس غذائهم. كانت غرْزْ ـ يمبّْرْ قد فقدت الشهيّة مع مرور السنين ولا تأكل غير اللحم النيئ كلّ يومين أو ثلاثة، وتضع في فمها قبضات من الثلج لتطفئ ظمأها. هذه المياه المعدنية ذاتها التي لا بدّ أن فيها معادن سامّة استخدماها لصنع الشاي. تفادياها في السّاعات التالية تماماً والألم الذي عانيا منه توقّف. ولكي يتأكّدا من أنّهما توصّلا إلى معرفة سبب

المشكلة صنع ديل باهادور الشايَ من الماء المشكوك به وشربه. سرعان ما راح يتقيّأ، لكنّه سُعد للبرهان على نظريّته.

أعلم اللاما وتلميذه بصبرٍ كبير غرْزْ ـ يمبّْزْ بأنّ الماء الحار خزامي اللون ممنوع منعاً باتّاً، وكذلك الخزامى التي كانت تنبت على ضفاف الجدول. وقال لها إنّ مياه الحمّة تفيد للاستحمام وليس للشرب أو لتحضير الطعام. لم يتعبا نفسيهما في أن يشرحا لها أنّها تحتوي على معادن ضارّة، لأنّ العجوز، امرأة الثلج، ما كانت لتفهم. كان يكفي أن يتبع أهل الثلج تعليماته. سهّلت غرْزْ ـ يمبّْزْ مهمّتَه. جمعت رعاياها وأبلغتهم بالقانون الجديد: من يشرب من تلك المياه سيرمى في منافذ البخار، مفهوم؟ الجميع فهم.

ساعدت القبيلة تِنسينغ وديل باهادور في جمع النباتات الطبية التي كانا يحتاجانها. تأكّد الزائران خلال الأسبوع الذي قضياه في وادي أهلَ الثلج من أنّ الأطفال راحوا يستعيدون عافيتهم يوماً بعد يوم، وأنّ البالغين يقوون مع ذهاب اللون البنفسجي عن ألسنتهم.

رافقتهما غرْزْ ـ يمبّْزْ بنفسها حين حانت لحظة مغادرتهما. رأتهما يسيران باتجاه الفجِّ الذي وصلا منه، ثمَّ أشارت عليهما أن يتبعاها في الاتجاه المعاكس، بعد شيء من التردّد، لأنّها خافت أن ينكشف سرّ أهل الثلج حتى لآلهتها. سار اللاما وتلميذه خلفها أكثر من ساعة، عبر درب ضيق يمرّ بين أعمدةِ البخار وبركِ المياه الفوّارة، حتى خلّفا وراءهما قرية أهل الثلج البدائية.

قادتهما الساحرة إلى نهاية الهضبة، دلّتهما على فتحة في الجبل، وأخبرتهما أنّ أهلَ الثلج يخرجون من حين لآخر من هناك بحثاً عن الغذاء. استطاع تِنسينغ أن يفهم ما كانت تقوله له: كان نفقاً طبيعياً يختصر الطريق. كان الوادي السرّي الغامض أقرب إلى الحضارة مما كان يعتقد أيّ شخص. وكان الرق الذي بين يدي تِنسينغ يشير إلى الطريق الوحيد المعروف من قبل اللامات، وهو أطول وأكثر عوائق، لكنّ هذا الممر السرّي موجود أيضاً. ونظراً

لموقعه أدرك تِنسينغ أنّ النفق يهبط داخل الجبل ويخرج قبل تشينثان دزونغ، الدير الخرب. وهذا ما سيُوفّر عليهما ثلثي الطريق.

ودّعتهما غزْرْ ـ يمبْرْ بإشارة الودّ الوحيدة التي تعرفها: لعقت وجهيهما وأيديهما حتى تركتها مبلَّلة باللعاب والمخاط.

وما كادت الساحرة الرهيبة تنعطف نصف انعطافة، حتى تقلّب ديل باهادور وتنسينغ في الثلج لينظّفا نفسيهما. كان المعلّم يضحك، بينما التلميذ لا يكاد يستطيع التحكّم بتقزّزه.

ـ عزاؤنا الوحيد هو أنّنا لن نعود لنرى هذه السيِّدة الطيِّبة ـ علّق الفتى.

ـ ما من لحظة يكون فيها الزمن طويلاً يا ديل باهادور، ربّما خبّأت لنا الحياة مفاجأة ـ ردّ اللاما متوغِّلاً بعزم في النفق الضيّق.

2

ثلاثة بيوض خرافية

خلال ذلك وعلى الجانب الآخر من العالم، كان ألِكساندر كولْدْ يصل إلى نيويورك برفقةِ جدَّتِهِ كات. وكان الفتى الأمريكيّ قد اكتسب لونَ الخشبِ تحت شمس الأمازون. كانت قَصّة شعره من صنع الهنود الحمر، وهناك منطقة دائرية محلوقة وسط رأسه تلمع فيها ندبة حديثة. كان يحمل حقيبته المتسخة على ظهره وفي يديه زجاجة فيها سائلٌ حليبيّ. كانت كات كولد، المُحمَّصة مثله، ترتدي بنطلونها القصير المعتاد، خاكيّ اللون وتنتعلُ حذاءً موحلاً. وشعرها، الذي قصّته بنفسها، دون أن تنظر إلى المرآة، يُضفي عليها مظهر هنديّ موهيكاني(*) استيقظَ توّاً. كانت تعبة، لكنَّ عينيها تبرقان خلف عدستي نظارتها المكسورة، الملصقة بشريط لاصق. كانت أمتعتها تضمّ ماسورة بطول ثلاثة أمتار تقريباً، وحزماً غير معهودة الحجم والشكل كثيراً.

ـ هل عندكما ما تصرِّحان به؟ ـ سأل ضابط الهجرة، ملقياً نظرة استنكارٍ على تسريحة ألِكسْ الغريبة وهيئةِ الجدّة.

(*) نسبة إلى قبيلة هنود حمر، تنتمي إلى العرق الألغوكيني، كانت تقطن جنوب غرب كونيكوت في الولايات المتحدة الأمريكية، انقرضت تماماً وكانت تعيش على الصيد.

كانت الساعة الخامسة فجراً والرجل متعباً مثل ركّاب الطائرة، التي وصلت توًّا من البرازيل.

ـ لا شيء، نحن كتّاب تحقيقات من *الإنترناشيونال جيوغرافيك*. كلّ ما معنا مواد عمل ـ ردّت كات كولْدْ.

ـ ثمار، نباتات، أغذية؟

ـ فقط ماء صحّة لعلاج أمّي... ـ قال إلِكسْ، عارضاً الزجاجة التي حملها في يده طوال الرحلة.

ـ لا تولِهِ بالاً أيّها الضابط، فهذا الولد واسع الخيال ـ قاطعته كاث.

ـ ما هذا؟ ـ سأل الموظَّفُ مشيراً إلى الماسورة.

ـ سبطانة.

ـ ماذا؟

ـ نوع من القصب الأجوف، يستخدمُه هنود الأمازون لإطلاق سهام مسمومة مع... ـ بدأ ألِكسْ يشرح، لكنّ جدَّته أسكتته برفسة منها.

كان الرجل ساهياً ولم يتابع أسئلته، وبالتالي لم يعرف شيئاً عن الجعبة ولا عن السهام ولا عن قرعة الكورار القاتل، التي جاؤوا بها في حزمة أخرى.

ـ هل من شيء آخر؟

بحث ألِكساندر كولد في جيوب البركة(*) وأخرج ثلاث كرات بلّورية.

ـ ما هذا؟

ـ أظنّ أنّها ماسات ـ قال الفتى فتلقى على الفور رفسة أخرى من جدّته.

(*) Parka سترة فرائية ذات قلنسوة تُلبَس عادة في منطقة القطب الشمالي.

ـ ماسات! شيء مضحك! ماذا كنت تُدخِّن أيّها الفتى؟ ـ هتف الضابط مقهقهاً وخاتماً جوازات السفر ومشيراً إليهما بأن يمضيا.

حين فتحت كاث باب شقّتها في نيويورك، لفحت دفقةٌ من الهواء النتن وجهها ووجه ألِكساندِر. ضربت الكاتبةُ بكفّها على جبينها. لم تكن تلك المرّة الأولى التي تسافر فيها وتترك القمامة في المطبخ. دخلا متعثرين مغطيين أنفيهما. وبينما راحت كات ترتب الأمتعة فتح حفيدها النوافذَ، وأخذ على عاتقه أمرَ القمامة التي أنتنت ودوّدت. وحين استطاعا أخيراً أن يُدخِلا الماسورة والسبطانة في الشقّة الصغيرة هوت كاث على الديوان مطلقة تنهيدة. شعرت بالسنين تُثقِل كاهلها.

ـ إنّها ماسات يا كات ـ أعلمها الفتى.

ـ طبعاً! وأنا مارلين مونرو... ـ أجابت الكاتبةُ العجوز.

ـ من؟

ـ دعك! ـ دمدمت مذعورة من هوة الأجيال التي تفصلها عن حفيدها.

ـ لا بدّ أنّها شخص من عصرك ـ افترض ألِكساندر.

ـ هذا هو عصري! هذا عصري أكثر مما هو عصرك. على الأقل أنا لا أعيش على القمر مثلك ـ دمدمت الجدَّة.

ـ فعلاً هي ماسات يا كات ـ أصرَّ.

ـ حسناً، يا ألِكساندر، هي ماسات.

ـ هل تستطيعين أن تناديني جَغوار؟ إنّه طوطمي. الماسات ليست لنا، ياكات، إنّها للهنود، لأهل الضباب. وَعَدْتُ ناديا بأن نستخدمها لحمايتهم.

ـ طيّب! طيّب، طيّب! ـ دمدمت هي دون أن توليه انتباهاً.

ـ بها نستطيع أن نُموِّل المؤسسة التي فكّرتِ بإنشائها مع الأستاذ لبلانك.

ـ أظنّ أنّهم بالضربة التي أنزلوها بجمجمتك فكّوا براغي دماغك ياولدي ـ ردَّت وهي تضع البيوض البلورية في جيب سترتها.

في الأسابيع التالية كان على الكاتبة أن تُعيد النظر بحكمها هذا حول حفيدها.

بقيت البيوض البلورية مع كاث أسبوعين دون أن تتذكّرها إطلاقاً، حتى رفعت سترتها عن أحد الكراسي وسقطت واحدة منها، هارسةً أصابع أحد قدميها. كان حفيدها قد عاد إلى بيت أبويه في كاليفورنيا. بقيت الكاتبة تتألّم من قدمها عدّة أيّام والبيوض في جيبها، تداعبها ساهيةً في الشارع. مرّت ذات صباح لتتناول القهوة في محلٍّ الزاوية، وحين غادرت نسيت إحدى الماسات على الطاولة. المالك، وهو إيطاليّ يعرفها منذ قرابة العشرين سنة، أدركها عند الزاوية.

ـ كاث! لقد نسيت كرة زجاجية! ـ صاح لها ورمى بها إليها من فوق رؤوسِ مارّةٍ آخرين.

التقطتها في الهواء وتابعت سيرها مُفَكِّرةً أنّه آن الأوان لعمل شيء بخصوص البيوض. واتجهت دون مخطّطٍ محدّدٍ إلى شارع الصاغة، حيث يوجد متجر أحد عشاقها القدماء، إسحاق روزنبلات. أوشكا قبل أربعين عاماً على الزواج، لكن جوزيف كولْدْ ظهر وأغوى كات، عازفاً لها كونشِرتو على الناي. كانت واثقة من أنّ الناي كان سحريّاً. بعد زمن قصير أصبح جوزِيف كولدْ أحد أشهر الموسيقيين في العالم. فكّرت كات مغتاظةً: «إنّه الناي ذاته الذي تركه حفيدي الغبيّ مرمياً في الأمازون!». وكانت قد شدّت ألِكساندر من أذنه شدّةً قوية لأنّه أضاع آلة جدِّه الموسيقية الرائعة.

كان إسحاق روزِنبلات أحد أعمدة الجالية العبرية، ثريّاً، مُحترماً وأباً لستَّة أبناء، وواحداً من أولئك الأشخاص المتزنين الذين يقومون بواجباتهم دون مبالغات، في سلام مع نفسه، لكنّه ما إن رأى كاتْ تدخلُ محلّه حتى شعر بنفسه يغرق في مستنقع من الذكريات. عاد خلال لحظة ليكون الشاب الخجول، الذي أحبَّ زوجته بعد أن يئس من حبه. في ذلك الزمن كانت بشرتها خزفية وشعرها أحمر عصيّاً على الترويض، والآن تُظهر تجاعيد أكثرُ من رقٍّ وشعراً رمادياً وخشناً مثل شعر ممسحة قاسية الوبر، قصّ بضربات مقص اعتباطية.

ـ كاتْ! لم تتغيّري يا صبيّة، أستطيع أن أميّزك في حشد... ـ تمتم متأثّراً.

ـ لا تكذب، أيّها العجوز، قليل الحياء ـ ردّت هي، مبتسمة، راضيةً رغماً عنها، تاركة حقيبة ظهرها التي انفجرت على الأرض مثل كيس بطاطا.

ـ لقد جئتِ لتقولي لي إنّك أخطأتِ، ولتعتذري منّي لأنّك تركتني مصلوباً، ممزَّقَ القلب، أليس صحيحاً؟ ـ سخر الصائغ.

ـ صحيح، أخطأتُ يا إسحاق. لا أصلح لأن أكون متزوجة. زواجي من جوزيف لم يدم إلاّ قليلاً جدّاً، لكنّنا أنجبنا على الأقل ولداً. والآن عندي ثلاثة أحفاد.

ـ علمتُ أنّ جوزيف مات، وحقيقة أنا حزين. دائماً غرت منه، ولم أغفر له أنّه انتزع مني الخطيبة، لكنّني ومع ذلك كنتُ أشتري جميع أسطواناته. عندي مجموعة كونشرتاته كاملة. كان عبقريّاً... ـ قال الصائغ وهو يقدّم مكاناً لكاتْ على الأريكة الداكنة، آخذاً مكانه بجانبها ـ هكذا إذن أنت أرملة الآن ـ أضاف ممحّصاً فيها بودّ.

ـ لا تبني أوهاماً، لم آتِ كي تواسيني. كما لم أحضر لأشتري جواهِر. فهي لا تناسب طريقتي في الحياة ـ ردّت كاتْ.

ـ أرى ذلك ـ أبدى إسحاق روزنبلات رأيه، ناظراً شذراً إلى بنطلونها المجعّد وحذائها الحربي، وكيسها، كيس الرحالة الموجود على الأرض.

ـ أريدُ أن أريك بعض القطع البلورية ـ قالت وهي تُخرجُ البيوض من سترتها.

يدخل نورُ الصباح من النافذة، ويصيب تماماً الأشياء التي كانت تحملها المرأة في راحتي يديها. بريق مستحيل أعمى إسحاق روزنبلات لحظةً، فدَاخَل قلبه فزع. كان يتحدّر من أسرة صاغةٍ ومرّت على أيدي جدّه حجارة كريمة من قبور الفراعنة المصريين؛ وخرجت من بين يدي والده تيجان إمبراطوراتٍ، ويداه فكّكتا يواقيت وزمردات قياصرة روسيا الذين قتلوا خلال الثورة البلشفية. لا أحد كان يعرف بالجواهر مثله، وقليلة هي الحجارة الكريمة التي تستطيع إدهاشه، لكنّه كان يملك أمام عينيه شيئاً هو من الغرابة بحيث أنّه جعله يشعر بأنّه أغشي عليه. أخذ البيوض دون أن ينطق بكلمة، حملها إلى مكتبه وفحصها بعدسته تحت مصباح. حين تأكّد من أنَّ انطباعه الأوّل كان صحيحاً أطلق زفرة عميقة، وأخرج منديلَ باتِستة أبيض وجفّف جبينَهُ.

ـ من أين سرقتِ هذا يا صبيّة؟ ـ سأل بصوتٍ مرتعِش.

ـ إنّها من مكان قصيّ اسمه مدينة البهائم.

ـ أتسخرين منّي؟ ـ قال الصائغ.

ـ أعدُك بأنّه ليس كذلك. هل تساوي شيئاً يا إسحاق؟

ـ تساوي شيئاً، نعم. لنقل إنّك تستطيعين أن تشتري بها بلداً صغيراً ـ همس الصائغ.

ـ هل أنت واثق من ذلك؟

ـ إنّها أكبر وأكمل ماسات رأيتها. أين كانت؟ من المحال أن يمرّ كنز مثل هذا دون أن يلفت انتباهاً. أعرف كلَّ الحجارة المهمّة

الموجودة في العالم يا كاث، لكنّني لم أسمع قط أحداً يتحدّث عن هذه.

- اطلب أن يأتونا بالقهوة وبجرعة فودكا يا إسحاق. ارتح الآن، لأنّني سأحكي لك قصّة مهمّة - ردّت كاث كولْدْ.

وهكذا علم الرجل الطيب عن مراهقة برازيلية صعدت إلى جبل سرّي في ألتو أورينوكو، يقودها حلمٌ وساحرٌ عارٍ، حيث عثرت على الحجارة في عشّ نسر. حكت له كات كيف أعطت الطفلةُ تلك الثروةَ لألكساندِر، حفيدها، مكلِّفة إيّاه بمهمّة استخدامها في مساعدة إحدى القبائل الهندية من أهل الضباب، التي ما تزال تعيش في العصر الحجري. أصغى إسحاق روزنبلات بتهذيب، دون أن يُصدِّق كلمةً واحدةً من تلك الحكاية غير المعقولة. ولا حتى مجنون خالص يمكن أن يبلع مثل تلك الخيالات، ذلك ما خلُصَ إليه. لا شكَّ أنَّ خطيبته القديمة متورِّطة في تجارة قذرة، أو أنّها اكتشفت منجماً هائلاً. كان يعرف أنّ كاث لن تعترف له أبداً بذلك. فتلك مسألتها، هذا حقّها، تنهّد مرّةً أخرى.

- أرى أنّك لا تُصدِّقني يا إسحاق - تمتمت الكاتبةُ، غريبةُ الهندام، دافعة بجرعة فودكا إلى حلقها لتهدّئ نوبة سعالها.

- أعتقد أنّك تتفقين معي على أنّ هذه القصّة غريبة قليلاً ياكاث...

- هذا مع أنّني لم أحكِ لك بعدُ عن البهائم، العملاقة المشعرة والنتنة التي...

- حسن، يا كاث، أظنُّ أنّني لستُ بحاجة إلى مزيد من التفاصيل - قاطعها الصائغ منهكاً.

- عليَّ أن أُحوِّل هذه الصخور إلى رأسمالٍ لمؤسسة. وعدتُ حفيدي بأنّها ستُستَخدَم لحماية أهل الضباب. هكذا يُدعى الهنود غير المرئيين و...

ـ غير المرئيين؟

ـ ليسوا غير مرئيين تماماً يا إسحاق، لكنّهم يبدون كذلك. شيء يشبه حيلة سحرية. تقول ناديا سانتوس إنّه...

ـ من هي ناديا سانتوس؟

ـ الفتاة التي عثرت على الماسات، قلتُ لك ذلك. هل ستُساعِدني ياإسحاق؟

ـ سأساعدُك ما دام هذا مشروعاً، يا كاث.

وهكذا أصبح إسحاق روزنبلات النزيه حارساً للأحجار الثلاثة العجيبة، كما أخذ على عاتقه أمر تحويلها إلى مال عداً ونقداً، واستثمارِ رأس المال بحكمة، ومساعدة كاث في إنشاء مؤسّسةِ «ماس». نصحها بأن تعينّ الأنثربولوجي لودفيك لبلانك رئيساً، على أن تبقي في يدها مراقبة المال. وبهذه الطريقة جدَّد معها أيضاً صداقته التي بقيت نائمة أربعين عاماً.

ـ هل تعلمين، يا كاث، أنّني أنا أيضاً أرمل؟ ـ اعترف لها في تلك الليلة ذاتها، حين خرجا لتناول العشاء معاً.

ـ أفترضُ أنّك لن تبح لي بحبّك ياإسحاق. منذ زمن طويل لم أغسل جوارب زوجي، ولا أفكّر بفعل ذلك الآن ـ قالت الكاتبةُ ضاحكةً.

شربا نخب الماسات.

بعد عدّة أشهر كانت كات أمام كمبيوترها دون أيّة ملابس على جسدها الهزيل غير قميص مليء بالثقوب، يصل إلى نصف فخذيها ويترك ركبتيها المعقورتين وساقيها اللتين تتقاطع فيهما العروق والندوب وقدميها، قدمي المشاءة الراسخين عارية. فوق رأسها كانت تدور، محدثةً طنينَ بعوضٍ، شفراتُ مروحة لا تتمكن من

تخفيف حرّ نيويورك الخانق في الصيف. منذ زمن ـ ست عشرة أو سبع عشرة سنة ـ كانت الكاتبة تفكّر بإمكانية أن تضع مكيّفاً في شقّتها الصغيرة، لكنّها لم تعثر بعد على اللحظة المناسبة لفعل ذلك. كان العرق يُبلِّلُ شعرها ويسيل على ظهرها، بينما أصابعها تجلدُ مفاتيح الجهاز بحنق. كانت تعرف أنّه يكفي أن تلمسها، لكنّها كانت كالحيوان في عاداتها ولذلك تهرسها، كما كانت تفعل من قبل على آلتها الكاتبة العتيقة.

إلى جانب الكمبيوتر كان هناك إبريقٌ من الشاي المُثلَّج مع الفودكا، خليط انفجاريّ تشعر بالفخر الكبير لاختراعها له. وعلى الطرف الآخر يرتاحُ غليونها، غليون البحّار المُطفَأ. أذعنت للتقليل من التدخين، لأنّ السعال لا يتركها بسلام، لكنّها تُحافِظُ على الغليون مليئاً لمرافقتها: فرائحة التبغ الأسود تُريح روحها. وكانت تفكّر: «في الخامسة والستين ليست كثيرةً النزوات التي تسمح بها ساحرة مثلي لنفسها». لم تكن مستعدة لأن تتخلّى عن أيٍّ من نزواتها، لكنّها إذا لم تتخلّ عن التدخين فإنّ رئتيها ستنفجران.

كان قد مضى على كاتْ ستّة أشهر وهي تعمل على النهوض بمؤسّسة ماس التي أنشأتها مع الأنثروبولوجي الشهير لودفيك لبلانك، الذي، لنقل ذلك عبوراً، تعتبره عدوًّها. كانت تمقت مثل هذا العمل، لكنّها إذا لم تقم به فلن يغفر لها حفيدها ذلك. «أنا شخص عمليّ، كاتبة تحقيقاتِ رحلاتٍ ومغامراتٍ، ولستُ بيروقراطية»، كانت تتنهّد بين جرعة شاي بالفودكا وأخرى.

بالإضافة إلى تورطها في مسألة المؤسسة اضطرّت لأنّ تطير مرَّتين إلى كاراكاس لتُدلي بشهادتها في الحكم ضدّ ماوْرو كاريّاس والدكتورة أُمَيرة تورّس، المسؤولَين عن موت المئات من السكان الأصليين بالجدري. لم يحضر ماورو كاريّاس الجلسة، فقد صار نبات زينة في مستوصف خاص. كان من الأفضل لو أنّ ضربة العصا التي تلقاها من الهنود نقلته إلى العالم الآخر.

راحت الأمور تتعقّد بالنسبة إلى كاث، لأنّ مجلّة *إنترناشيونال جيوغرافيك* كلّفتها بتحقيق عن مملكة التنين الذهبي. ولم يكن يناسبها تأخير الرحلة، لأنّ من الممكن أن يكلّفوا بها آخر، لكنّه كان عليها أن تشفى من السعال قبل السفر. فهذا البلد كان معشّقاً بين قمم الهيمالايا، حيث الطقسُ غدّار جدّاً، والحرارة يمكن أن تتغير بفارق ثلاثين درجة خلال ساعاتٍ قليلة. طبعاً ما كانت لتخطر ببالها فكرة أن تستشير طبيباً. كانت تتقاضى على الكلمة. ويبدو لها واضحاً أنّه ما من طبيبٍ يناسبه أن يتعافى مريضٌ، لذلك فضّلت العلاجَ المنزليَّ. وضعت ثقتها في قشرة شجرة جاءت بها من الأمازون، تعيد رئتيها جديدتين. تشامان مئوي اسمه واليماي أكّد لها أنّ القشرة تفيد في معالجة أمراض الفم والأنف. كانت تطحنها في خلّاط وتذيبها في الشاي مع الفودكا، كي تُغطّي على طعمه المرّ وتشربه على امتداد النهار بعزيمة كبيرة. لم يُعطِ الدواءُ نتيجةً بعد، هكذا وضّحت في تلك اللحظة ذاتها للأستاذ لودفيك لبلانك بالبريد الإلكتروني.

ما من شيء كان يُفرِح كولْدْ ولبلانك مثل كراهيتهما المتبادلة، ولم يكونا يتركان فرصةً تفوتهما ليبرهنا فيها عن ذلك. لم تكن تنقصهما الذرائع لأنّهما متحدان حكماً في مؤسّسة «ماس» التي يرأسها هو، وتتحكّم هي بمالها. كان العمل المشترك من أجل المؤسَّسة يجبرهما على التواصل يومياً تقريباً عبر البريد الإلكتروني كي لا يُضطرّا لسماع صوتيهما بالهاتف. كانا يحاولان أن يتقابلا أقل ما يمكن.

أُنشِئت مؤسّسة «ماس» من أجلِ حماية قبائل الأمازون بشكل عام وأهل الضباب بشكلٍ خاص، كما اشترط ألِكساندِر. كان الأستاذ لودفيك يؤلف كتاباً أكاديميّاً ضخماً عن القبيلة وعن دوره في تلك المغامرة، على الرغم من أنّ الذي أنقذ الهنود بمعجزة هو ألكساندر كولد وصديقته البرازيلية ناديا سانتوس وليس لبلانك. لم يكن

باستطاعة كاثْ حين تتذكّر تلك الأسابيع في الغابة أن تتفادى الابتسام. حين انطلقوا في رحلتهم إلى الأمازون كان حفيدها صبيّاً مدَلَّلاً، لكنّه تحوّل بعد عودته بقليل إلى رجل. لقد تصرَّفَ ألِكساندر ـ أو جغوار، كما دخل في رأسه أنّ عليه أن يُدعى ـ بشجاعة، ومن العدل الاعتراف له بذلك. كانت فخورة به. المؤسّسة وُجدَت بفضل ألِكسْ ونادیا؛ ولولاهما لكان المشروع محض كلام: هما من موّلاه.

أراد الأستاذُ في البداية أن تُسمّى المؤسَّسةُ مؤسَّسة لودفيك لبلانك، لأنّه كان واثقاً من أنَّ اسمه سيشدّ إليها الصحافة وبعضَ المُحسنين المُحتمَلين، لكنّ كاثْ لم تسمح له بأن يُكمِل الجملة.

ـ سيكون عليك أن تمرَّ على جثّتي قبل أن أضع الرأسمال الذي ساهم به حفيدي باسمك يا لبلانك ـ قاطعَتْهُ.

اضطُرَّ الأنثروبولوجي للإذعان، لأنّها تملك ماسات الأمازون الثلاث الهائلة. ولودفيك لبلانك كان مثل الصائغ روزنبلات لا يصدّق كلمة واحدة عن قصّة تلك الأحجار الرائعة. ماسات في عشّ نسر؟ وكيف لا! كان يظنّ أنّ الدليل سيزَر سانتوس، أبا ناديا، عنده مدخل إلى منجم سريّ في قلب الأدغال، والذي حصلت الصغيرة منه على الحجارة الكريمة. كان يدغدغه وهمُ العودة إلى الأمازون وإقناع الدليل بتقاسم الثروة معه. إنّه حلم أخرق، لأنّه كان يشيخ وتؤلمه مفاصله ولا يملك من الطاقة ما يسمح له بالسفر إلى أماكن أخرى دون هواء مُكيَّف، ثمّ إنّه مشغولٌ جدّاً بكتابة عمله الرئيسي.

رأى أنّ من المحال عليه التركيز على مهمّته الهامّة براتب الأستاذ المحدود. فمكتبه كان وكراً غير صحّيٍّ، في بناء متهاوٍ، في طابق رابع ليس فيه مصعد، إنّه مخجل. لو كانت كاثْ كولْد كريمةً في ميزانيتها... «يا لها من امرأة كريهة» فكّر الأنثروبولوجي. من المحال التعامل معها. كان على رئيس مؤسّسة ماس أن يعمل

بلباقة. إنّه بحاجة إلى أمينة سرّ ومكتب لائق، لكنّ كات الشحيحة لم تكن تفلت سنتيماً واحداً زيادة عن الضروري للقبائل. في هذه اللحظة تماماً كانا يناقشان عبر البريد الإلكتروني موضوع شراء سيّارة، بدت له حاجة ملحّة. فالتحرّك ـ وضّح ـ في المترو إضاعة لوقته الثمين، الذي سيكون من الأفضل وضعه في خدمة الهنود والغابات. كانت كلمات لبلانك ترتسم على شاشتها: «أنا لا أطلب شيئاً خاصّاً، يا كولْدْ، ليست سيارة ليموزين مع سائق، لكن على الأقل سيّارة بسقف قلاّب...».

رنّ الهاتفُ فتجاهلته الكاتبةُ، لأنّها لم تكن ترغب بإضاعة خيط أفكارها القطعية، التي تفكّر أن تنهال بها على لبلانك، لكنّ الجرس تابع رنينه حتى أخرجها عن صوابها. وبحركة عنيفة من يدها أخذت السماعة مغتاظةً، وهي تدمدم ضدّ الجَسور الذي قاطعها في عملها الفكري.

ـ مرحباً يا جدّتي ـ حيّاها بفرحٍ صوتُ حفيدها الكبير من كاليفورنيا.

ـ ألِكساندِرْ! ـ صاحت سعيدة بسماعه، لكنّها سرعان ما تحكّمت بنفسها كيلا يظنّ حفيدها أنّها مشتاقة إليه ـ ألم أقل لك ألفَ مرّة ألاّ تناديني جدّتي؟

ـ أيضاً اتفقنا على أن تُناديني جغوار ـ ردّ الفتى رابطَ الجأش.

ـ ليس عندك من الجغوار ولا حتى شاربه، أنت قطّ بائس أشعث.

ـ بالمقابل أنتِ أمّ أبي، ولذلك أستطيع أن أناديك شرعاً بجدّتي.

ـ هل تلقيت هديّتي؟ ـ قاطعته هي.

ـ رائعة يا كاتْ!

حقيقة كانت كذلك. فألِكساندر قد أتمّ للتوّ السادسة عشرة من عمره، وحمل إليه البريدُ علبة هائلة من نيويورك فيها هديّة جدّته.

تخلّت كاتْ كولدْ عن أحد أثمن ممتلكاتها: جلد حيّةٍ أصلةٍ طولها عدّة أمتار، هي ذاتها التي ابتلعت كاميرا مصورها في ماليزيا قبل عدّة سنوات. التذكار معلّق كزينة وحيدة في غرفة ألِكساندر. قبل أشهر كان الفتى قد مزّق الأثاث في نوبة ضيق من مرض أمّه، ولم يبق فيها غير فراش نصف منزوع الأحشاء ينام عليه، ومصباح للقراءة ليلاً.

- كيف حال أختيك؟

- أندريا لا تدخل إلى غرفتي، لأنّها ترتعب من جلد الأفعى، لكنّ نيكول تخدمني مثل عبدة كي أتركها تلمسه. قدّمت لي كلّ ما تملك مقابل جلد الأصلة، لكنّني لن أعطيه لأحدٍ أبداً.

- هذا ما آمل به. وكيف هي أمّك؟

- أفضل بكثير. يكفي أن أقول لك إنّها عادت لفراشيها وألوانها. أتعرفين؟ قال واليماي، التشامان، إنّني أملك طاقة الشفاء وإنّ عليّ أن أحسن استخدامها. فكّرت أنّني لن أصبح موسيقيّاً، كما كنت قد فكّرت، بل طبيباً. ما رأيك؟ - سأل ألِكسْ.

- أظنك تعتقد أنّك أنت من شفيتَ أمَّك... - ضحكت الجدَّة.

- أنا لم أشفِها، بل ماء الصحة والأعشاب الطبيّة التي أتيتُ بها من الأمازون...

- والمعالجة الكيميائية والأشعّة أيضاً - قاطعته.

- لن نعرف أبداً ما الذي شفاها يا كاتْ. مرضى آخرون تلقوا العلاج ذاته في المستشفى ماتوا، بالمقابل أميّ في راحة تامّة. هذا المرض غدّار جدّاً ويمكن أن يعود في أيّة لحظة، لكنّني أظنّ أنَّ النباتات التي أعطاها لي التشامان واليماي، والماء العجيب يُمكنها أن تبقي عليها سليمة.

- كلّفك الحصول عليها ما يكفي من الجهد - علّقت كات.

- كدتُ أفقد حياتي...

- هذا ليس شيئاً، لقد فقدتَ نايَ جدّك - قاطعته.

- اهتمامك براحتي مثير لي يا كاث - سخر ألِكساندر.

- في جميع الأحوال لم يعد لي في الأمر حيلة. اعتقد أنّ عليّ أن أسألك عن أسرتك...

- هي أيضاً أسرتك، وأعتقد أنك لا تملكين أخرى. إذا كان الأمرُ يهمّك فإنّنا نعودُ شيئاً فشيئاً إلى الحالة الطبيعية في الأسرة. أمي ينبت لها شعر أجعد وشائب. كانت تبدو أجمل وهي حليقة - أعلمها حفيدها.

- يُسعدني أنّ ليزا تتعافى. أرتاح إليها، إنّها رسامة جيّدة - اعترفت كاث كولْدْ.

- وأمّ صالحة...

مرّت وقفة لعدّة ثوانٍ على الخط إلى أن استجمع ألِكساندر جرأته لطرح سبب اتصاله. وضّح أنّ معه نقوداً موفّرة، لأنّه عمل خلال الأشهر الستة في إعطاء دروس موسيقية، وفي محلّ بيتزا. كان هدفه تعويض ما حطّمه في غرفته، لكنّه غيّر فكرته بعد ذلك.

- ليس عندي وقت لأستمع إلى مشاريعك المالية. ادخل في الموضوع. ما الذي تريده؟ - هدّدته الجدّة.

- أنا في إجازة بدءاً من الغد...

- و؟

- فكرتُ أنّني إذا دفعت أجرة سفري ربّما استطعت أن تأخذينني معك في رحلتك القادمة. ألم تقولي لي إنّك ستذهبين إلى الهيمالايا؟

صمت جليديّ آخر استقبل السؤال. بذلت كات كولد جهداً هائلاً كي تسيطر على السعادة التي غمرتها: فكلّ شيء جاء كما خطّطت له. لو أنّها دعت حفيدها لوضع عدداً من العراقيل، كما فعل حين دعته للسفر إلى الأمازون، لكن المبادرة جاءت هذه المرّة منه. وكانت من الثقة بأنّه سيذهب معها بحيث أنّها حضّرت له مفاجأة.

ـ هل أنتِ على الخطّ يا كات؟ ـ سأل ألِكساندر متخوّفاً.

ـ طبعاً، أين تريدني أن أكون؟

ـ هل تستطيعين أن تفكّري بالأمر على الأقل؟

ـ ياللمفاجأة! كنتُ أفكّر أنّ الشباب لا يُفكّرون إلاّ بتدخين المخدرات والحصول على عشيقات عن طريق الإنترنيت... ـ علّقت متمتمة بين أسنانها.

ـ هذا فيما بعد يا كات، فأنا في السادسة عشرة ولا تكفيني الميزانية حتى لموعدٍ افتراضي ـ ضحك ألكساندر وأضاف ـ: أعتقد أنّني أثبتّ لك أنّني رفيق سفر جيّد. لن أزعجك في شيء ويمكنني أن أساعدك. فلم تعودي في عمرٍ يسمح لك بأن تذهبي وحدك.

ـ لكن! ماذا تقول، أيّها الحشريّ؟

ـ أقصد... حسناً، أستطيع أن أحمل أمتعتك، مثلاً. كما أستطيع أن ألتقط صوراً.

ـ وهل تعتقد أن *الإنترناشيونال جيوغرافيك* ستنشر صورك؟ سيذهب تيموثي بروس وجول غونثالِث، المصوران إيّاهما اللذان سافرا معنا إلى الأمازون.

ـ وهل شُفِيَ غونثالِث؟

ـ شُفِيَت الأضلاع المكسّرة، لكنّه ما يزال يمشي خائفاً. تيموثي بروس يعتني به مثل أمّ.

ـ أنا أيضاً سأعتني بكِ مثل أمّ يا كات. ففي الهيمالايا يمكن أن يدوسك قطيع من الياك. ثمّ إنّ الأوكسجين هناك قليل، ويمكن أن تصابي بصدمة قلبية ـ توسّل الحفيد.

ـ لن أمنح لبلانك سعادة أن أموت قبله ـ دمدمت بين أسنانها وأضافت: ـ لكنّني أرى أنّك تعرف شيئاً عن هذه المنطقة.

ـ لا تستطيعين أن تتصوّري كم قرأت عنها. هل أستطيع الذهاب معك؟ رجاءً!

ـ حسناً، لكنّني لن أنتظرك لحظة واحدة. سنلتقي في مطار جون ف. كِنيدي الخميس القادم، كي نطير في التاسعة ليلاً إلى لندن، ومن هناك إلى نيودلهي. هل فهمت؟

ـ سأكون هناك، أعدكِ!

ـ أحضِرْ معك ثياباً واقية، فكلّما صعدنا أكثر ازداد البرد. أعتقد أنّك ستملك الفرصة لتمارس تسلّق الجبال. ولهذا تستطيع أن تأتي معك بمعدات التسلق.

ـ شكراً يا جدّتي، شكرّاً! ـ صاح الفتى متأثّراً.

ـ إذا عدت وناديتني جدّتي فلن آخذك إلى أي مكان ـ ردّت كاث، وعلّقت السماعة وراحت تضحك ضحكتها، ضحكة الضبع.

3

المُقتني

على بعد ثلاثين قصبة من شقّة كاثْ كولْد، وفي الطابق العلوي من ناطحةِ سحابٍ في قلبِ مانهاتن، ثاني أغنى رجلٍ في العالم، وقد جمع ثروته من سرقة أفكار مسؤوليه وشركائه في صناعة الكمبيوترات، كان يتكلّم بالهاتف مع شخصٍ في هونغ كونغ. كلاهما لم يرَ ولن يرى الآخر أبداً.

كان المِلياردير يجعله يناديه بالمُقتني والشخص في هونغ كونغ هو ببساطة المُتخصِّص. لم يكن الأوّلُ يعرفُ هويّةَ الثاني، ومن بين الإجراءات الأمنية وضع كلٌ منهما في جهاز الهاتف جهازاً لتشويه الصوت وآخر لمنع تتبّع الرقم. فتلك المكالمة لن تُسجّل في مكانٍ ولا من قبل أيّ شخص، ولا حتى وكالة الاستخبارات الأمريكية، بأحدث أجهزة تجسّسِ العالم، تستطيع أن تتحقّق مما تتكوّن الصفقة السرّية بين تينك الشخصيتين.

كان المُتخصِّصُ يحصل على أيّ شيء مقابل ثمن. يستطيع أن يقتل رئيس كولومبيا، يضع قنبلة في طائرة لوفتهانزا، يحصل على تاج إنكلترا الملكي، يخطفَ البابا، أو يبدّل لوحةَ الموناليزا في متحف اللوفر. لم يكن بحاجة لأن يعرض خدماته، فهو لم ينقصه عمل قط؛ على العكس، كان على زبائنه أن ينتظروا أشهراً على اللائحة، قبل أن يصل دورهم. طريقة عمل المُتخصِّص هي ذاتها

دائماً: يضع الزبون مبلغاً من ستّة أرقام في حساب ـ غير قابل للاستعادة ـ وينتظر بصبرٍ بينما تتحقّق المنظمة الإجرامية بصرامة من معلوماته.

بعد وقتٍ قصير يزور عميل الزبونَ، عادةً ما يكون هذا العميل ذا مظهرٍ مسكين، ربّما كان طالباً يبحث عن معلوماتٍ لأطروحته، أو راهباً ممثلاً لمؤسّسة إحسان. يُقابله العميل كي يتحقَّقَ من ماهية المهمّة، وبعدها يختفي. لا يتكلّمون في اللقاء الأوّل عن الثمن، لأنّه يُفهَم أنّه إذا احتاج الزبون للسؤال كم تُكلِّف الخدمة فمن المؤكّد أنّه لا يستطيع أن يدفع. بعدها تُغلق الصفقة بمكالمة هاتفية من المُتخصِّص شخصياً. ويمكن لهذه المكالمة أن تأتي من أيّ مكانٍ في العالم.

كان المُقتني في الثانية والأربعين من عمره؛ رجلاً متوسّطَ القامة، عاديَّ المظهر، يضع نظارة سميكة، هابط الكتفين وله صلعة مبكّرة، وهو ما كان يُضفي عليه مظهراً أكبر من عمره بكثير. يرتدي ملابس سيئة، وشعره القليل يبدو دائماً مدهناً، عادةً ما ينكش أنفه بإصبعه حين يغرق في أفكاره، وهو ما يحدث طوال الوقت. كان في طفولته انعزالياً ومعقّداً، سيّئ الصحة، بلا أصدقاء ومن النبوغ بحيث أنّه يملُّ المدرسة. كان رفاقه يمقتونه، لأنّه يحصل على أفضل العلامات دون جهد، وأساتذته لا يهضمونه لأنّه مُتحذلق ويعرف دائماً أكثر منهم. بدأ عمله في الخامسة عشرة من عمره بصناعة الكمبيوترات في مرآب بيت والده. في الثالثة والعشرين أصبح مليونيراً؛ وفي الثلاثين صار يملك، بفضل ذكائه والانعدام المطلق للتردّد عنده، في حساباته الخاصّة من المال ما يفوق ميزانية الأمم المتحدة.

اقتنى في طفولته، مثل كلّ الناس، صوراً وعملات، وفي شبابه سيارات سباق، وقلاعاً قروسطية وملاعبَ غولف، وبنوكاً وملكات جمال، والآن وهو في بداية النضج بدأ يقتني «الأشياء الغريبة» التي

يخبّئها في أقبية مدرّعة موزّعة على القارات الخمس، تحسباً لاحتمال أن يقع تغيّر عنيف، وهكذا لن تضيع مقتنياته الرائعة كلّها. كانت هذه الطريقة تزعجه لأنّه لا يستطيع أن يتنزّه بين كنوزه، متمتّعاً بها كلّها في آنٍ معاً، ويُضطرّ لأن يتنقّل في يخته من طرف إلى آخر كي يراها، لكنّه في الواقع لم يكن بحاجة لأن يفعل ذلك كثيراً. يكفيه أن يعلم أنّها موجودة، وفي أمان وأنّها له. لم يكن يحرّكه شعور حبٍّ فنّي تجاه غنيمته، بل مجرّد جشع جليّ.

من بين الأشياء التي لا تُقدّر بثمن كان المُقتني يملك أقدم مخطوطٍ عرفته البشرية، قناع توت عنخ آمون الجنائزي (قناع المتحف نسخة عنه)، ودماغ إنشتاين المقطع إلى قطع صغيرة تطفو في سائل من الفورمول، ونصوص ابن رشد الأصلية مكتوبة بخطّ يده وجلد بشري مغطى كاملاً بالوشم من العنق وحتى القدمين، وحجارة من القمر، وقنبلة نووية، وسيف شارلمان، ويوميات نابليون السرّية، وعدداً من عظام سانتا ثِيليا والمعادلة الكيميائية للكوكاكولا.

والآن يريدُ الملياردير أن يحصلَ على أحد أغرب كنوز العالم، الذي لا يعرف بوجوده إلاّ القليلون جدّاً، ولا يوجد غير كائن واحدٍ حيٍّ يملك إمكانية الوصول إليه. المسألة تتعلّق بتنين ذهبيّ مرصّع بالحجارة الكريمة، لم يرَهُ منذ أكثر من ألف وثمانمئة عام غير الملوك المتوَّجين في مملكةٍ مستقلّة في جبال ووديان الهيمالايا. كان التنين ملفوفاً بالغموض ومحميّاً بسحرٍ وبإجراءاتٍ أمنيّةٍ، قديمة ومعقّدة. ما من كتابٍ ولا دليلٍ سياحيّ يذكره، لكنّ كثيراً من الناس سمعوا به وهناك وصف له في المتحف البريطاني. كما أنّ هناك رقّاً قديماً، اكتشفه جنرالٌ في ديرٍ، حين غزت الصين التيبت. ذلك الاحتلال العسكريّ الوحشيّ، الذي أجبر أكثر من مليون تيبتي على الهرب باتجاه نيبال والهند، بينهم دالاي لاما، أعلى شخصية بوذية روحية.

كان الأميرُ، ولي العهد، في مملكة التنين الذهبي يتلقّى قبل

عام 1950 تعليمات خاصّة، من السادسة وحتى العشرين من عمره في ذلك الدير في التيبت. هناك احتُفِظ خلال قرون بالرقاق، التي تصف خصائص هذا التمثال وطريقة استخدامه، والتي كان على الأمير أن يدرسها. لم يكن الأمر يتعلّق، حسب الأسطورة، بمجرّد تمثال وحسب بل وبعملٍ عجيب في التنبّؤ، وحده الملك المتوّج من يستطيع استخدامها لحلّ مشاكل مملكته. كان باستطاعة التنين أن يتنبّأ بدءاً بتقلبات الطقس، التي كانت تحدِّدُ نوعية المحاصيل، وحتى النوايا العدوانية للبلدان المجاورة. وبفضل هذه المعلومة وحكمة حكّامها استطاعت هذه المملكة أن تُحقِّق ازدهاراً هادئاً واستقلالاً ضارياً.

بالنسبة للمُقتني لم يكن التمثال مهمّاً لأنّه ذهبيّ، فهو يملك تحت تصرُّفِه كلّ ما يرغب منه. فقط كانت تهمّه خصائص التنين السحرية. فقد دفع ثروة للجنرال الصيني مقابل الرقّ المسروق الذي عمل بعدها على ترجمته، لأنّه يعلم أنّ التمثال لن يفيده في شيء من دون معرفة التعليمات. كانت عينا الملياردير، عينا الفأر الصغيرتان تبرقان خلف نظارته السميكة عندما فكّر كيف سيتمكن من التحكّم بالاقتصاد العالمي حين يملك بين يديه ذلك الغرض. سيعرف تقلّبات سوق الأسهم قبل أن تحدث، وبذلك سيتمكّن من استباق كمبيوتراته وسيُضاعف ملايينه. كان يزعِجه أن يكون ثاني أغنى رجل في العالم.

علم المُقتني أنّه حين وقع الغزو الصيني ودُمِّر الدير وقُتِل بعض الرهبان، تمكّن الأميرُ، وليُّ عهد مملكةِ التنين الذهبي من الهرب عبر ممرات الجبال متموّهاً بملابس فلاّح، حتى وصل إلى نيبال، ومن هناك سافر، دائماً كمجهول، إلى بلده.

لم يكن رهبان التيبت قد تمكّنوا من إعداد الفتى بعد، لكنّ والده تابع تربيته شخصيّاً. ومع ذلك لم يستطع منحه الإعداد الأمثل من التمارين العقلية والروحية التي سبق أن تلقاها هو نفسه. حين

هاجم الصينيون الديرَ، لم يكن الرهبان قد فتحوا بعدُ في جبين الأمير العينَ التي تجعله قادراً على رؤية الهالة الخارقة للأشخاص فيُحدِّد بذلك مزاجهم ومقاصدهم. كما لم يُعَدّ بشكلٍ جيّد في فنّ التخاطر، الذي يسمح بقراءة الأفكار. لم يستطع والده أن يمنحه أيّاً من هذه الأشياء، لكن الأمير استطاع، عند موت هذا، أن يشغل العرش بجدارة. كان يملك معرفة عميقة بتعاليم بوذا، وتأكّد مع الزمن أنّه يملك الخلطة المناسبة من السلطة للحكم والشعور العملي لإقامة العدالة، والروحانية التي لا تسمح للسلطة بأنّ تُفسِده.

كان والد ديل باهادور قد أتمّ العشرين من عمره حين اعتلى العرش، وكثيرون هم الذين فكّروا بأنّه لن يكون قادراً على أن يحكم مثل ملوك هذه الأمّة الآخرين، ومع ذلك أظهر الملكُ الجديدُ منذ البداية نضجاً وحكمة. علم المُقتني بأنّه كان قد مضى على الملك في العرش أكثر من أربعين عاماً وتميّز حكمه بتحقيق السلام والرفاهية.

لم يكن عاهل مملكةِ التنين الذهبيّ يقبل بالتأثيرات الأجنبية، خاصّة تأثيرات الغرب، إذ كان يعتبر ثقافته مادّيةً ومنحطّة وخطيرة على القيم التي سادت دائماً في بلده، حيث الديانة الرسمية هي البوذية، وكان مصمِّماً على الحفاظ على الحالة بهذا الشكل. يُجري في كلّ عام استقصاء يقيس مؤشّر السعادة الوطنيّة، ولم يكن هذا يقوم على انعدام المشاكل، ذلك لأنّ معظمها حتميّ، بل على الموقف الرحيم والروحي لسكّانه. لم تكن الحكومة تشجّع السياحة، فهي لا تقبل في العام الواحد إلاّ عدداً محدوداً جدّاً من الزوّار المُصنّفين. ولهذا السبب كانت المؤسّسات السياحية تشير إلى ذلك البلد باسم المملكة الممنوعة.

كان التلفزيون، المُنشأ حديثاً يبثّ ساعاتٍ قليلةً يومياً، ولا يبثّ إلا تلك البرامج التي يعتبرها الملكُ غير عدوانية، مثل البرامج الرياضية والوثائقية العلمية، والرسوم المتحرّكة. الثياب الرسمية

كانت إلزامية واللباس الغربي ممنوعاً في الأماكن العامّة. صار إلغاء هذا المنع في الجامعة أحد مطالب الطلاب، الذين يتلهفون توقاً لملابس الجينز الأمريكية والأحذية الرياضية، لكنّ الملكَ كان صارماً في هذه المسألة، كما في مسائل أخرى كثيرة. فهو يحظى بدعم بقيّة السكان الفخورين بتراثهم والذين لم يكن لهم مصلحة في العادات الأجنبية.

ما كان يعرفه المُقتني قليل جدّاً عن مملكة التنين الذهبيّ، التي لم تكن تهمّه ثرواتها التاريخية والجغرافية قيد أنملة. لم يفكّر قط بزيارتها، كما لم تكن مشكلته السطوَ على التمثال السحري، فمن أجل ذلك يستطيع أن يدفع ثروة للمُتخَصِّص. إذا كان باستطاعة ذلك التمثال أن يتنبّأ بالمستقبل، كما أكّدوا له، فإنّ باستطاعته أن يُحقّق حلمه الأخيرَ: أن يتحوّل إلى أغنى رجل في العالم.

أكّد له صوتُ محدّثه المشوَّهُ في هونغ كونغ أنّ العمليّةَ جارية ويمكنه انتظار النتائج خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع. وعلى الرغم من أنّ الزبون لم يسأله، إلاّ أنّ المُتخصِّص أبلغه عن كلفة خدماته العالية بشكل غير معقول، بحيث أنّ المُقتني جاء واقفاً بقفزة واحدة.

- وماذا لو فشلت؟ - أراد أن يعرف ثاني أغنى شخص في العالم، ما إن هدأ متأمّلاً سبّابته، التي تلتصق عليها المادة الصفراء المستخرجة توّاً من أنفه.

- أنا لا أفشل - كان جواب المُتخصِّص المقتضب.

لا المُتخصِّص ولا الزبون كان يتخيّل أنّ ديل باهادور، الابن الأصغرِ لعاهل مملكة التنين الذهبي والمختار لوراثة العرش كان مع معلِّمه في «بيته» الجبلي. كان هذا مغارةً مدخلها مموّه بستارٍ طبيعي من الصخور والحراج، موجودة في نوع من الشرفة أو المطل في سفح الجبل. اختاره الراهب، لأنّه كان عملياً منيعاً لا يمكن

الوصول إليه من ثلاثة جوانب ولأنّه ما من أحد لا يعرف المكان يستطيع اكتشافه.

كان تِنسينْغ قد عاش كزاهد في ذلك الكهف سنواتٍ عدّة بصمت وعزلة حتى سلّمته ملكةُ وملكُ المملكة الممنوعة ابنهما كي يؤهِّله. سيبقى الطفلُ معه حتى سنّ العشرين، وخلال هذا الوقت عليه أن يحوِّله إلى حاكم تام من خلال تدريب هو من الصرامة بحيث أنّ البشر الذين يتحمّلونه قليلون جدّاً. لكن كلّ تدريبات العالم لا تستطيع أن تحقّق النتائج المناسبة لولا أنّ ديل باهادور يملك ذكاءً فائقاً وقلباً نقيّاً. كان تِنسينغ سعيداً، لأنّ تلميذه برهن أكثر من اللازم عن امتلاكه لهاتين الصفتين.

كان الأميرُ قد مكث مع الراهب اثني عشر عاماً، ينام على الحجارة، يتدثّر بجلد الياك، ويقتات على وجبة نباتية تماماً، مكرِّساً نفسه للتمارين الدينية والدراسة والتربية البدنية. كان سعيداً. لا يبدل حياته بأيّة حياةٍ أخرى وينظر بألم إلى اقتراب التاريخ الذي عليه أن يلتحق فيه بالعالم. ومع ذلك يتذكّر جيّداً شعوره بالرعب والوحشة حين وجد نفسه في السادسة من عمره في صومعة في الجبل بجانب مجهول عملاق الجثّة، تركه يبكي ثلاثةَ أيّام دون أن يتدخَّلَ، حتى لم يبقَ عنده دموع يذرفها. لم يبكِ بعدها أبداً. منذ ذلك اليوم حلّ الراهبُ محلّ أمّه وأبيه وبقيّة أسرته وأصبح أفضل صديق له، معلّمه، مربيه على التاو - شو، ودليله الروحيّ. تعلّم منه كلّ ما كان يعرفه تقريباً.

قاده تِنسينغ خطوةً فخطوة في طريق البوذية، علّمه التاريخ والفلسفة، عرّفه بالطبيعة، بالحيوانات وبقدرة النباتات العلاجية، طوّر حدسه وخياله، درّبه على الحرب وجعله في الوقت ذاته يرى قيمة السلام. أدخله في أسرار اللامات، وساعده في العثور على التوازن العقليّ والبدني الذي يحتاج إليه للحكم. أحد التمارين التي كان على الأمير القيام بها هو الرماية بالقوس وقوفاً وبيضّ

موضوع تحت كعبيه، أو مقرفصاً وبيضتان موضوعتان خلف ركبتيه.

ـ لا يتطلّب الأمرُ منكَ تسديداً جيّداً بالسهم وحسب، يا ديل باهادور، بل يتطلّب منك أيضاً قوّةً وثباتاً وتحكّماً بكلّ عضلاتك ـ كان اللاما يكرّر عليه بصبر.

ـ ربّما من الأجدى لنا أن نأكل البيوض، أيّها المعلّم المحترم ـ كان الأميرُ يتنهّد حين يسحق البيضتين.

كانت التمارين الروحية أكثر تكثيفاً. في العاشرة من عمره صار الفتى يدخل في غيبوبة ويرتقي إلى مستوى أسمى من الوعي، في الحادية عشرة صار باستطاعته أن يتواصل بالتخاطر ويحرّك الأشياء دون أن يلمسها، في الثالثة عشرة أصبح يقوم بأسفار كوكبية. وحين بلغ الرابعة عشرة من عمره فتح له المعلّم ثقباً في جبينه كي يستطيع أن يرى هالة الروح. كانت العملية تقوم على ثقب العظم، وهو ما خلّف عنده ندبة دائرية بحجم بذرة خرنوب.

ـ كلّ مادّة عضوية تُشعّ طاقةً، هالة من نور لا تُرى بالعين البشرية، باستثناء عين بعض الأشخاص الذين يملكون طاقات سيكولوجية، هؤلاء يستطيعون أن يتثبّتوا من أشياء كثيرة من خلال لون وشكل الهالة ـ وضّح له تِنسينغ.

سافر اللاما مع الطفلِ ثلاثةَ أصياف متتالية إلى مدن في الهند ونيبال وبوتان، كي يتدرّب على قراءة هالة الناس والحيوانات الذين يراهم، لكنّه لم يحمله قط إلى الوديان الجميلة والشرفات المقطوعة في جبال بلده ذاته، المملكة الممنوعة، التي لن يعود إليها إلاّ بعد انتهاء تربيته.

تعلّم ديل باهادور استخدامَ عين الجبين بدقّة بلغت حدّ أنّه يستطيع، وهو الآن في الثامنة عشرة من عمره، أن يُمَيّز خصائصَ

نبتة طبية وضراوةَ حيوان أو حالة شخص عاطفية، من خلال مظهر الهالة.

لم يبقَ أمام الفتى غير عامين كي يكمل العشرين وينهي المعلِّمُ عمله معه. في هذه اللحظة سيعود ديل باهادور إلى حضن أسرته، ليذهب بعدها للدراسة في أوروبا، لأنّ هناك معارف كثيرة ضروريّة في العالم الحديث، ولا يستطيع تِنسينغ أن يمنحه إيّاها كي يحكم أمّته.

كان تِنسينغ مكرَّساً لإعدادِ الأمير كي يصبحَ ذات يوم ملكاً صالحاً، ويفكَّ رموزَ رسائل التنين الذهبي، دون أن يخطر بباله أنّ في نيويورك رجلاً جشعاً يُخطِّطُ ليسرقه منه. كانت الدراسة من الكثافة والتعقيد بحيث أنّها كانت تُفقد الطالب صبرَه أحياناً، لكنَّ تِنسينغ، الصلب، يُجبره على العمل حتى يهزمهما التعبُ معاً.

ـ لا أريدُ أن أصبح ملكاً، يا معلّمي ـ قال ديل باهادور في ذلك اليوم.

ـ ربّما فضّل تلميذي أن يتنازل عن العرش على أن يدرس دروسه ـ ابتسم تِنسينغ.

ـ أريد حياةَ تأمّلٍ، يا مُعلِّمي. كيف سأستطيع الوصول إلى النور في ظلمات العالم؟

ـ لا يستطيع الجميع أن يُصبحوا زاهدين مثلي. كازْماك أن تصبح ملكاً. عليك أن تصلَ إلى النور عبر طريق أصعب بكثير من التأمّل. عليك أن تفعل ذلك بخدمة شعبك.

ـ لا أريد أن أنفصل عنك، يا مُعلّمي ـ قال الأميرُ بصوت متهدّج.

تظاهر اللاما بأنّه لم يرَ عيني الفتى المبلّلتين.

ـ الرغبة والخوف وهمان، يا ديل باهادور، ليسا واقعيين. عليك أن تمارس الانفصال.

- وهل عليّ أن أنفصل عن العاطفة؟

- العاطفة مثل نور الضحى، لا تحتاج إلى وجود الآخر كي تتبدّى. والانفصال بين الكائنات وهم أيضاً، لأنّ كلّ شيء متحد في الكون. أرواحنا دائماً مجتمعة، يا ديل باهادور - وضّح اللاما، مبرهناً، بشيء من المفاجأة، عن أنّه هو نفسه لم يكن عصيّاً على التأثّر، لأنّه أصيب بعدوى الحزن من تلميذه.

هو أيضاً كان يرى بألم اقترابَ اللحظة التي عليه أن يقود فيها الأميرَ عائداً به إلى أسرته، إلى العالم وإلى عرش مملكة التنين الذهبيّ الذي نُذر له.

4

النسر والجغوار

هبطت الطائرة التي سافِر فيها أَلِكساندِر كولْد في نيويورك في السادسة إلاّ الربع مساءً. لم يكن حرّ ذلك اليوم الحزيراني قد خفّ بعد. تذكّر الفتى بمزاجٍ رائقٍ رحلتَهُ الأولى إلى تلك المدينة، حين سرقت، بعد خروجه من المطار، فتاةٌ بريئة المظهر، كلَّ ممتلكاته. ما اسمها؟ نسيه تقريباً... مورغانا! إنّه اسم ساحرة قروسطية. بدا له أنّ سنين مرّت على ذلك، رغم أنّه لم يمضِ في الحقيقة غير ستّة أشهر. كان يشعر بنفسه شخصاً آخر: لقد كبر، صار أكثر ثقةً بنفسه ولم يعد يُعاني من نوبات الحنق أو القنوط.

لقد مرّت أزمة الأسرة: فأمّه يبدو أنّها أصبحت بمنجاة من السرطان، رغم أنّ هناك خوفاً دائماً من عودته، وعادَ أبوه ليبتسم وأختاه، أندريا ونيكول بدأتا تنضجان. ما عاد يتشاجر معهما تقريباً، فقط ما هو ضروري كي لا يركبا على رأسه. وزادت مكانته بطريقة ملحوظة بين أصدقائه؛ بمن فيهم الجميلة سيسيليا بورنز، التي عاملته دائماً كأنّه قملة، وصارت تطلب منه الآن أن يُساعِدها في واجبات الرياضيات. وأكثر من المساعدة كان عليه أن يعمل لها الواجبات كاملة ويتركها بعد ذلك تنقل منه في الامتحان، لكنّ ابتسامة الفتاة المشعّة شكّلت تعويضاً أكثر من كافٍ بالنسبة إليه. كانت سيسيليا بورنز تهزّ شعرها بينما تحمرّ أذناه. أصبح

ألِكساندِر، منذ أن عاد من الأمازون ونصف رأسه حليق وبه ندبة اعتزاز وجعبته مليئة بالقصص غير المعقولة، شعبيّاً جدّاً في المدرسة؛ ومع ذلك يشعر أنّه لم يعد ينسجم في جوّها. لم يعد أصدقاؤه يُضحكونه كما في السابق. لقد أيقظت المغامرةُ فضولَهُ. القرية الصغيرة التي ترعرع فيها تكاد تكون نقطة لا تظهر في مصوّر كاليفورنيا، حيث كان يختنق؛ وهو يريد أن يهرب من تلك التخوم ويسبر رحابةَ العالم.

اقترح عليه أستاذ الجغرافية أن يروي مغامراته في الصف. فحضر ألِكس إلى المدرسة ومعه سبطانتَه، لكن دون السهام المسمومة بالكورار، لأنّه لا يريد أن يتسبَّب بحادث، وصورَه وهو يسبح مع دلفين في ريّو نِغرو، ممسكاً بتمساح بيدين عاريتين وملتهماً لحماً مغروزاً في سهم. وحين وضّح لهم أنّها قطعة صغيرة من أفعى أناكوندا ازداد خجل رفاقه إلى حدٍّ غير معقول. هذا مع أنّه لم يحكِ لهم ما هو أهم: رحلته إلى أرض أهل الضباب، حيث وجد كائنات عجيبة مما قبل التاريخ؛ كما لم يكلمهم عن واليماي، الساحر العجوز، الذي ساعده في الحصول على ماء الصحّة لأمّه، لأنّهم سيظنون أنّه جُنَّ. سجّل كلَّ شيء بدقّة في دفتر يومياته، لأنّه فكّر أن يؤلِّف كتاباً. كان يملك حتى العنوان، عنوان كتابه: مدينة *البهائم*.

لم يكن يذكُرُ ناديا سانتوس أبداً، أو نسراً، كما كان يُناديها. أسرته كانت تعلم أنّه ترك صديقة له في الأمازون، لكن وحدها أمّه ليزا خمَّنت عمق تلك العلاقة. كانت نسر بالنسبة إليه أهم من كلّ أصدقائه مجتمعين، بمن فيهم سيسيليا بورنز. لم يكن يفكِّر بأن يعرض ذكراه عن ناديا على فضول كومة من الصبية الجهلة، الذين لن يصدّقوا أنّ باستطاعة الفتاة أن تتكلَّم مع الحيوانات وأنّها اكتشفت ثلاث ماساتٍ هائلة، أكبر وأثمن ماساتٍ في العالم. وأقل ما كان يستطيع أن يذكره هو أنّه تعلّم فن الاختفاء. هو نفسه تأكّد كيف كان الهنودُ يختفون بإرادتهم، مُتنكِّرين مثل الحرباء بلون ونسيج

الغابة؛ كان من المحال رؤيتهم على مسافة مترين وفي عزّ نور الظهيرة. حاول مرّات كثيرة أن يفعل ذلك، لكنّه لم يُحقّق نتيجة قط؛ بينما كانت ناديا تفعل ذلك بسهولة، كما لو أنّه أكثر الأشياء طبيعية في العالم.

راح جغوار يكتب لنسر يوميّاً تقريباً، بما لا يتجاوز أحياناً المقطعين، وأخرى أكثر. كان يجمّع الرسائل ويرسلها في مغلّف كبير كلَّ أسبوع؛ والرسائل تتأخّر أكثر من شهرٍ في الوصول إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، على الحدود بين البرازيل وفنزويلا، لكنّ الصديقين استسلما لهذا التأخّر. كانت تعيش في بلدة صغيرة فقيرةٍ، معزولة وبدائية، حيث الهاتف الوحيد يعود إلى نقطة الشرطة، أمّا البريد الإلكتروني فلم يسمع به أحد.

كانت ناديا تردّ بملاحظاتٍ مقتضبَة، مكتوبة بمشقّة، كما لو أنّ الكتابة مهمّة في غاية الصعوبة بالنسبة إليها، لكن يكفي بعض الجمل على الورق حتى يشعر ألِكساندر بها إلى جانبه حضوراً حقيقيّاً. فكلّ رسالة من تلك الرسائل تحمل معها نسمةً من الغابة، بخرير مياهها وموسيقى عصافيرها وقرودها. كان جغوار يشعر أحياناً بأنّه يُحس تماماً برائحة ورطوبة الغابة، بحيث لو مدّ يده يستطيع أن يلمس صديقتَهُ. نبّهته في رسالتها الأولى إلى أنّ عليه أن «يقرأ بقلبه»، تماماً كما علّمته أن «يُصغي بقلبه». وبرأيها تلك هي الطريقة للتواصل مع الحيوانات ولفهم لغةٍ مجهولة. وبقليل من الممارسة تمكّن ألِكساندر كولْدْ من فعل ذلك؛ وعندئذٍ اكتشف أنّه ليس بحاجة إلى الورق والحبر كي يشعر بالتواصل معها. فإذا كان وحيداً وفي صمت يكفيه أن يُفكّر بنسر كي يسمعها، لكنّه يُحبُّ في جميع الأحوال أن يكتب إليها. كان كمن يكتب يومياته.

حين فُتِح بابُ الطائرة في نيويورك واستطاع الركّابُ أن يمطّوا سيقانهم أخيراً، بعد ستّ ساعات من الثبات، خرج ألِكساندر وحقيبة

ظهره في يده، محتدماً ومكسّحاً، لكنّه سعيدٌ جدّاً أمام فكرة أنّه سيرى جدَّته. كان قد فقد اللون المقمّر ونما شعره، مغطياً الندبة في جمجمته. تذكّر أنّ كاث لم تستقبله في زيارته السابقة في المطار، وتضايق يومها لأنّها المرّة الأولى التي سافر فيها وحيداً. أطلق ضحكة حين فكّر بخوفه في تلك المناسبة. جدّته كانت في هذه المرّة في غاية الوضوح: عليهما أن يلتقيا في المطار. وما إن وصل من الممر الطويل إلى القاعة حتى رأى كاث كولْدْ. لم تتغيّر: الشعر المنفوش ذاته، النظارة المكسورة الملصقة بشريط لاصق، صدرة الألفِ جيب ذاتها، وجميعها مليئة بأشياء، البنطلون المجيّب حتى الركبتين، يكشف عن ساقيها النحيلتين والعضليتين، وجلدها المشقّق مثل لحاء شجرة. الشيء الوحيد غير المنتظر هو تعبير وجهها، الذي كان عادة لحيوان ضارٍ مركّز ويبدو الآن مبتهجاً. قليلة هي المرّات التي رآها فيها ألِكسنْدِر تبتسم، رغم أنّها تضحك عادة مقهقهةً، ودائماً في اللحظات غير المناسبة. كانت ضحكتُها نباحاً مجلجلاً. هي الآن تبتسم بشيء يشبه الرقّة، على الرغم من أنّه من غير المحتمل أن تكون قادرة على مثل هذا الشعور.

- مرحباً، يا كاث - حيّاها خائفاً من احتمال أن يكون دماغ جدّته بدأ يذوب قليلاً.

- وصلت متأخِّراً نصفَ ساعة - باغتته وهي تسعل.

- ذلك ذنبي - ردّ هو، مرتاحاً للنبرة: إنّها جدّته كما هي دائماً، وابتسامتها خداع بصري.

أخذها ألكساندر من ذراعها بكلّ فظاظة ممكنة وطبع قبلة مدوّية على خدّها؛ فدفعته، ونظّفت مكان القبلة بحركة من يدها، ودعته على الفور لتناول مشروب، لأنّ أمامهما ساعتين قبل الركوب إلى لندن ومن هناك إلى نيودلهي. تبعها الفتى إلى القاعة الخاصّة بالركاب، الذين يتردّدون عليها كثيراً. الكاتبة التي تسافر كثيراً كانت تسمح لنفسها على الأقل بهذا الترف. أظهرت كاث بطاقتها ودخلا.

عندها رأى ألِكساندِر على بعد ثلاثة أمتار المفاجأة التي أعدَّتها له جدَّته: ناديا سانتوس بانتظاره.

أطلق الفتى صرخةً وأفلت الحقيبةَ وفتح ذراعيه في حركة اندفاعية، لكنّه سرعان ما كبح نفسه خجلاً. احمرَّت ناديا وتردّدت بدورها للحظاتٍ، وهي لا تدري ماذا تفعل أمام ذلك الشخص، الذي سرعان ما بدا لها مجهولاً. لم تتذكّره بهذا الطول، ثمّ إنّ وجهه تبدّل، فتقاسيمه أصبحت أكثر نحولاً. لكن سرعان ما انتصر الفرح على الارتباك وركضت لترتمي على صدر صديقها. تأكّد ألكساندر من أنّ ناديا لم تكبر خلال هذه الأشهر، فما زالت الطفلة الأثيرية ذاتها، كلّها عسلية، ترفع شعرها الخشن بقوس من ريش الببغاء.

تظاهرت كاتْ كولْدْ بأنّها تقرأ مجلةً بانتباه مبالغ به، وهي تنتظر الفودكا في البار، بينما الصديقان السعيدان بلقائهما الجديد بعد انفصال طال أكثر من اللازم وشروعهما معاً بمُغامَرة أخرى يتمتمان باسميهما الطوطميين: جغوار ونسر...

كان قد مضى عدّة أشهر على اعتمال فكرة دعوة ناديا للسفر في رأس كات. بقيت على اتصال بِسيزَرْ سانتوس، والد الفتاة، لأنّه كان يشرف على برامج مؤسّسة ماس للحفاظ على الغابة الأصلية وثقافات سكان الأمازون الأصليين. كان سيزَرْ سانتوس يعرف المنطقةَ كما لا يعرفها أيّ شخصٍ آخر. إنّه رجل تلك المهمّة التامّ. منه عرفت كاتْ أنّ قبيلة أهل الضباب، التي تتزعَّمها العجوز الغريبة إيومي، تقدّم البراهين على التكيّف مع المتغييرات بسرعة كبيرة. فإيومي أرسلت أربعة شبان ـ شابين وشابتين ـ للدراسة في مدينة ماناوس؛ وهي تريد من هؤلاء الشبان أن يتعلّموا عادات الناهاب، كما يسمون من لم يكونوا هنوداً، كي يقوموا بدور الوسيط بين الثقافتين.

بينما كانت بقية القبيلة تستمرّ في الغابة، تعيش على الصيدين البرّي والمائي، كان الموفدون الأربعة يهبطون بغتةً ودون مقدمات في القرن الحادي والعشرين. وما إن اعتادوا على استخدام الثياب وتمكّنوا من اكتساب بعض الكلمات الدنيا بالبرتغالية، حتى انطلقوا بشجاعة لاكتساب «سحر الناهاب» بدءاً باختراعين هائلين: الكبريت والحافلة. اكتشفوا في أقل من ستة أشهر وجود الكمبيوترات، وحسب الخطوات التي راحوا يخطونها، برأي سيزَرْ سانتوس، فإنّ يوماً ليس ببعيد سيستطيعون أن يقاتلوا يداً بيد ضدّ المحامين المرهوبين للشركات التي تستغل الأمازون. إذ وكما كانت تقول إيومي: «هناك أنواع كثيرة من المُحاربين».

بقيت كاث كولْد وقتاً طويلاً تتوسّل سيزَرْ سانتوس أن يرسل ابنته لزيارتها. قائلة إنّ عليه أن يرسل ناديا إلى نيويورك، كما أرسلت إيومي الشبابَ للدراسة في ماناوس. كانت الفتاة قد أصبحت في عمر يسمح لها بالخروجِ من سانتا ماريّا دِ لا لْيوبيا لترى العالم. صحيح أنّ العيش في الطَبيعة والتعرف على عادات الحيوانات والهنود جميل، لكن أيضاً عليها أن تتلقى تربيتها الرسمية: إجازة لمدّة شهرين في قلب الحضارة ستفيدها كثيراً، كانت الكاتبة تؤكّد؛ وتأملُ في سرّها أن يفيد هذا الانفصال المؤقّت في طمأنة سيزَرْ سانتوس، وربّما في أن يسمح الرجلُ في وقت قصير بإرسال ابنته إلى الولايات المتحدة للدراسة.

تلك كانت المرّة الأولى التي أبدت فيها المرأة استعدادها لأن تأخذ أحداً على عاتقها، فهي لم تفعل ذلك ولا حتى مع ابنها جون، الذي بقي يعيشُ مع أبيه بعد طلاقها. فعملها في الصحافة، أسفارها، عاداتها كعجوز مزاجيّة، وشقّتها الغارقة في الفوضى لم تكن مثالية لاستقبال زائرين، لكنّ ناديا شيء خاصّ. بدت لها وهي في الثالثة عشرة من عمرها أكثر حكمة منها وهي في الخامسة والستين. كانت واثقة من أنّ ناديا تملك روحاً قديمة.

طبعاً لم تقل كاث كلمة واحدة عن مخطّطاتها لحفيدها ألِكساندر، كيلا يظنّ الفتى أنّها أصبحت عاطفية. لم يكن في هذه الحالة مثقال ذرّةٍ من العاطفية، فكّرت الكاتبة مؤكّدة؛ فدوافعها عمليّة تماماً: فهي تحتاج لمن يرتّب لها أوراقها، وأرشيفها؛ ثمّ إنّه يفيض عنها سرير في شقّتها. إذا عاشت ناديا معها، فستجعلها تعمل مثل عبدة، دون أيّ نوع من الدلال. طبعاً سيكون هذا فيما بعد، حين تصبح في بيتها، وليس الآن حيث قَبِل سيزَر سانتوس العنيد أن يرسلها لعدّة أسابيع.

لم تتصوَّر كاث أنّ ناديا ستصل وليس معها غير الثياب التي ترتديها. فكلّ متاعها كان صدرة وموزتين وعلبة كرتون ثقبت غطاءها ثقبين؛ يقبع فيها بوروبا، القرد الأسود الذي كان يرافقها دائماً، خائفاً مثلها. كانت الرحلة طويلة. حمل سيزَر سانتوس ابنته إلى الطائرة، حيث أخذتها مضيفة على عاتقها حتى نيويورك. وضع شريطاً لاصقاً على ذراعها كتب عليه هواتفَ وعنوان الكاتبة، فربّما ضاعت. لم يكن نزع اللاصق فيما بعد عملية سهلة.

لم تكن ناديا قد طارت إلاّ في طائرة أبيها المتداعية، كما لم تكن تحبّ ذلك، لأنّها تخاف الارتفاع. قفز قلبها حين رأت حجمَ الطائرة التجارية في ماناوس، وأدركت أنّها ستبقى في داخلها ساعاتٍ طويلة. صعدت مذعورةً ولم يكن حال بوروبا أفضل منها، فالقرد المسكين المعتاد على الهواء والحرّية عاش حبسه وضجيج المحرّكات بصعوبة كبيرة. حين فتحت صاحبته العلبة في مطار نيويورك خرج منها مثل السهم وهو يزعق ويقفز فوق أكتاف الناس، زارعاً الرعبَ بين المسافرين. استغرقت ناديا وكاث نصفَ ساعة في اصطياده وتهدئته.

جاءت تجربة العيش في شقّة في نيويورك في الأيّام الأولى صعبة على بوروبا وصاحبته، لكنّهما سرعان ما اعتادا على التواجد

في الشارع وأقاما صداقاتٍ في الحي، فهما حيث حلاّ لفتا الانتباه. فقرد يتصرّف مثل كائن بشري، وطفلة تضع ريشة في تسريحتها فرجةٌ في تلك المدينة. كان الناس يقدّمون لهما الحلوى والسيّاح يلتقطون لهما الصور.

ـ نيويورك مجموعة من القرى، يا ناديا، فلكلّ حيّ خصائصه الخاصّة به، فما إن تُميِّزي الإيرانيّ عن الألماني، عن فيتناميٍّ المصبغة، عن السلفادوريّ الذي يوزّع البريد، عن صديقيَ إيطالي المقهى وعدد آخر قليل من الأشخاص حتى تشعري كأنّك في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا ـ وضّحت لها كاتْ وسرعان ما تبيّنت الفتاة أنّها على حقّ.

عاملت الكاتبةُ ناديا كأميرة، بينما هي تردّد في داخلها أنّه سيكون لديها متسع من الوقت فيما بعد كي تشدّ براغيها. تنزّهت بها في كلّ مكان، حملتها لتناول الشاي في فندق بلازا، للتنزه في عربة خيول في سنترال بارك، إلى قمّة ناطحات السحاب، إلى تمثال الحرّية. اضطرت أن تعلّمها استخدام المصعد، صعود الدرج الآلي واستخدام الأبواب الدوّارة. كما ذهبا إلى المسرح والسينما، هذه التجارب التي لم تعرفها ناديا قط، لكن أكثر ما أدهشها إنّما كان جليد التزلّج. فهي المعتادة على الحرّ لم تتعب من الاندهاش من البرد ومن بياض الجليد.

ـ سرعان ما ستملّين من رؤية الجليد والثلج، لأنّني أفكِّر أن أحملك معي إلى الهيمالايا ـ قالت لها كاتْ كولْدْ.

ـ وأين هذه؟

ـ على الجانب الآخر من العالم. ستحتاجين إلى حذاء جيّد وملابس سميكة، وسترة طويلة كتيمة.

اعتبرت الكاتبةُ حملَ ناديا إلى مملكة التنين الذهبي فكرة رائعة،

فهكذا سترى الفتاة مزيداً من العالم. اشترت لها ثياباً سميكةً وحذاءً مناسِباً، كما اشترت بَرْكَةً لِبوروبا وكيس سفر خاصّ بحيوان السعد؛ كان حقيبة سوداء بشبكٍ يسمح بدخول الهواء ورؤية الخارج. كان مفروشاً بجلدِ خروف وفيه وعاء للماء والطعام. كما اشترت فوطاً. لم يكن من السهل وضعها للقرد، رغم توضيحات نادية المطوّلة باللغة التي تشارك بها الحيوان. عضّ بوروبا لأوّل مرّة إنساناً. وبقيت كاتْ كولْدْ مضمدة الذراع أسبوعاً، لكنّ الحيوان تعلّم أن يقوم بحاجاته في الفوط وهو أمرٌ ضروريّ لسفرٍ طويل كالذي خطّطت للقيام به.

لم تقل كاتْ لناديا أنّ ألِكساندر سيجتمع بهما في المطار. لقد أرادتها مفاجأة للاثنين.

بعد برهة قصيرة وصل تيموثي بروس وجول غونثالِث إلى قاعة الطيران. لم يرَ المصوِّران كاتْ والفتيين منذ رحلة الأمازون. عانقاهم بحرارة، بينما راح بوروبا يقفز من رأس هذا إلى رأس ذاك سعيداً بلقاء الأصدقاء القدامى من جديد.

رفع جول غونثالِث قميصه الداخليّ قليلاً كي يريهم بافتخار آثار عناق الأناكوندا المريع، التي بلغ طولها عدّة أمتار وكادت تقضي عليه في الغابة. كسرت عدداً من أضلاعه وتركت صدره غائراً للأبد. من ناحيته بدا تيموثي بروس فتى وسيماً، رغم وجهه الطويل كوجه حصان، واعترف حين استجوبته كاتْ التي لا ترحم بأنّه أصلح أسنانه. فبدل الأسنان الكبيرة الصفراء والملتوية التي منعته سابقاً من إغلاق فمه صار يزدهي الآن بابتسامة بهيّة.

انطلق الخمسة في الثامنة ليلاً باتجاه الهند. كانت الرحلة أبدية، لكنها قصيرة بالنسبة إلى ألِكساندر وناديا: فقد كان لديهما الكثير مما يحكيانه. تأكّدا بارتياح من أنّ بوروبا مرتاح، متقوقع مثل

رضيع فوق جلد الخروف. وبينما بقية المسافرين يحاولون النوم تسليا هما بالحديث وبمشاهدةِ الأفلام.

لم يتسع المقعد لأطراف تيموثي بروس إلاّ بصعوبة فراح ينهض من حينٍ لآخر ليمارس بعض تمارين اليوغا في الممر، وهكذا تجنّب تشنّج عضلاته. كان جول غونثالث يمضي بارتياح أكبر، لأنّه قصير ونحيل. أمّا كاث كولد فكان لها نظامها الخاص بالرحلات الطويلة: تتناول قرصين مع عدّة جرعات من الفودكا لتنام. فيأتي تأثيرها مثل ضربة هراوة على الجمجمة.

ـ إذا وجد إرهابي ومعه قنبلة في الطائرة فلا توقِظوني ـ أمرتهم قبل أن تغطّي نفسها حتى جبينها بالبطانية وتلتفّ على نفسها مثل برغوث بحر في مقعدها.

خلف ناديا وألِكساندر بثلاثة صفوف كان يُسافر رجلٌ طويل الشعر، وقد جدله في اثنتي عشرة ضفيرة نحيلة، مجموعة بدورها في الخلف برباط جلدي. وفي عنقه طوق من حبات سبحة وعلى صدره كيس صغير من الشمواه يعلقه بسير أسود. كان يرتدي جينزاً حائل اللون، وحذاءً عالي الكعب بالياً، وقبعةً تكساسية يستخدمها هابطة فوق جبينه، لم يخلعها كما تبيّنا فيما بعد ولا حتى في النوم. بدا للفتيين أنّه لم يكن في عمر يسمح له بأن يلبس بتلك الطريقة.

ـ لا بدّ أنّه موسيقيّ بوب ـ أعرب ألِكساندر.

لم تكن ناديا تعرف ما هذا وألكساندر قرّر أنه من الصعب جدّاً شرحه لها. أمل أن يقدّم لصديقته، في أوّل فرصة، المعارفَ الأساسية عن الموسيقى الشعبية، التي يجب على أيّ مراهق يحترم نفسه أن يعرفها.

قدّرا أن الهيبيّ الغريب، وبالحكم عليه من التجاعيد حول عينيه وفمه، التي تُعلّم وجهه المقمّر، يجب أن يكون في الأربعين من عمره. ما يُرى من شعره المربوط في الذيل كان رمادياً برونزياً. في جميع

الأحوال ومهما كان عمره، فهو يبدو في وضع جسدي جيّد. كانا قد رأياه في مطار نيويورك أولاً، حاملاً كيساً من الخيش وكيس نوم مربوطاً بحزام معلّق إلى كتفه، ثمّ لمحاه غافياً والقبعة على رأسه في مقعد في مطار لندن، بينما ينتظر رحلته، والآن يريانه في الطائرة ذاتها في طريقه إلى الهند. حيّياه من بعيد.

ما إن أزال القبطان إشارة إبقاء حزام الأمان مشدوداً حتى سار الرجل خطواتٍ في الممر ماطّاً عضلاته. اقترب من ناديا وألِكساندر وابتسم لهما. لاحظا لأوّل مرّة أن لون عينيه أزرق صافٍ، ليس فيهما أي تعبير، مثل عيني شخص منوّم مغناطيسياً. حرّكت ابتسامتُهُ تجاعيدَ وجهه، لكنّها لم تتخطّ الشفتين. عيناه بدتا ميّتتين. سأل المجهولُ ناديا ماذا تحمل في الكيس فوق ركبتيها فأرته بوروبا. وحين رأى الرجلُ القردَ في فوطه تحوّلت ابتسامتُهُ إلى قهقهة.

ـ يُسمّونني تكس أرماديّو(*) بسبب حذائي، هل تدريان أنّه من جلد المُدرَّع ـ قدّم نفسه.

ـ ناديا، من البرازيل ـ قالت الطفلة.

ـ ألِكساندِر كولد، من كاليفورنيا.

ـ لاحظتُ أنّكما تحملان دليلاً سياحياً للمملكة الممنوعة. رأيتُكما تدرسانه في المطار.

ـ نحن ذاهبان إلى هناك ـ أعلمه ألِكساندِر.

ـ قليلون هم السياح الذين يزورون هذا البلد. حسب علمي لا يقبلون أكثر من مئة أجنبيّ في العام ـ قال تِكس أرماديّو.

(*) Armadillo، مُدرَّع، حيوان ثديي يبلغ طوله من 30 إلى خمسين سنتيمتر، مدرع بحراشف صدفية متحرّكة وهناك أنواع عديدة منه، جميعها أمريكية جنوبية. ونحن سنعمد إلى اعتماد الاسم الأسباني كاسم مميّز لهذه الشخصية، التي ستلعب دوراً رئيسياً في الرواية.

ـ إنّنا ضمن مجموعة من *الإنترناشيونال جيوغرافيك*.

ـ صحيح؟ تبدوان صغيرين جدّاً للعمل في هذه المجلّة ـ علّق ساخراً.

ـ صحيح ـ ردّ ألِكساندر، عازماً ألاّ يقدِّم توضيحات أكثر من اللازم.

ـ خططي هي خططكم ذاتها، لكنّني لا أدري ما إذا كنتُ سأحصل على تأشيرة في الهند. في مملكة التنين الذهبي لا يستلطفون الهيبّيين من أمثالي. يظنّون أنّنا لا نذهب إلاّ من أجل المخدِّرات.

ـ وهل هناك مخدرات كثيرة؟ ـ سأل ألِكساندر.

ـ الماريغوانا والأفيون تنمو بحرّيةٍ في كلٍّ مكان. إنّه مسألة أن تصل إلى هناك وتجمعها مناسبة جدّاً.

ـ تبدو مشكلة في غاية الخطورة ـ علّق إلِكساندِر، مستغرباً ألاّ تكون جدّته قد ذكرت له ذلك.

ـ ليست أيّة مشكلة. فهي لا تُستخدم هناك إلاّ لغايات طبّية. لا يعرفون الكنز الذي يملكونه. هل تتصوّران التجارة التي ينطوي عليها استثمارها؟ ـ قال تِكسْ أرماديّو.

ـ أتصوَّر ـ أجاب ألِكساندِر. لم يُعجبه انعطاف الحديث، كما لم يعجبه الرّجل ذو العينين الميتتين.

5

حيّات الكوبرا

حطّوا في نيودلهي صباحاً. شعرت كاث والمصوِّران، المعتادون على السفر، بأنّهم في حالة جيّدة، لكنّ ناديا وألِكساندر، اللذين لم تُغمض لهما عين، بدَوَا ناجيين من زلزال. ما من أحدٍ منهما كان مستعدّاً لرؤية مشهد تلك المدينة. استقبلهما الحرُّ مثل صفعة. وما أن خرجوا إلى الشارع حتى أحاط بهم حشدٌ من الرجال، الذين انهالوا عارضين أن ينقلوا لهم أمتعتهم ويعملوا أدلاّء ويبيعوهم بدءاً من قطع الموز المغطاة بالذباب وحتى تماثيل آلهة الأضرحة الهندية. حاول خمسون طفلاً أن يقتربوا مادّين أيديهم، طالبين بعض النقود. ضغط أبرصٌ تآكلَ نصفُ وجهه وفقد أصابعَه نفسه على ألِكساندر متسوِّلاً إلى أن هدَّده حارس من حراس المطار بعصاه.

جمهور بشري داكن البشرة، رقيق التقاسيم وكبيرُ العيون أَسْوَدُها لفّهم تماماً. ألِكساندر المعتاد على البقاء على مسافة دنيا مقبولة ـ نصف متر ـ تفصل الناس في بلده بعضهم عن بعض، شعر بأنّ الشرذمة تُهاجمه. كاد لا يستطيع التنفُّسَ. فجأة انتبه إلى أنّ ناديا اختفت، ابتلعها الحشدُ. غزاه الرعب. راح يصيح بجنون، مُحاوِلاً أن يفلتَ من الأيدي التي راحت تشدّه من ثيابه، إلى أن استطاع بعد عدّة دقائق من الضيق أن يلمح على مسافة منه الريشات

الملونة التي تربطها إلى شعرها. شقّ طريقه دفعاً بمرفقيه، أمسكها من يدها وجرّها خلف خطواتِ جدَّته والمصوِّرِين الواثقين، الذين زاروا الهندَ عدَّة مرّات ويعرفون الروتين.

تأخّروا نصف ساعة في جمع الأمتعة وعدّ الرزم وحمايتها من الناس وأخذ سيّارتي أجرة، حملتاهم إلى الفندق، بالقيادة على اليسار، على الطريقة الإنكليزية، في شوارع مكتظّة؛ تدور فيها كلّ أنواع العربات في أكبر فوضى، دون احترام لإشارات المرور النادرة، أو لأوامر الشرطة: سيارات، حافلات قبيحة عليها رسوم دينية، دراجات نارية يركبها أربعة أشخاص، عربات تجرّها جواميس، ريكشو يجرّها بشر، درّاجات ثقيلة محمّلة بطلاب المدارس بل وحتى فيل وديع ومزيّن لحفلة.

اضطرّوا لأن يتوقّفوا أربعين دقيقة في اختناق مرور نظراً لوجود بقرة ميتة، محاطة بكلابٍ جائعة، وطيورٍ سوداء قبيحة تنقر لحمها المتفسّخ. وضّحت كاثْ أنّ الأبقار تُعتبرُ مقدَّسة ولا أحد يطردها، لذلك فهي تدور وسط الشوارع. ومع ذلك فهناك شرطة خاصّة تسوقها خارج المدينة وترفع جثثها.

كانت الحشود المتعرقة والصبورة تساهم في الفوضى. شيخ أشعث، شعره الطويل يصل حتى كعبيه، عارٍ تماماً؛ تتبعه ستّ نساء يرمينه بنوريات الأزهار، عبَرَ الشارع بخطو سلحفاة، دون أن يرميه أحد بنظرة. فعلاً كان مشهداً عادياً.

ناديا سانتوس المترعرعة في ضيعة من عشرين بيتاً، وفي صمت ووحشة الغابة ترنّحت بين الرعب والذهول. كانت نيويورك بالمقارنة بهذا تبدو قرية كبيرة. لم يخطر ببالها أنّه يوجد في العالم كلّ هؤلاء الناس. كان ألِكساندر يُدافع خلال ذلك عن نفسه من الأيدي التي تدخل إلى سيّارة الأجرة عارضة بضاعتها، أو طالبة صدقة، دون أن يستطيعوا إغلاق النوافذ، لأنّهم لو فعلوا لماتوا اختناقاً.

أخيراً وصلوا إلى الفندق. حين عبروا الأبواب التي تحرسها شرطةٌ مسلَّحة وجدوا أنفسهم وسط حديقة فردوسية، يعمّها السلام المُطلَق. اختفى صخب الشارع، كما لو بفعل السحر، ولم يعد يُسمع غير صداح الطيور وخرير مياه النوافير الكثيرة. في المروج تتنزّه الطواويسُ وهي تجرّ أذيالها المرصّعة. عدد من الفتية الذين يرتدون الدمقس والمخمل المطرَّز بالذهب، بعمامات عالية مزيَّنة بريش تَدْرُّج، يُشبهون صور كتب الجنيات، أخذوا أمتعتهم ورافقوهم إلى الداخل.

كان الفندق قصراً مبنياً من المرمر الأبيض بطريقة رائعة، حتى ليبدو تطريزاً. الأرضُ مغطاة بسجاجيد حريرية عملاقة؛ الأثاث من الخشب الناعم المرصَّع بالفضّة والصدف والعاج؛ على الطاولات أباريق من الخزف المزجّج التي تطفح بالأزهار الفوّاحة. نباتات استوائية وارفة تنمو في كلّ مكان في أُصصٍ من النحاس المنقوش، وأقفاص معقّدة التركيب، تُغرِّدُ فيها العصافير متعدِّدة الألوان. كان الفندق منزلاً لأحد المهراجات، أضاعَ سطوته وثروته بعد استقلال الهند، ويؤجِّره الآن لشركة فنادق أمريكية. ما زال المهراجا يسكن مع عائلته جناحاً من البناء، مفصولاً عن ضيوف الفندق. ينزلون في المساء عادة لتناول الشاي مع السياح.

كانت الغرفة التي شغلها ألِكساندر برفقة المصوِّرَين مكتظّة وفاخرة. وكان في الحمام مسبح من الزليج وعلى الجدار إفريز يمثّل حفلة صيد نمور: الصيادون المسلحون ببنادق الصيد يمتطون فيلة ومحاطون بكوكبة من الخدم المشاة، المسلحين برماح وسهام. كانوا في الطابق الأعلى ويستطيعون أن يتأمّلوا الحدائق الخرافية المفصولة عن الشارع بجدارٍ عالٍ.

ـ هؤلاء الأشخاص الذين تراهم مخيّمين هناك أسرٌ تولد وتعيش وتموت في الشارع. ملكيتهم الوحيدة هي الثياب التي

يرتدونها وبعض أواني الطهي. هم من لا يُمسّون، أفقر الفقراء ـ شرح تيموثي بروس، مشيراً إلى بعض مظلات الخرق على رصيفِ الجانبِ الآخر من الجدار.

التناقض بين أبّهة الفندق والبؤس المُطلق لأولئك الناس أحدث عند ألِكساندِر ردّ فعلٍ حانق ومرعب. بعدها حين أراد أن يتبادل مشاعره مع ناديا لم تفهم ماذا كان يعني. فهي لم تكن تملك غير الحدّ الأدنى وأبّهة ذلك القصر بدت لها خانقة.

ـ أظنّ أنّ الخارج مع أولئك الذين لا يُمسّون أكثر راحة من هنا مع كلّ هذه الأشياء، يا جغوار. إنّني دائخة. لا يوجد بقعة من الجدار غير مزيّنة، ولا مكان يرتاح فيه البصر. أبّهة زائدة عن اللزوم. إنّني أختنق. ثمّ لماذا ينحني إلينا هؤلاء الأمراء؟ ـ سألت، مشيرة إلى الرجال الذين يرتدون الدمقس ويعتمرون العمائم المُراشة.

ـ ليسوا أمراء يا نسر، إنّهم مستخدمو الفندق ـ ضحك صديقُها.

ـ قلْ لهم أن يذهبوا، لسنا بحاجة إليهم.

ـ إنّه عملُهم. لو قلتُ لهم أن يذهبوا لأهنتهم. سوف تعتادين.

عاد ألِكساندِر إلى الشرفة ليراقب الذين لا يُمسون في الشارع، الذين يعيشون في أقصى حالات البؤس، لا تكاد تسترهم خرقهم. عزل متضايقاً من المشهد بعضَ الدولارات عن القليل مما يملكه، بدّلها بالروبيات وخرج ليوزِّعها عليهم. بقيت ناديا في الشرفة تتابعه بنظرها. كان باستطاعتها أن ترى من مكانها الحدائق، وجدران الفندق والناس الفقراء على الجانب الآخر. رأت صديقها يعبر السياج المحروس من قبل الشرطة ويُغامر وحيداً بين الحشد ويبدأ يوزِّع نقودَه على أقرب الأطفال منه. وفي لحظاتٍ قليلة وجد نفسَه محاطاً بعشرات الأشخاص اليائسين. انتشر خبرٌ بأنّ هناك أجنبيّاً يُوزِّع نقوداً مثل البارود، وراح يصبّ هناك مزيد ومزيد من الناس من كلّ مكان مثل انهيار بشري جامح، لا يمكن وقفه.

وحين أدركت ناديا أنّ ألِكساندِر سيُسحق خلال دقائق راحت

تهبط الدرجَ راكضة صارخة ملْء حنجرتها. وهرع على صراخها المسافرون ومستخدمو الفندق الذين ساهموا في الاستنفار والإرباك العام. وراح الجميعُ يبدون رأيهم بينما الثواني تمضي بسرعة. لم يكن هناك وقت يُضاع، لكن يبدو أنّ أحداً لم يكن قادراً على اتخاذ القرار. وعلى الفور ظهر تِكس أرماديّو وبلمح البصر أخذَ الأمرَ على عاتقه.

ـ بسرعة! تعالوا معي! ـ أمر الحرّاسَ المسلحين الذين يحرسون بوّابات الحديقة.

قادهم دون تردُّدٍ إلى وسط اللغط القائم في الشارع، حيث راح يوزِّع اللكمات بينما رجالُ الشرطة يحاولون أن يشقّوا طريقهم بأخمص بنادقهم. انتزع أرماديّو بندقيةً من واحد منهم وأطلق طلقتين في الهواء. وعلى الفور تجمّد أكثر الناس قرباً منه في أمكنتهم، لكنّ الذين في الخلف تابعوا الدفع كي يقتربوا.

استغلّ تِكسْ أرماديّو لحظةَ الارتباك كي يدرك ألِكساندِر، الذي أصبح على الأرض وصارت ثيابه مزقاً. أخذه من إبطيه وتمكّن من جرّه بمساعدة رجال الشرطة إلى مكان آمِنٍ داخل الفندق بعد أن استعاد نظارةَ الفتى، التي بقيت، بما يشبه المعجزة، سليمة على الأرض. وأغلقوا بوابات القصر، بينما اللغط يزداد في الخارج.

ـ أنتَ أغبى مما تبدو يا ألِكساندِر. لا تستطيع أن تُبدّل شيئاً ببعض الدولارات. الهندُ هي الهند، ويجب قبولها كما هي ـ علّقت كاتْ كولْد حين رأته يصل مرضوضاً كفاية.

ـ لو أخذنا بهذا الرأي لكنّا ما نزال في عصر الكهوف! ـ ردّ هو، مجفِّفاً الدم من أنفه.

ـ ما نزال، يا صغير، ما نزال ـ قالت مخفية الاعتزاز الذي ولّده عندها موقف حفيدها.

في شرفة الفندق راقبت امرأةٌ المشهدَ، وهي جالسة تحت

شمسيّة بيضاء كبيرة ذات شراشيب ذهبية؛ توحي بأنّها ابنة أربعين سنة، عاشتها جيّداً. فهي نحيلة، طويلة، رياضية، ترتدي بنطلوناً وقميصاً قطنيين خاكيّي اللون وصندلاً ومعها حقيبة جلدية مستعملة جدّاً رمتها على الأرض بين قدميها. شعرها أسود وسابل مع خصلة كثيفة بيضاء فوق الجبين تؤطّر وجهاً كلاسيكي التقاسيم: عسلية العينين، مقوّسة وسميكة الحاجبين، مستقيمة الأنف ومعبّرةً بفمها. تعلوها، رغم بساطة ملابسها، ملامح الأرستقراطية والأناقة.

ـ أنت شابّ شجاع ـ قالت المجهولة لأَلِكساندِرْ، بعد ساعة، حين اجتمعت مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* في الشرفة.

شعر الفتى بأذنيه تلتهبان.

ـ لكن عليك أن تنتبه، فأنتَ لستَ في بلدك ـ أضافت بلغةٍ إنكليزية تامّة، وإن كان بلكنة أمريكية وسطى خفيفة، يصعب تحديد مصدرها.

في هذه اللحظة وصل نادلان يحملان على صينيتين فضّيّتين شاياً على الطريقة الهندية، مُحضَّراً بالحليب والبهارات والكثير من السكّر. دعت كاث كولدْ المسافرةَ لمشاركتهم به. كما دعت تِكس أرماديّو، ممتنَّةً لتدخّله السريع الذي أنقذ حياة حفيدها، لكنّ الرجل بقي منعزلاً بعد أن أبدى أنّه يُفضِّل البيرة وصحيفته. استغرب ألِكساندر أن ينزل هذا الهيبّيّ، الذي كان كلّ متاعه كيساً بالياً من الخيش وكيسَ نوم، في قصر المهراجا، لكنّه افترض أنّ الكلفة منخفضة جدّاً. فالهند رخيصة بالنسبة لمن يملك دولارات.

سرعان ما راحت كاث كولْد ومدعوّتُها تتبادلان الانطباعات وهكذا اكتشفتا أنّهم جميعاً ذاهبون إلى مملكة التنين الذهبي. قدّمت المجهولةُ نفسها على أنّها جوديت كينسكي، مهندسة عمارة حدائق، وحكت لهم أنّها ذاهبة بدعوة رسميّة من الملك، الذي حدث لها شرف التعرّف عليه حديثاً. قالت إنّها حين سمعت أنّ الملكَ مهتمٌّ بزراعة التوليب في بلده، كتبت إليه عارضة عليه خدماتها. كانت تُفكِّر أنّه

وتحت بعض الظروف يمكن لأبصال تلك الأزهار أن تتأقلم مع طقس وتربة المملكة الممنوعة. وعلى الفور طلب هذا منها أن تُقابله واختارت هي أن يتمّ ذلك في أمستردام، نظراً لسمعة التوليب الهولندي الدولية.

ـ جلالته يعرف عن التوليب مثل أكثر الاختصاصيين خبرة. في الحقيقة لم يحتجني في شيء، وباستطاعته أن يقوم بالمشروع وحده؛ لكنّه أُعْجِب ظاهرياً ببعض التصميمات التي أريته إيّاها وتلطَّف بالتعاقد معي ـ وضَّحت ـ تكلّمنا كثيراً عن مُخطَّطاته لإنشاء حدائق عامّة كبيرة وصغيرة لشعبه، مع الحفاظ على الأنواع المحلّية وإدخال أخرى. إنّه يعي أنّ هذا يجب أن يتمَّ بكثير من العناية، كي لا يُدمّر التوازن البيئي. في المملكة الممنوعة نباتات وطيور وبعض الثدييات التي اختفت في بقيّة أنحاء العالم. هذا البلد كنز الطبيعة.

فكّرت مجموعة *الأنترناشيونال جيوغرافيك* أنّ الملكَ قد سُحِر ولا شكّ، مثلهم، بجوديت كينسكي. كانت المرأة تُولّد انطباعاً لا يُنسى، وتشعّ مزيجاً من قوّة العريكة والأنوثة. وعند تأمّلها عن قرب فإنّ تناغم وجهها وأناقة حركاتها الطبيعية من الروعة بحيث يصعب رفع العين عنها.

ـ الملك نصير البيئة. من المؤسف أنّه لا يوجَد مزيد من الحكام مثله. إنّه مُكتتب إلى *الإنترناشيونال جيوغرافيك*. لذلك سهّل لنا التأشيرات وقَبِلَ أن نعمل تحقيقاً ـ وضّحت كاث بدورها.

ـ إنّه بلد مهمّ ـ قالت جوديت كينسكي.

ـ هل زرته من قبل؟ ـ سألَ تيموثي بروس.

ـ لا، ولكنّني قرأتُ عنه كثيراً. حاولت أن أحضر نفسي لهذه الرحلة، ليس من ناحية عملي وحسب بل ومن ناحية الناس والعادات والاحتفالات... لا أريد أن أتسبّب لهم بالإهانة بآدابي الغربية الفجّة ـ ابتسمت.

- أعتقد أنّك سمعت عن التنين الذهبي الخرافي - أثار تيموثي بروس.

- يؤكّدون أنّه ما من أحدٍ رآه، باستثناء الملوك. يمكن أن يكون مجرّد أسطورة - ردّت هي.

لم يُذْكَر الموضوع بعدها، لكنّ ألِكساندِر لاحظ بريق الحماس في عيني جدَّته وتكهَّن أنّها ستعمل ما باستطاعتها كي تقترب من ذلك الكنز؛ فتحدّيها بأن تكون أوّل من يبرهن عن وجوده لا يُقاوم عندها.

اتفقت كاتْ كولْدْ وجوديت كينسكي على تبادل المعلومات والمساعدة، كما يجب على أجنبيّتين في منطقة مجهولة أن تفعلا. على الطرف الآخر من الشرفة كان تِكس أرماديّو يشرب بيرته، وصحيفته على ساقيه، ونظارة بعدستي مرآة داكنتين تُغطّيان عينيه، لكنّ ناديا شعرت بنظرته تتفحّص المجموعة.

لم يكن عندهم غير ثلاثة أيّام للسياحة. لديهم ميّزة أنّ كثيراً من الناس يتكلّمون الإنكليزية، لأنّ الهند كانت مستعمرة للإمبراطورية البريطانية لعدّة قرون. ومع ذلك لن يتمكّنوا في هذا الوقت القصير ولا من ملامسة سطح نيودلهي، كما قالت كاث، وأقل من ذلك أن يفهموا هذا المجتمع المُعقَّد. فتناقضاته تستطيع أن تصيب أيَّ شخصٍ بالجنون: بؤس غير معقول من جهة وجمال وترف من جهة أخرى. كان هناك ملايين الأميين، لكنّ الجامعات تُخرّج أفضل الفنّيين والعلماء. ليس في القرى مياه شرب، بينما البلد يصنّع القنابل النووية. تملك الهندُ أكبر صناعة للسينما وكذلك أكبر عدد من القديسين المغطين بالرماد، الذين لم يقصّوا شعرهم ولا أظافرهم قط. وحدها آلاف الآلهة الهندوسية ونظام الطبقات تحتاج لسنواتٍ من الدراسة.

ذُعِر ألكساندِر، المُعتاد على أنّ كلّ شخص في أمريكا يفعلُ

بحياته ما يحلو له تقريباً، من فكرة أنّ الأشخاص محدودين بالطبقة التي يولدون فيها؛ بينما ناديا تُصغي إلى تعليقات كاث دون أن تُصدر أحكاماً.

ـ لو أنّكِ ولدت هنا، يا نسر، ما كنت تستطيعين أن تختاري زوجك. ولزوَّجوكِ في العاشرة من عمرك من عجوز خمسيني. والدك يرتب زواجك وأنت لا تستطيعين حتى أن تبدي رأيك ـ قال لها ألِكساندِر.

ـ بالتأكيد إنّ والدي سيختار أفضل منّي... ـ ابتسمت هي.

ـ هل أنتِ مجنونة؟ لن أسمح أبداً بمثل هذا! ـ صاح الفتى.

ـ لو أنّنا وُلِدناَ في الأمازون في قبيلة أهل الضباب، لما بدا لنا غريباً أن يُرتِّب لنا آباؤنا زواجنا ـ قالت ناديا.

ـ كيف تستطيعين أن تُدافعي عن هذا النظام في الحياة؟ انظري الفقر! هل يعجِبك أن تعيشي هكذا؟

ـ لا، يا جغوار، لكنّني أيضاً لا أحبّ أن أملك أكثر من حاجتي ـ ردّت.

حملتهما كاث كولْد لزيارة القصور والمعابد، كما تنزهت بهما في الأسواق، حيث اشترى أساور لأمِّه وأختيه، بينما طلوا يدي ناديا بالحناء، كما تُطلى أيدي العرسان. كان الرسم تطريزاً حقيقيّاً وبقي على الجلد أسبوعين أو ثلاثة. بينما بوروبا يمضي دائماً على كتف صاحبته أو رأسها، لكنّه لم يلفت الانتباه هناك، كما حدث في نيويورك، لأنّ القرود أكثر شيوعاً من الكلاب.

في إحدى الساحات كان هناك حاويا أفاعي جالسَينْ متربعَين على الأرض، يعزفان على نايَيهما، والأفعوانان تُطلان من السلّتين وتستمران منتصبتين متمايلتين ممغنطتين بصوت النايين. حين رأى بوروبا ذلك راح يزعق، ترك صاحبته وتسلّق نخلةً على الفور. اقتربت ناديا من الحاويين وراحت تتمتم بلغة الغابة. سرعان ما التفتت إليها الزاحفتان صافرتين، يقطع لساناهما المسنونان الهواء. أربع حدقات طولية انغرست مثل خناجر في الفتاة.

انسلّت حيّتا الكوبرا من سلّتيهما، قبل أن يستطيع أحد اتخاذ الحيطة، وزحفتا متمايلتين نحو ناديا. انفجر لغط في الساحة وحدثت موجة من الذعر بين الناس الذين شهدوا الحدث. بعد قليل لم يبق أحد قريباً، وحدهما ألِكساندر وجدّته، جمدتهما المباغتة والرعب. حاول الحاويان عبثاً السيطرةَ على الحيَّتين بصوت ناييهما، لكنّهما لم يجرآ على الاقتراب. بقيت ناديا غير آبهة، يعلو وجهها المحمّص الذهبي تعبير أقرب إلى المرح. لم تتحرّك قيدَ أنملة، بينما راحت الحيّتان تلتفّان على قدميها وتصعدان عبر جسدها النحيل واصلتين إلى عنقها وهما تصفران دائماً.

ظنّت كوث، التي بللّها العرق المثلج، أنّه سيُغمى عليها لأوّل مرّة في حياتها، سقطت جالسة على الأرض وبقيت هناك، شاحبة بيضاء غاربةَ العينين، دون أن تستطيع النطق بحرفٍ. أدرك ألكساندر، بعد لحظةِ الذهولِ الأولى، أنّ عليه ألاّ يتحرَّك. كان يعرف قوى صديقته الغريبة أكثر من اللازم؛ ففي الأمازون رآها تأخذ بيدها سوروكوكو، وهي واحدة من أكثر الأفاعي سمّيةً في العالم وترمي بها بعيداً. افترض أنّ نسر ستكون في منجاة ما لم يقم أحد بخطوة يمكن أن تهيّج الحيّتين.

دام المشهدُ عدَّة دقائق، حتى أصدرت الفتاة أمراً بلغة الغابة، فهبطت الحيّتان عن جسدها وعادتا إلى سلَّتيهما. وضع الحاويان الغطائين عليهما بسرعة، حملا سلّتيهما ومضيا راكضين، واثقين من أنّ تلك الغريبة التي تضع الريش على شعرها شيطان.

نادت ناديا بوروبا، وما إن أصبح من جديد على كتفها حتى تابعت سيرها عبر الساحة بأكبر قدر من الهدوء. تبعها ألِكساندر مبتسماً، دون أدنى تعليق، فرحاً لأنّه رأى جدَّته تفقد اتزانها التقليدي كاملاً أمام الخطر.

6

طائفة العقرب

اضطرّت كات كولْدْ، في آخر يوم لهم في نيودلهي، أن تقضي ساعاتٍ في وكالة سفر، محاولةً أن تحصل على التذاكر في آخر رحلة أسبوعية إلى مملكة التنين الذهبي. ليست المسألة في أنّ هناك مسافرين كثراً، بل في أنّ الطائرة صغيرة. وبينما هي تقوم بترتيباتها أذنت لناديا وألِكساندر أن يذهبا وحيدين إلى الحصن الأحمر، القريب من الفندق. كان حصناً كبيراً وقديماً جدّاً وطريقاً إجبارياً للسياح.

ـ لا تنفصلا مهما كان السبب، وعودا إلى الفندق قبل غياب الشمس ـ أمرتهما الكاتبة.

استخدمت القواتُ الإنكليزية الحصنَ في المرحلة التي استعمرت فيها الهند. كان البلد الشاسع يُعتبر أثمن جواهر التاج البريطاني، إلى أن حصل على استقلاله في العام 1949. ومنذ ذلك الوقت والحصن مهجور. لا يزور السياح إلاّ جزءاً صغيراً من بنائه الهائل. قليلون هم الذين يعرفون داخله، تلك المتاهة الحقيقية من الممرات والقاعات السرّية والأقبية التي تمتدّ تحت المدينة مثل أذرع أخطبوط.

تبع ألِكساندِر وناديا دليلاً يشرح بالإنكليزية لبعض السياح. لم

يكن حرُّ الظهيرة الخانق يدخل إلى الحصن؛ والمرء يشعر بالبرودة في الداخل والجدران تظهر ملطخة بأشنيات الرطوبة المتراكمة خلال قرون. كان الجوّ مشبعاً برائحة مزعجة، قال الدليل إنّها رائحة بول آلاف وآلاف الجرذان التي تعيش في الأقبية وتخرج ليلاً. كان السياح يُغطون أنوفهم وأفواههم مذعورين، بينما يخرج بعضهم هارباً.

سرعان ما أشارت ناديا إلى تِكس أرماديّو في البعيد، كان يستند إلى أحد الأعمدة ناظراً في كلّ الاتجاهات، كما لو أنّه ينتظر أحداً. ردّ فعلها الأوّل كان أن تذهب وتسلّم عليه، لكن وقفته لفتت انتباهَ ألكساندر فأمسك صديقته من ذراعها.

ـ انتظري، يا نسر، سنرى ما الذي يفعله هذا الرجل. فأنا لا أثق به أبداً ـ قال.

ـ تذكّرْ أنّه أنقذ حياتك حين أوشك الحشد أن يسحقك...

ـ نعم، لكنّ فيه شيئاً لا يُعجبني.

ـ لماذا؟

ـ يبدو مُقنَّعاً. لا اعتقد أنّه فعلاً هيبّيّ مهتمّ بالحصول على المخدرات، كما قال لنا في الطائرة. هل أمعنتِ في عضلاته؟ يتحرّك مثل لاعبي الكاراتيه الذين يظهرون في الأفلام. ليس للهيبّي المدمن على المخدرات هذا المظهر ـ قال ألِكساندر.

انتظرا متخفّيين بين جمهور السياح دون أن يرفعا نظريهما عنه. وفجأة رأيا أنّ رجلاً طويلاً، يرتدي دثاراً أزرق كلون جلده تقريباً يظهر على بعد خطوات من تِكس أرماديّو. ويحمل حول خصره إزاراً أسود أيضاً وسكيناً معقوفة بمقبض عظمي. تلمع عيناه مثل جمرتين في وجهه الداكن جدّاً، ذي اللحية والحاجبين الكثّين،.

لاحظ الصديقان حركة التعارف التي حيّا بها الواصل الحديث والأمريكي بعضهما بعضاً؛ ثم رأيا كيف أنّ الأوّل اختفى خلف عطفة

الجدار، متبوعاً من الثاني، وقرّرا دون اتفاق أن يتحقّقا من المسألة. همست ناديا في أذن بوروبا أن يبقى أخرس وهادئاً. تعلّق القرد على ظهر صاحبته مثل حقيبة ظهر.

تقدّما منسلين، ملتصقين بالجدران ومتسترين خلف الأعمدة على بعد أمتارٍ من تِكس أرماديّو. كان يضيع أحياناً عن عيونهما، لأنّ عمارة الحصن معقّدة وكان من الواضح أن الرجل يرغب في أن يعبر دون أن يلفت الانتباه. لكنّ غريزة ناديا التي لا تُخطئ تعود فتعثر عليه دائماً. كانا قد ابتعدا كثيراً عن الآخرين ولم تعد تُسمَع أصواتٌ ولا يُشاهَد أحد. عبرا قاعات، هبطا سلالمَ ضيّقة متآكلة الدرجات بفعلِ الزمن، وجابا ممرّات أبديّة، بإحساس أنّهما يدوران في حلقات. أُضيف إلى الرائحة النفّاذة همسٌ متنام، مثل جوقة جداجد.

ـ يجب ألاّ تهبطي أكثر، يا نسر. هذا الضجيج هو زعيق الجرذان. إنّها خطيرة جدّاً. ـ قال ألِكساندر.

ـ إذا كان باستطاعة هذين الرجلين أن يتدرّبا في الأقبية فلماذا لا نستطيع نحن ذلك؟ ردّت.

تقدّم الصديقان في الأقبية بصمت، لأنّهما انتبها إلى أنّ الصدى يُردّد ويُضاعف أصواتهما. خاف ألِكساندر ألاّ يهتديا إلى طريق العودة، لكنّه لم يبغِ أن يُظهر شكوكه بصوت عالٍ كيلا يُخيف صديقته. كما لم يقل شيئاً عن إمكانية وجود أوكار أفاعٍ، فإيقافها بعد أن رآها مع حيَّتَيّ الكوبرا بدا له في غير مكانه.

كان النور يدخل في البداية عبر فتحات موجودة في السقوف والجدران، بعدها اضطرّا لأن يسيرا مسافات طويلة في الظلمة، متلمسين الجدران كي يهتديا. من حين لآخر كان هناك مصباح خافت مشتعل ويستطيعان أن يريا الجرذان هاربة على امتداد

الجدران. كانت الأسلاك الكهربائية تتدلّى بشكلٍ خطير من السقوف. ولاحظا أنّ الأرض رطبة وتسيل في بعض الأماكن خيوط من الماء النتن. سرعان ما تبلّلت أقدامهما وحاول ألِكساندِر ألاّ يُفكّر بما قد يحدث لهما، فيما لو حدث انقطاع في الدارة الكهربائية. أن يموت بصعقة كهربائية كان يخيفه أكثر من الجرذان التي تحيط بهما، وتزداد عدوانية في كلّ مرّة أكثر.

ـ لا تهتمّ بها، يا جغوار. فهي لا تجرؤ على الاقتراب، لكنّها ستهاجمنا إذا شمّت أنّنا خائفينْ ـ همست ناديا.

اختفى تِكس أرماديّو مرّة أخرى. كان الصبيان في قبو صغير، كانوا في الماضي يخزنون فيه المؤنَ والأغذية. ثلاث فتحات تؤدّي إلى ما يبدو ممراتٍ طويلة مظلمة. سأل ألِكساندر ناديا بالإشارة أيّ الطرق سيختاران، تردّدت مشوّشةً لأوّل مرّة. لم تكن متأكّدة. أخذت بوروبا ووضعته على الأرض ودفعته دفعةً خفيفةً، داعية إيّاه كي يُقرّر عنها؛ عاد القرد ليتسلّق كتفيها بكلّ ما أوتي من سرعة: كان يرتعب من التبلّل والجرذان. كرّرت هي الأمر، لكنّ الحيوان لم يبغِ الانفصال عنها واقتصر على الإشارة بيده الصغيرة المرتعشة إلى فتحة على اليمين، وهي أضيق الفتحات الثلاث.

تبع الصديقان إشارة بوروبا، منحنيين ومتلمسين طريقهما، فهناك لم يكن توجد مصابيح كهربائية، والظلمة شبه تامّة. ألِكساندِر الذي كان أطول من ناديا بكثير، اصطدم رأسه وأطلق صرخة. سحابة من الخفافيش لفّتهما لدقائق، محدثة نوبة من الذعر عند بوروبا الذي دخل تحت قميص صاحبته.

وعندئذٍ ركّز الفتى واستدعى الجغوارَ الأسود. وبعد ثوان صار باستطاعته أن يُخمّن محيطه، كأنّه مزوّد بمجسّات. كان قد مارس هذا أشهراً، منذ أن علم في الأمازون أنّ هذا هو حيوانه الطوطمي، ملك الغابة في أمريكا الجنوبية. كان ألِكساندر يُعاني من قصر نظر

خفيف، وفي الظلمة يرى بشكلٍ سيّئ حتى بالنظارة، لكنّه تعلّم أن يثق بغريزة الجغوار الذي يتمكّن أحياناً من استحضاره. تبع ناديا الـ «مبصرة بقلبها» كما هي أحياناً كثيرة، دون تردّد.

توقّف ألِكساندر فجأةً، ممسكاً بصديقته من ذراعها: في تلك النقطة انعطف الممر انعطافة قاسية. هناك أمامهما بريق نور خفيف، ويصل إليهما همس أصوات. أطلاّ برأسيهما بحذرٍ شديد ورأيا أنّ الممرّ يصبّ على بعد ثلاثة أمتار منهما في قبوٍ آخر، مثل الذي كانا فيه قبل قليل.

كان تِكس أرماديّو ورجل الإزار الأسود وآخران يرتديان الملابس ذاتها يجلسون القرفصاء حول مصباحٍ من الزيت، ينشر نوراً خافتاً، لكنّه كافٍ كي يراهم الفتيان جيّداً. كان من المحال الاقتراب أكثر، إذ ليس هناك من مكان يختبئان فيه؛ ويعرفان أنّهما لو فاجآهم سيقعان في لحظة حرجة. بلمح البصر مرّ بذهن ألِكساندر أنّه ما من أحد يعرف مكانهما. يمكن أن يموتا في تلك الأقبية دون أن يقع أحد على أثر لهما خلال عدّة أيام وربّما أسابيع. شعر بنفسه مسؤولاً عن ناديا، وفي جميع الأحوال فكرة ملاحقة تِكس هي فكرتها وها هما الآن في تلك الورطة.

كان الرجالُ يتحدّثون بالإنكليزية وصوتُ تِكسْ أرماديّو واضح، لكنّ نبرةَ الآخرين غير مفهومة عمليّاً. كان واضحاً أنّ الأمر يتعلّق بصفقة. رأيا تِكس يُسلِّم من بدا زعيمِ المجموعة رزمةً من الأوراق النقدية. ثمّ سمعاهم يناقشون طويلاً ما بدا خطّة عملٍ تتضمّن أسلحةً ناريّة وجبالاً وربّما معبداً أو قصراً، لم يكونا متأكّدين من هذا.

نشر القائد خريطة على الأرض الترابية ومسّدها براحة يده ودلّ تكسْ برأس سكينه على طريق. كان نور مصباح الزيت يصبّ كاملاً على الرجل. ولم يكن بمقدورهما أن يريا من المسافة التي

هما فيها الخارطة جيّداً، لكنّهما ميّزا بوضوح علامة محفورة بالنار على اليد السمراء ولاحظا أن الرسم ذاته يتكرَّر على مقبض السكين العظمي. إنّه عقرب.

قدّر ألِكساندر أنّه رأى ما يكفي وأنّه صار عليهما أن ينسحبا قبل أن يعتبر هؤلاء الرجال لقاءهما منتهياً. المخرج الوحيد من القبو هو الممر الذي كانا فيه. عليهما أن يبتعدا قبل أن يُقرّر المتآمرون العودة وإلاّ لبوغتا. ومن جديد استشارت ناديا بوروبا، الذي راح يشير، دون تردُّدٍ، إلى الطريق من فوق كتف صاحبته. تذكَّرَ ألِكساندر مرتاحاً ما اعتاد أن ينصحه به والده، حين كانا يتسلقان الجبال معاً «واجِهِ العوائق في كلّ مرّة تظهر فيها، لا تبدّد طاقتك بالخوف مما يمكن أن يحدث في المستقبل». ابتسم مُفكِّراً أنّه يجب ألاّ ينشغل إلى هذا الحدّ، ذلك لأنّه ليس دائماً من على عاتقه الأمر. كانت ناديا شخصاً لديه إمكانيات لا تنضب، كما برهنت في مناسبات كثيرة. عليه ألاّ ينسى ذلك.

وصلا بعد خمس عشرة دقيقة إلى مستوى الشارع، وسرعان ما سمعا أصوات السياح، فأسرعا الخطو ودخلا مختلطين في الحشد. لم يريا بعدها تِكس أرماديّو.

- هل تعرفين شيئاً عن العقرب، يا كاتْ؟ - سأل ألِكساندِر جدّته، حين اجتمعا بها في الفندق.

- بعض ما هو موجود منها في الهند سامّ جدّاً. إذا لدغتك يمكن أن تموت. آمل ألاّ تكون هذه هي الحال، لأنّ هذا يمكن أن يؤخّر رحلتنا وليس عندي وقت للجنائز - ردّت هي متظاهرة باللامبالاة.

- لم يلدغني أيٌّ منها حتى الآن.

- لماذا تهمّك إذن؟

ـ أريد أن أعرف ما إذا كان العقرب يعني شيئاً. هل هو رمزٌ ديني، مثلاً؟

ـ الأفعى نعم، وخاصّة الكوبرا. فحسب الأسطورة هناك كوبرا عملاقة حمت بوذا خلال تأمُّله. لكنّني لا أعرف شيئاً عن العقارب.

ـ هل تستطيعين أن تتحقّقي من ذلك؟

ـ سيكون عليّ أن أتصل بلودفيك لبلانك. هل أنت واثق من أنّك ستطلب منّي مثل هذه التضحية، يا بُنَي؟ ـ تمتمت الكاتبة.

ـ أظنّ أنّه يمكن أن يكون في غاية الأهمية، يا جدّتي، عفواً، أعني، يا كات...

وضعت مأخذَ كمبيوترها الصغير في الكهرباء وأرسلت رسالة إلى الأستاذ. ونظراً لفارق الساعات كان من المحال التكلّم معه بالهاتف. لم تكن تعلم متى سيصلها الجواب، لكنّها أملت أن يكون سريعاً، فهي لا تدري ما إذا كان باستطاعتهم أن يتواصلوا فيما بعد من المملكة الممنوعة. أرسلت أخرى إلى صديقها إسحاق روزنبلات، مستجيبة لحديث قلبها، لتسأله عمّا إذا كان يعرف شيئاً عن تنين ذهبي، موجود افتراضاً في البلد الذي يتوجّهون إليه. وأمام دهشتها ردّ الصائغ على الفور: *يا بنت! ما أسعد أن أعرف عنك! طبعاً أعلم عن هذا التمثال، كلّ صائغ جدّيّ يعرف وصفه، لأنّ الأمر يتعلّق بأندر ما في العالم وأثمنه. ما من أحدٍ رأى التنين الشهير، كما لم يُصَوَّر، لكن هناك رسومات له. طوله قرابة الستين سنتيمتراً ويفترض أنّه من ذهب خالص. لكن هذا ليس كلّ شيء: شغل الصياغة قديم جدّاً وجميل جدّاً، ثمّ إنّه مرصّع بالحجارة الكريمة؛ وحدهما ياقوتتا النجم، المتناظرتان تماماً، الموجودتان، حسب الأسطورة، في عينيه تكلّف ثروة. لماذا تسأليني عنه؟ لا أعتقد أنك تُخطّطين لسرقة التنين كما فعلتِ بماسات الأمازون؟*

أكّدت كاث للصائغ أنّ هذا تماماً ما تصبو إليه وقرّرت ألاّ تُكرّر

عليه أنَّ ناديا هي التي عثرت على الماسات. كان يناسبها أن يعتقد إسحاق روزنبلات أنّها قادرة على أن تكون قد سرقتها. قدّرت أنّه بهذا الشكل لن يتدنى اهتمامُ عشيقها القديم بها. أطلقت قهقهةً، لكن سرعان ما تحوّل الضحكُ إلى سُعال. بحثت في عددٍ من جيوبها المتعدّدة واستخرجت مزادة العلاج الأمازوني.

جاء جواب الأستاذ لودفيك لبلانك طويلاً ومشوّشاً، مثل كلّ أشيائه. بدأ بشرحٍ متعب عن كيف أنّه، من بين فضائله الكثيرة، أوّلُ من اكتشف كعالِم إناسة معنى العقرب في الأساطير السومرية والمصرية والهندية و، و، وثلاث وعشرين فقرة أخرى حول معارفه وحكمته الخاصّة. لكن هناك عدّة معلومات هامّة جدّاً، مبعثرة بين الفقرات الثلاث، اضطرت كات لإنقاذها من تلك المتاهة. أطلقت الكاتبة تنهيدة انزعاج، مفكرة كم كان صعباً تحمّل ذلك المتحذلق. اضطُرَّت لأن تقرأ الرسالةَ عدّة مرّاتٍ كي تلخّص المهمَّ.

- حسب لبلانك هناك طائفة في شمال الهند تعبد العقرب. وأعضاؤها يحملون عقرباً مطبوعاً بالنار الحامية، عادةً ما يكون على قفا اليد اليمنى. مشهورون بأنّهم دمويون، جهلة ومتطيرون - أَعلَمَتْ حفيدَها وناديا.

وأضافت أنّ الطائفة مكروهة، لأنّها قامت خلال حرب الاستقلال بلعب الدور القذر لصالح القوات البريطانية، وذلك بتعذيب وقتل أبناء وطنهم ذاتهم. ما يزال رجال هذه الطائفة يُستَخدَمون كمرتزقة، لأنّهم محاربون شرسون مشهورون بمهارتهم في استخدام الخناجر.

- إنّهم لصوص ومهربون، لكنّهم أيضاً يكسبون عيشهم بالقتل المأجور - وضّحت الكاتبة.

شرع الفتى يحكي لها ما رأياه في الحصن الأحمر. وإذا كانت

كاثْ قد رغبت بتأنيبهما لأنّهما خاضا مثل تلك المخاطرة، إلا أنّها أحجمت. فخلال رحلتها إلى الأمازون تعلّمت أن تثِق بهما.

- لا شكّ عندي أنّ الرجالَ الذين رأيتموهم ينتمون إلى هذه الطائفة. يقول لبلانك إنّ أبناءها يرتدون الأدثرة والعمائم القطنية المصبوغة بالنيلة، وهي مستخلص نباتي. الصباغ يلتصق بالجلد ويصبح مع الأيام ثابتاً، مثل الوشم ولذلك يُعرفون بـ«المحاربين الزرق». هم بدو يعيشون على ظهور خيولهم، ولا يملكون غير أسلحتهم ويُدرَّبون منذ طفولتهم على الحرب - وضّحت كاثْ.

- وهل جلد النساء أزرق أيضاً؟ - سألت ناديا.

- غريب أن تسألي هذا، يا صغيرتي. لا يوجد نساء في الطائفة.

- وكيف يملكون أولاداً إذا لم يكن عندهم نساء؟

- لا أدري. ربّما ليس لديهم أولاد.

- إذا كانوا يتدرّبون على الحرب منذ صغرهم، فلا بدّ أن يولد أطفال في الطائفة - أصرّت ناديا.

- ربّما كانوا يسرقونهم أو يشترونهم. في هذا البلد فاقة كثيرة، وكثير من الأطفال المهجورين، كما أنّ هناك آباء لا يستطيعون أن يُطعموا أولادهم فيبيعونهم - قالت كاثْ كولْدْ.

- أتساءل ما التجارة التي يقيمها تِكس أرماديّو مع طائفة العقرب؟ - همس ألِكساندر.

- لا شيء يمكن أن يكون صالحاً - قالت ناديا.

- هل تعتقدين أنّ الأمر يتعلَّق بالمُخدِّرات؟ تذكّري أنّه قال في الطائرة إنّ الماريغوانا والأفيون ينموان برّيّين في المملكة الممنوعة.

- آمل ألاّ يعبر هذا الرجل في طريقنا مرّة أخرى، لكن إذا ما حدث ذلك، فلا أريدكما أن تحشرا نفسيكما معه. هل فهمتما؟ - أمرت جدّته بحزم.

وافق الصديقان، لكنّ الكاتبة استطاعت أن ترى النظرة التي تبادلاها، وخمّنت أنّه ما من تنبيه منها يمكن أن يقف حائلاً دون فضول ناديا وألِكساندِر.

بعد ساعة اجتمعت مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* في المطار كي تأخذ الطائرة إلى تونخالا، عاصمة مملكة التنين الذهبي. والتقوا هناك بجوديت كينسكي، التي تذهب في الرحلة ذاتها. كانت مهندسة عمارة الحدائق ترتدي لباساً من الكتان الأبيض ومعطفاً طويلاً من النسيج ذاته وحذاء، وتحمل الحقيبة المستهلكة ذاتها التي رأوها معها من قبل. كان متاعها مكوّناً من حقيبتين من القماش السميك كسجادة، حسنتي الصناعة، لكنّهما أيضاً متآكلتان. كان واضحاً أنّها سافرتا كثيراً، لكنّ الاستخدام لم يضفِ على لباسها ولا على أمتعتها مظهر الإهمال. على العكس من أعضاء مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* الذين بدوا بألبستهم الحائلة والمجعّدة ورزمهم وحقائب ظهورهم لاجئين هاربين من كارثة.

كانت الطائرة من طراز قديم بمراوح، تتسع لثمانية ركّاب وقبطانين. الركاب الآخرون كانا هندياً لديه تجارة في المملكة الممنوعة، وطبيباً شاباً تخرّج من جامعة نيودلهي وهو عائد إلى بلده. علّق الركابُ قائلين إنّ تلك الطائرة الصغيرة لا تبدو وسيلة آمنة لتحدّي جبال الهيمالايا، لكنّ الطيار ردّ مبتسماً بأنّه ليس هناك ما يُخْشى منه: خلال سنوات تجربته العشر لم يقع حادث قط، على الرغم من أنّ الرياح بين الهوّات عادة ما تكون قويّة جدّاً.

ـ أيّة هوّات ـ سأل جول غونثالث، قلقاً.

ـ آمل أن تتمكّنوا من رؤيتها؛ إنّها مشهد رائع. أفضل فترة للطيران هي بين تشرين الأوّل ونيسان، حين تكون السماء صافية. إذا كانت غائمة فلا شيء يُرى. ـ قال القبطان.

ـ إنّها اليوم غائمة قليلاً. ماذا سنفعل كيلا نتحطّم مرتطمين بالجبال ـ سألت كاث كولْدْ.

ـ هذه غيوم منخفضة، يا سيِّدتي. ثمَّ إنّني أعرف الطريقَ عن ظهر قلب. أستطيع أن أطير مغمضَ العينين.

ـ آمل أن تفتحهما، أيّها الشاب ـ ردّت هي بجفاف.

ـ أعتقد أنّنا سنخلِّف الغيومَ وراءنا خلال نصف ساعة ـ طمأنها القبطان وأضاف أنّهم محظوظون، لأنّ الرحلات عادة ما تتأخَّر عدَّة أيّام حسب الطقس.

تأكّد جغوار والنسر مرتاحين من أنّ تِكس أرماديّو لم يكن معهم في الرحلة.

7

المملكة الممنوعة

ما من أحدٍ من المسافرين على متن تلك الرحلة لأوّل مرّة كان مستعدّاً لما صادفه. كان أسوأ من الجبل الروسي في مدينة ملاهي؛ فقد سدّت آذانهم وشعروا بفراغ في مِعَدهم، بينما الطائرة ترتفع عمودياً مثل سهم. فيسقطون فجأة على رؤوسهم عدّة مئات من الأمتار ويشعرون بأمعائهم تلتصق بأدمغتهم. وحين بدا لهم أخيراً أنّهم استقرّوا قليلاً انحرف الطيّارُ بزاوية حادّة كي يتفادى قمّةً من قمم الهيمالايا، وصاروا عملياً معلّقين إلى رؤوسهم؛ ثم دار بالزاوية ذاتها إلى الجانب الآخر.

كان باستطاعتهم أن يروا من النوافذ على كلا الجانبين سفوح الجبال، في الأسفل، في الأسفل السحيق، الهوّات غير المعقولة التي لا يكاد يُلمَحُ قاعُها. إنّ مجرّد حركة خاطئة أو تردّد قصير من الطيّار سيجعل الطائرة تتحطّم على الصخور أو تسقط مثل حجر. كانت تهبّ رياح نزوية، تدفعهم فجأةً إلى الأمام، لكنّهم ما إن يجتازوا جبلاً حتى تصبح بعكسهم، مبقية عليهم في الجوّ في ثبات ظاهري.

كان تاجر الهند والطبيب الشاب ملتصقين بمقعديهما، قلقَين كفاية، رغم أنّهما قالا أنّهما مرّا بتلك التجربة من قبل. كان أعضاء بعثة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* من ناحيتهم يسندون مِعَدهم بأيديهم، محاولين أن يتحكّموا بغثيانهم وخوفِهم. وما من أحدٍ منهم

علّق أدنى تعليق بما في ذلك جول غونثالِث، الذي كان شاحباً أبيض مثل ملحفة، متمتماً بصلواتٍ ومداعباً الصليب الفضّي الذي يحمله دائماً في عنقه. جميعهم لاحظوا هدوء جوديت كينسكي، التي تدبَّرت أمرها كي تتصفّح كتاب عن التوليب دون أن تُصاب بالدوار.

دامت الرحلة عدّة ساعات بدت بطول عدّة أيّام، حطّوا بعدها انقضاضاً في طريق قصير مرسوم وسط النباتات. رأوا من الجوّ المنظر الرائع للمملكة الممنوعة: بين سلسلة الجبال الثلجية الجليلة هناك سلسلة من الوديان الضيّقة والشرفات فوق سفوح الهضاب حيث تنمو نباتات طافحة بالحيوية، شبه استوائية. كانت القرى تظهر صغيرة بيضاء مثل بيوت لعب أطفالٍ، مبعثرة هنا وهناك في أماكن تكاد تكون عصيّة. العاصمة قائمة في وادٍ طويل وضيّق محصورٍ بين الجبال. بدا من المحال على الطائرة أن تناور هناك، لكنّ الطيّار كان يعرف جيّداً ما يفعلُ. أخيراً حين لامسوا الأرض صفّق الجميعُ محتفلين بمهارته المذهلة. في الخارج قرَّبوا على الفور سلّماً وفتحوا بوّابة الطائرة. نهض الركاب على أقدامهم بشقّ النفس، وتقدّموا متعثرين باتجاه المخرج، ينتابهم إحساس بأنهم قد يدوخون في أيّة لحظة، باستثناء جوديت كينسكي التي بقيت رابطةَ الجأش، متماسكة.

كانت كات كولد أوّل من وصل إلى الباب. دفقة من الهواء صفعتها في وجهها فأنعشتها. رأت مذهولة أنّ هناك عند أسفل السلّم سجادة جميلة النسيج تصل بين الطائرة وباب بناء صغير من الخشب الملوّن له سقف معبد. على جانبي السجادة كان ينتظر أطفال بسلال من الأزهار. وكان هناك أعمدة نحيلة على طول الطريق ترفرف فوقها أعلام طويلة من الحرير؛ وعدد من الموسيقيين الذين يرتدون ألواناً متماوجة ويعتمرون قبعات كبيرة، يقرعون طبولاً وآلاتٍ معدنية.

عند قدم السلم ينتظرُ عدد من الوجهاء الذين يزدانون بملابس المراسم: تنورات من الحرير مربوطة إلى الخصر مع مآزر ذات لون

أزرق داكن، إشارة إلى مرتبة الوزير، سترات طويلة مطرّزة بالمرجان والفيروز، وقبعات جلدية عالية مدبّبة بزينات ذهبية وشرائط؛ يحملون في أيديهم لفافات بيضاء ناحلة.

- يا للمفاجأة! لم أكن أنتظر مثل هذا الاستقبال! - هتفت الكاتبة، ممسّدة بأصابعها خصلات شعرها الرمادية وصدرتها المريعة ذات الألف جيب.

هبطت يتبعها رفاقها، مبتسمين وملوّحين بأيديهم، لكنّ أحداً لم يردّ عليهم التحية. مرّوا أمام أصحاب المقامات الرفيعة والأطفال وأزهارهم دون أن يتلقوا نظرة واحدة، كأنّهم غير موجودين.

خلفهم نزلت جوديت كينسكي، هادئة، مبتسمة، حسنة الحضور تماماً. وعندئذٍ بدأ الموسيقيون ضجّة مصمّة للآذان من آلاتهم، وبدأ الأطفال يرمونها بمطر من النوريات، وقام أصحاب المقام بحركات احترام عميقة. حيّتهم جوديت كينسكي بانحناءة خفيفة، ثمّ مطّت ذراعيها حيث وضعت اللفافات الحريرية المسماة *كاتا*.

رأى صحفيو *الإنترناشيونال جيوغرافيك* موكباً من عدّة أشخاص مزيّنين بشكلٍ فاخِر يخرجون من البيت الصغير الذي له سقف معبد. في الوسط يمضي رجل أطول من البقيّة، يقارب الستين من العمر، لكنّه ذو مظهر شاب، يرتدي تنورة طويلة بسيطة، أو سارونغ، حمراء داكنة، تُغطّي القسم الأسفل من جسده وقماشاً أصفر زعفرانيّ اللون على كتفه، حاسر الرأس وحليقه. كان يمضي حافياً وكلّ ما يحمله من زينة هي سوار صلاة حبّاته من العنبر وقلادة تتدلّى على صدره. وعلى الرغم من بساطته المفرطة، التي تتناقض مع أبّهة الآخرين، لم ينتبهم أدنى شكّ بأنّ ذلك الرجل هو الملك. تنحّى الأجانب كي يسمحوا له بالمرور وانحنوا آليّاً بعمق، كما فعل الآخرون؛ تلك كانت السلطة التي تُشعّ من الملك.

حيّا الملكُ جوديت كينسكي بحركة من رأسه، فردّت عليه

بصمت، وسرعان ما تبادلا اللفافات مع سلسلة مع حركات الاحترام المعقّدة. قامت بخطوات المراسم بطريقة تامّة؛ ولم تكن تمزح حين قالت لكات كولْدْ إنّها درست بعمق عادات البلد. وعند الانتهاء من الترحيب ابتسم الملكُ وهي بانفتاح وشدّ كلّ منهما على يد الآخر على الطريقة الغربية.

ـ أهلاً بكِ في بلدنا المتواضِع ـ قال الملكُ بإنكليزيةٍ بريطانيةِ النبرة.

انسحب الملكُ وضيفته يتبعهما الموكبُ كبيرُ العدد، بينما بقيت كاتْ وطاقمُها يحكّون رؤوسهم، مشوّشين أمام ما شاهدوه. لا بدّ أن جوديت كينسكي قد تركت انطباعاً فائقاً عند الملك، الذي لم يستقبلها كمهندسةٍ مصمّمةٍ للمناظر الطبيعية، تعاقَدَ معها لزراعة التوليب في حديقته، بل كسفيرةٍ مفوَّضةٍ.

كانوا يجمعون أمتعتهم، التي تضمّ الرزم مع كاميرات المصوّرين وحواملها، حين اقترب منهم رجل قدّم نفسه على أنّه واندجي، دليلهم ومترجمهم. كان يرتدي الملابس التقليدية، *سارونغ* مربوط إلى خصره بحزام مخطّط، وسترة قصيرة بلا أكمام وينتعل حذاء جلدياً ناعماً. لفتت قبّعتُه الإيطالية، الشبيهة بتلك التي تُستخدم في أفلام المافيا انتباهَ كاتْ.

رفعوا الأمتعة إلى سيارة جيب مهلهلة، تدبّروا أمر جلوسهم بأفضل ما استطاعوا وانطلقوا في طريقهم إلى العاصمة، التي كانت حسب ما قال واندجي «هناك، لا أكثر»، لكنّها جاءت بالنتيجة رحلةً دامت ثلاث ساعات تقريباً، لأنّ ما سماه طريقاً كان في الواقع درباً ضيقاً مليئاً بالمنعطفات. كان الدليل يتكلّم إنكليزية قديمةً، بنبرةٍ يصعب فهمها، كما لو أنّه درسها في الكتب، دون أن يملك فرصاً كثيرة لممارستها.

في الطريق مرّ بهم رهبان وراهبات من مختلف الأعمار، بعضهم فقط في الخامسة أو السادسة من عمره، ومعهم قصعاتهم يتسوّلون فيها الطعام؛ كما كان هناك فلاحون مشاة، محمّلين بالأكياس، وشبّان على دراجات وعربات تجرّها الجواميس. كانوا من عِرق جميل جدّاً، متوسّط القامة، ملامحهم أرستقراطية ومظهرهم كريم، يبتسمون دائماً، كما لو أنّهم سعداء بطبيعتهم. الآليات الوحيدة ذات المحرّك التي رأوها هي درّاجة نارية قديمة، مع مظلة على شكل سقف مرتجل، وحافلة صغيرة دهنت بألف لون، مليئة إلى أعلاها بالركاب والحيوانات والأكياس. ولكي تمرّ اضطرّت سيارة الجيب أن تنتظر جانباً، لأنّه لا متسع للعربتين في الطريق الضيّق. أعلمهم واندجي أنّ صاحب الجلالة يملك عدداً من السيارات الحديثة ولا شكّ أنّ جوديت كينسكي منذ برهة في الفندق.

- الملك يرتدي ثياب الرهبان... - علّق ألِكساندر.

- صاحب الجلالة هو زعيمنا الروحي. السنوات الأولى من عمره قضاها في دير في التيبت. إنّه رجل ورع جدّاً - شرح الدليل جامعاً يديه ومنحنياً دليلاً على الاحترام.

- فكّرتُ أنّ الرهبان مُتبتّلون - قالت كاثْ كولْدْ.

- كثيرون منهم كذلك، لكنّ الملك يجب أن يتزوّج كي يمنح التاجَ أولاداً. صاحب الجلالة أرمل؛ فزوجته المحبوبة ماتت منذ عشر سنوات.

- كم ولداً أنجبا؟

- بورِكا بأربعة أولاد وخمس بنات. أحد أبنائه سيصبح الملك. هنا ليس كما في إنكلترا، حيث يرثُ الكبيرُ العرش. عندنا الأمير صاحب القلب الأنقى هو الذي يصبح ملكنا بعد موت والده - قال واندجي.

ـ وكيف تعرفون من هو صاحب القلب الأنقى؟ ـ سألت ناديا.

ـ الملك والملكة يعرفان جيّداً أولادهما ويتكهّنون به بشكل عام، لكنّ قرارهم يجب أن يقرّه اللاما الأكبر، الذي يدرس علامات النجوم ويُخضِعُ الطفلَ المختارَ لعدّة اختبارات يُحدّد من خلالها ما إذا كان بالفعلِ تقمّصاً لملك سابق.

وضّح لهم أنّ الاختبارات لا تُدحض. من بينها مثلاً اختبار على الأمير أن يتعرّف فيه على سبعة أشياء استخدمها الحاكم الأوّل لمملكة التنين الذهبي قبل ألف وثمانمئة عام. توضع الأشياء على الأرض مختلطة بأخرى وعلى الطفل أن يختار. إذا تجاوز هذا الاختبار الأوّل، عليه أن يركب حصاناً برّياً. إذا كان متقمّصاً لملكٍ فإنّ الحيوانات تعترف بسلطته وتهدأ. أيضاً على الطفل أن يجتاز مياه النهر المقدّس، الجارفة والمثلجة سباحةً. فيُساعِدُ التيار أصحابَ القلوب النقية، والآخرون يغرقون. منهج امتحان الأمير بهذه الطريقة لم يُخطئ قط.

على امتداد تاريخ المملكة الممنوعة كان ملوكها عادلين وأصحاب رؤى، قال واندجي، وأضاف إنّها لم تُغزَ أو تُحتلّ قط، على الرغم من أنّها لا تملك جيشاً قادراً على مواجهة جيرانها الأقوياء، الهند والصين. في الجيل الحالي عُيِّنَ الابنُ الأصغر، الذي كان طفلاً حين ماتت أمّه ليخلف أباه. وقد منحه اللاماتُ اسماً حمله في تقمّصات سابقة: ديل باهادور، «القلب الشجاع». ومنذ ذلك الوقت لم يره أحد، فهو يتلقى تعاليمه في مكان سرّي.

استغلّت كاتْ كولْدْ الأمر لتسأل الدليلَ عن التنين الذهبي الغامض. لم يَبْدُ واندجي مستعداً للكلام عن الموضوع، لكنّ مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* تمكّنت من استخلاص بعض المعلومات من أجوبته المتملّصة. ظاهرياً كان باستطاعة التمثال أن يتنبّأ بالمستقبل، لكن وحده الملك من يستطيع أن يفكّ رموز اللغة المشفّرة للتنبؤات. السببُ في أنَّ هذا يجبُ أن يكون ذا قلب نقيّ هو أنّ قوّة

التنين الذهبي يجب أن تُستخدم حصراً لحماية الأمّة، وألاّ تُستخدم أبداً لأهداف شخصية. يجب أن يخلو قلب الملك من الطمع.

في الطريق رأوا بيوت فلاحين ومعابد كثيرة، تُعرف على الفور من رايات الصلواتِ التي ترفرف في الريح، فهي شبيهة بتلك التي رأوها في المطار. كان الدليلُ يتبادلُ التحيات مع الناس الذين يرونهم؛ فيبدو أنّ الجميع في هذا المكان يعرفُ بعضهم بعضاً.

عبروا بفتيةٍ يرتدون غفارات الرهبان بلونها الأحمر الداكن. فشرح لهم الدليل أنّ غالبية التعليم تتمّ في أديرة، يعيش فيها الطلاب منذ الخامسة أو السادسة من أعمارهِم. بعضهم لا يترك الدير أبداً، لأنّهم يُفضّلون أن يتبعوا خطوات مُعلّميهم، اللامات. كانت الطفلات يذهبن إلى مدارس منفصلة. هناك جامعة، لكن المهنيّين يُؤهّلون في الهند وأحياناً في إنكلترا، حين تستطيع الأسرة تغطية النفقات أو يستحقّ الطالبُ منحة حكومية.

كان يُطلّ من مخزنين من المخازن المتواضعة هوائيا تلفزيون. قال لهم واندجي إنّ الجيران يجتمعون هناك في الساعات التي يكون فيها برامج، لكن وبما أنّ الكهرباء تنقطع باستمرار فإنّ ساعات البثّ تختلف. أضاف إنّ القسم الأعظم من البلد مرتبط بالهاتف، وللكلام يكفي الذهاب إلى مكتب البريد، إذا وُجِد في المكان أو المدرسة، حيث هناك دائماً هاتف جاهز. لا أحد كان يملك هاتفاً في منزله، طبعاً، لأنّه ليس ضرورياً. تبادل تيموثي بروس وجول غونثالِث نظرة شكّ. هل يستطيعون أن يستخدموا هاتفهم الخليوي في بلد التنين الذهبي؟

ـ مدى هذه الهواتف محدود جدّاً بسبب الجبال، لذلك تكاد تكون مجهولة هنا. حدّثوني أنّه في بلدكم لا أحد يتكلّم وجهاً لوجه مع الآخر، فقط بالهاتف ـ قال الدليل.

- وبالبريد الإلكتروني أيضاً - أضاف ألِكساندر.

- سمعت بهذا، لكنّني لم أرَه - علَّق واندجي.

كان المنظر منظر حلم، لم تمسّه التكنولوجيا الحديثة؛ والأرض تُشغَلُ بمساعدة الجواميس، التي تجرّ المحاريث ببطء وصبر. على سفوح الهضاب، المقطوعة على شكل مساطب، هناك مئات من حقول الرز، الزمرّدية. أشجار وأزهار من أنواع مجهولة تنمو على جوانب الطريق وفي العمق تنهض قمم الهيمالايا المغطاة بالثلوج.

قال ألِكساندِر إنّ الزراعة تبدو متخلِّفة جدّاً، لكنّ جدّته جعلته يرى أنّ الأشياء لا تُقاس كلّها بمصطلحات الإنتاجية، ووضّحت له أنّ هذا البلد هو الوحيد في العالم، الذي تُعتبرُ فيه البيئةُ أهمّ من التجارة بكثير. شعر واندجي بالرضا عن هذه الكلمات، لكنّه لم يُضِف شيئاً، كيلا يسبب لهم الإهانة، لأنّ الزوار جاؤوا من بلد أهم شيء فيه، حسب ما سمع، هو التجارة.

بعد ساعتين غابت الشمسُ خلف الجبال وراحت ظلالُ المساء تهبطُ فوق حقول الرزّ الخضراء. وتظهر هنا وهناك أضواء قناديل الشحم الخفيفة المُتذبذبة في البيوت والمعابد. كانت أصواتُ أبواق الرهبان الكبيرة تسمع خفيفة وهي تدعو إلى صلاة العشيّة.

بعد قليل رأوا في البعيد أوّلَ أبنية العاصمة، تونخالا، التي تبدو أكبر من ضيعة بقليل. في الشارع الرئيسي بعض المصابيح؛ استطاعوا أن يُثمّنوا النظافة والترتيب الذي يسودُ كلَّ مكان، وكذلك التناقضات: الياكات تمضي جنباً إلى جنب مع الدراجات الإيطالية، جدّاتٌ يحملن أحفادهن على ظهورهنّ، ورجالُ شرطة يرتدون ملابس الأمراء القدماء، يوجّهون المرور. بيوت كثيرة أبوابها مفتوحة على مصاريعها. شرح لهم واندجي أنّه ليس هناك عملياً جريمة؛ ثمّ إنّ الجميع يعرفُ بعضهم بعضاً. فأيّ شخص يدخل إلى البيت يمكن أن يُصبح صديقاً أو قريباً. لم يكن عند الشرطة ما

يعملونه إلاّ القليل، حماية الحدود، الحفاظ على النظام في الأعياد ومراقبة الطلاب المتمردين.

كانت المتاجرُ ما تزال مفتوحة. أوقف واندجي سيّارة الجيب أمام أحد الحوانيت، الأكبر قليلاً من خزانة ثياب، حيث يبيعون معجون أسنان، وحلوى وأفلام كوداك، وبطاقات بريد ذهبت الشمسُ بألوانها وبعض المجلات والصحف من نيبال والهند والصين. لاحظوا أنّهم يبيعون علبَ صفيح فارغة وقنانٍ وأكياساً ورقية مستخدمة. كلّ شيء، حتى أكثر الأشياء تفاهة له قيمة، لأنّه لم يكن يوجد أشياء كثيرة. فكيس بلاستيك أو مطربان زجاجي يشكّلان كنزاً.

ـ هذا هو حانوتي المتواضع، وبجانبه بيتي الصغير، حيث سيكون لي شرف عظيم أن أستقبلكم ـ أعلن واندجي، محمرّاً خجلاً، لأنّه لم يبغِ أن يظنّ الأجانبُ أنّه متبجّح.

خرجت طفلة في الخامسة عشرة من عمرها لاستقبالهم.

ـ وهذه هي ابنتي بِمّا. واسمها يعني «زهرة اللوتس» ـ أضاف الدليل.

ـ زهرة اللوتس رمز النقاء والجمال ـ قال ألِكساندِر، محمرّاً خجلاً، مثل واندجي، لأنّه ما إن قالها حتى بدا له ذلك مضحكاً.

رمته كات بنظرة جانبية، مندهشة. غمزها هو بعينه وهمس لها أنّه قرأ ذلك في المكتبة قبل أن يشرع بالرحلة.

ـ وماذا استقصيت أيضاً؟ ـ همست هي مدارية.

ـ اسأليني وسترين، يا كاث، أعرف كما تعرف جوديت كينسكي ـ ردّ ألِكساندر بالنبرة ذاتها.

ابتسمت بِمّا بسحرٍ لا يُقاوم، جمعت يديها أمام وجهها وانحنت بالتحيّة التقليدية. كانت نحيلة ومستقيمة مثل عود خيزران؛ بدا

جلدُها تحت نور المصابيح الأصفر عاجاً وعيناها تلمعان بتعبير شقيّ. كان شعرها الأسود ينسدل مرخيّاً مثل معطف ناعم فوق كتفيها وظهرها؛ وترتدي هي أيضاً، مثلها مثل جميع الأشخاص الذين رأوهم، الثيابَ التقليدية. كان الفرق صغيراً بين ثياب الرجال وثياب النساء، جميعهم يرتدون التنورة أو السارونغ والسترة أو البلوزة.

تبادلت ناديا وبِّما نظراتِ الدهشة. فمن ناحية الطفلة القادمة من قلب جنوب أمريكا، بريش في شعرها وقرد أسود متشبّث بعنقها؛ ومن ناحية أخرى هذه الفتاة التي تتمتع بملاحة راقصة، المولودة بين قمم أعلى جبال آسيا. كلاهما شعرتا أنّ تيارَ ودٍّ تلقائي يصل بينهما.

- إذا رغبتم ربّما غداً تستطيع بِّما أن تُعلّم الطفلةَ والجُدَيْدة كيف تستخدمان السارونغ - اقترح الدليل مرتبكاً.

جفل ألِكساندر حين سمع كلمة «الجُدَيْدة»، لكنّ كاث كولْدْ لم تقم بردّ فعل. فقد انتبهت الكاتبة توّاً إلى أنّ البنطلونين القصيرين اللذين ترتديانهما هي وناديا كانا مهينين في ذلك البلد.

- سنكون لك شاكرين جدّاً... - ردّت كاثْ منحنية بدورها ويداها أمام وجهها.

وصل المسافرون المنهكون أخيراً إلى الفندق الوحيد في العاصمة والبلد. السياح القليلون الذين كانوا يُغامرون بالذهاب إلى قرى الداخل ينامون في بيوت الفلاحين، حيث يلقون دائماً ترحاباً كبيراً. لم تُنكر الضيافة على أحد. جرّوا أمتعتهم إلى الغرفتين اللتين سيشغلونهما، واحدة لكاثْ وناديا؛ وأخرى للرجال. كانت غرف الفندق بالمقارنة بأبّهة قصر المهراجا في الهند تبدو صوامع رهبان. سقطوا على الأسرّة دون أن يغتسلوا أو يخلعوا ملابسهم

منهكين من التعب، لكنّهم استيقظوا بعد قليل مرتعدين برداً. فالحرارة قد هبطت بشكلٍ مفاجئ. استعانوا بمصابيحهم الكهربائية واكتشفوا بعض اللُحُفِ الصوفية، مكوّمة بشكل مرتب في زاوية، استطاعوا أن يتدثّروا بها ويتابعوا نومهم حتى الفجر، حين أيقظَهم النحيب الجنائزي للأبواق الطويلة والثقيلة التي يدعو بها الرهبان للصلاة. كان واندجي وبِمّا ينتظرانهم بالخبر الرائع وهو أنّ الملك مستعدّ لاستقبالهم في اليوم التالي، بينما هم يتناولون فطوراً مغذياً من الشاي والخضراوات وكرات الرز، التي عليهم أن يأكلوها بثلاثٍ من أصابع اليد اليمنى، كما تقتضي الآداب الحسنة، وأطلعهم الدليل على بروتوكول زيارة القصر.

ابتداءً كان يجب شراء ملابس مناسبة لناديا وكاتْ. وعلى الرجال أن يذهبوا بالسترة. كان الملك شخصاً مُتفَهِّماً جدّاً وبالتأكيد سيتفهم أنّ الأمر يتعلّق برجالٍ بعثة علمية في لباس العمل، لكن عليهم في جميع الأحوال أن يظهروا احتراماً. شرح لهم كيف سيتبادلون الكاتات أو لفاعات المراسم، كما عليهم أن يبقوا على ركبهم في الأماكن التي حُدِّدت لهم حتى يشار إليهم أنَّ باستطاعتهم أن يجلسوا، وكيف أنّ عليهم ألاّ يتوجّهوا إلى الملك قبل أن يفعل هو ذلك. وإذا ما قُدِّم إليهم شرابٌ أو طعام عليهم أن يرفضوه ثلاث مرّات، وبعدها يأكلون بصمتٍ وبطء كي يدللوا على أنّهم يحترمون الغذاء. وكان من قلّة الأدب الكلام أثناء الطعام. بوروبا يجب أن يبقى مع بِمّا. لم يكن واندجي يعرفُ ما هو البروتوكول بالنسبة للقرود. تمكّنت كاتْ كولْدْ من وصلِ كمبيوترها بأحد خطّي هاتف الفندق لترسل أخباراً لمجلة *إنترناشيونال جيوغرافيك* وتتواصل مع الأستاذ لبلانك. صحيح أنّ الرجل عُصابي، لكنّها لا تستطيع أن تُنكر أنّه مصدر لا ينضب للمعلومات. سألته الكاتبة العجوز ماذا كان يعرف عن تسلية الملوك، وعن أسطورة التنين الذهبي. فتلقَّت على الفور درساً بهذا الخصوص.

قادت بِّما كاتْ وناديا إلى بيت يبيعون فيه سارونغات واشترت كلّ واحدة ثلاثاً، لأنّ المطر يهطل عدّةَ مرّات في اليوم ويجب أن تُمنحَ الثيابُ وقتاً كي تَجفّ. لم يكن تَعَلُّمُ لفِّ القماش حول الجسدِ وشدّه بمئزر سهلاً على أي منهما. في البداية جاء ضيقاً جدّاً فلم تستطيعا أن تخطُوَا خطوةً واحدة، ثمّ رخواً سقط مع أوّل خطوة. لكن تمكّنت ناديا من إتقان الآلية بعد عدّة تجارب، بينما بدتْ كاتْ مثل مومياء ملفوفة بالضمادات. لم يكن باستطاعتها أن تجلس، وراحت تسير مثل أسير مغلول القدمين. انفجر ألِكساندر والمصوِّران حين رأوها بقهقهات جامحة بينما هي تتعثّر، تتمتم بين أسنانها وتسعل.

كان القصرُ الملكي أكبر بناء في تونخالا، فيه أكثر من ألف غرفة موزّعة على ثلاثة طوابق مرئية وطابقين آخرين تحت الأرض. كان مبنيّاً استراتيجيّاً فوق هضبة شديدة الانحدار، يتمّ الوصول إليه عبر طريق كثير المنعطفات، محاط برايات الصلاة فوق أعمدة خيزران لدنة. كان البناء من طراز بقية البيوت الأنيقة، بل ومن أكثرها تواضعاً، لكن سقوف القرميد كانت ذات مستويات عدّة؛ متوّجة بتماثيل لمخلوقات أسطورية خزفية وقديمة. الشرفات والأبواب والنوافذ ذات رسوم رائعة الألوان.

جنود يرتدون الأصفر والأحمر وسترات جلدية وخوذات عليها ريش، يقومون بالحراسة؛ مسلحين بالسيوف والأقواس والسهام. شرح واندجي أنّ وظيفتهم شكلية خالصة. فرجال الشرطة الحقيقيون يستخدمون أسلحة حديثة. وأضاف أنّ القوس هو سلاح المملكة الممنوعة التقليدي ورياضتها المُفضّلة. والملك نفسه يشارك في المباريات السنوية.

استقبلهم موظفان مزدانان بملابس البلاط المطرّزة. واقتيدوا عبر عدّة قاعات، أثاثها الوحيد طاولات منخفضة، صناديق كبيرة من الخشب الملون بألوان عدّة وأرائك ووسائد دائرية للجلوس. كان

هناك بعض التماثيل الدينية مع تقدمات من الشموع والأرز ونوريات الأزهار؛ والجدران تزدهي بأفاريز، بعضها من القِدم بحيث أنّ موضوعاتها اختفت تقريباً. رأوا بعض الرهبان مزوّدين بالريش وأواني الصباغ وشرائح رقيقة من الذهب، يرممون الأفاريز بصبر مطلق. وكانوا يُعلّقون في كلّ مكان سجاداً مطرّزاً بالحرير والساتان.

عبروا ممرّاتٍ طويلةً بأبوابٍ على كلا الجانبين تؤدّي إلى مكاتب يعمل فيها عشراتُ الموظّفين والرهبان الكتَبة. لم يكونوا قد تبنّوا الكومبيوترات بعد، والمعلومات العامّة تسجّل في سجلاّت باليد. كما كان هناك غرفة للهاتف المقدّس. حيث يأتي الشعب ليطلب النصيحةَ من بعض اللامات والرهبان، الذين يملكون ملكة التنبّؤ ويساعدونهم في ساعات التردّد. طريق الخلاص بالنسبة إلى البوذيين في المملكة الممنوعة دائماً فرديّ ويقوم على الرحمة بكلّ ما هو موجود. لم تكن النظريّة تجدي نفعاً دون التطبيق العملي. ويمكن تصحيح الطريق وتسريع النتائج بوساطة دليل ناصح أو هاتف مقدّس.

وصلوا إلى قاعة خالية من الزينة، ينتصب في وسطها تمثال لبوذا خشبي ذهبيّ ضخم، تصل جبهته حتى السقف. سمعوا موسيقى كأنّها موسيقى مندولين؛ وانتبهوا بعدها إلى أن هناك عدّة رهبان يُنشِدون. كانت الموسيقى ترتفع وترتفع، ثم تهبط فجأة مبدّلة الإيقاع. كان أمام التمثال العملاق سجادة صلاة، شموع مشتعلة ومباخر وسلال فيها تقدمات. انحنى الزوّار أمام التمثال، مُقلِّدين أصحابَ الشأن، ملامسين الأرض بجباههم.

استقبلهم الملكُ في قاعة بسيطةِ العمارةِ وناعمة مثل بقيّة القصر، لكنّ جدرانها مزيّنة بسجاد عليه مشاهد دينية وأقنعة شعائرية.

كانوا قد وضعوا خمسة كراسٍ تكريماً للأجانب غير المعتادين على الجلوس على الأرض.

خلف الملك علّقوا سجادة عليها حيوان مطرَّز، فاجأ ناديا وألِكس، لأنّه يُشبِه التنينات المجنّحة الجميلة التي رأياها داخل *التيبو*، حيث مدينة البهائم، في قلب الأمازون. كانت تلك آخر الأنواع المنقرضة مُنذ آلاف السنين. والسجادة تبرهن على أنّ من المحتمل أن تكون هذه التنينات قد وجدت في آسيا أيضاً.

كان الملك يرتدي غفّارة اليوم الفائت ذاتها، إضافة إلى عمرة غريبة على الرأس، مثل خوذة قماشية؛ وعلى صدره تبرز قلادة سلطته، وهي قرص ذهبي قديم مرصّع بالمرجان. كان جالساً في وضعية زهرة اللوتس، فوق منصّة بارتفاع نصف متر.

إلى جانب الملكِ فهدٌ مستلقٍ مثل قط، ما إن رأى الزوّارَ حتى نهض مستنفرَ الأذنين وغرز عينيه في ألِكساندِر، كاشفاً عن أسنانه. يد صاحبه على ظهره هدّأته، لكنّ عينيه الطوليّتين لم ترتفعا عن الفتى الأمريكي.

كان يرافق الملك بعض أصحاب الشأن، يرتدون أقمشةً مخطّطة، ستراتٍ مطرَّزة بشكلٍ بهيّ ويعتمرون قبعاتٍ مزيّنة بأوراق كبيرة من الذهب، رغم أن عدداً منهم انتعل حذاء غربياً وحمل حقائب رجال سلطة تنفيذية. كان هناك عدد من الرهبان بغفّاراتهم الحمراء؛ وثلاث فتيات وشابان، طوالاً ورفيعي الشأن واقفين بجانب الملك؛ علم الزوّار أنّهم أبناؤه.

ورفضوا، كما وجّههم واندجي، الكراسي، لأنّ عليهم ألاّ يجلسوا بمستوى صاحب السلطة، وفضّلوا سجاجيد الصوف الصغيرة الموضوعة أمام المنصّة الملكية.

انتظر الأجانب، بعد تبادل الكاتات والتحيات الوقورة، إشارةَ الملك كي يأخذوا أماكنهم على الأرض، الرجال يتربعون والمرأتان تجلسان على جنبيهما. أوشكت كاتْ كولْدْ، المحتبلة في السارونغ، أن تتدحرج على الأرض. فأخفى الملكُ ورجال بلاطه ابتساماتهم بصعوبة.

وقبل أن تبدأ الأحاديث قدّموا الشايَ والجوز وفواكه غريبة مبهّرة بالملح تناولها الزوّار بعد أن رفضوا ثلاث مرّات. ثمّ حانت ساعة تبادل الهدايا. أشارت الكاتبة لتيموثي بروس وجول غونثالِث، اللذين زحفا على ركبهما ليُقدّما للملك صندوقاً يحتوي على الأعداد الاثني عشر الأولى من، *الإنترناشيونال جيوغرافيك* المنشورة في العام 1888، وصفحة مخطوطة لكارل داروين، سبق وحصل عليها مدير المجلّة بمعجزة في أحد حوانيت الأثريات في لندن. شكرهم الملك وقدّم لهم بدوره كتاباً ملفوفاً بقماش. كان واندجي قد قال لهم إنّ عليهم ألاّ يفتحوا الطردَ، ففعلُ ذلك دليل على نفاد صبر، ولا يُقبل إلا من طفل. في هذه الأثناء أعلن أحدُ الموظفين عن وصول جوديت كينسكي. فهمِ أعضاء بعثة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* لماذا لم يروها صباحاً في الفندق: فالمرأة كانت ضيفة على القصر الملكي. حيّت بانحناءة من رأسها واتخذت مكاناً لها على الأرض بجانب بقية الأجانب. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً وتحمل حقيبتها الجلدية ذاتها، التي يبدو أنّها لا تُفارقها، وسواراً أفريقياً عريضاً من العظم المشغول هي زينتها الوحيدة.

في هذه الأثناء قام تسشِوانغ، الفهد الملكي، الذي مكث هادئاً، لكن متيقظاً، بقفزة وانتصب أمام ألِكساندِر مشدود الفرطوس في حركة تهديد، تركت على كلّ جانب واحداً من أنيابه الحادّة. تجمّد جميع الحضور وقام حارسان بحركة من سيتدخل، لكنّ الملك أوقفهما بإيماءة ونادى البهيمة. التفت الفهد إلى صاحبه، لكنّه لم يُطِعه.

رفع ألِكساندر النظارة عن عينيه دون أن ينتبه، واتخذ وضعية القط وعليه تعبير الحيوان الهرّي ذاته مكلّبَ اليدين، وزمجر كاشفاً عن أسنانه.

عندئذٍ راحت ناديا تُصدر، دون أن تتحرّك من مكانها، أصواتاً غريبة تُشبه هرير القط. وسرعان ما توجّه النمر إليها مقرباً

فرطوسه من وجهها، مطيعاً ومحرّكاً ذيله. ثمّ استلقى مدهشاً الجميع أمامها عارضاً كرشه، الذي داعبته دون أدنى خوف ودون أن تكفّ عن الهَرِّ.

- هل تستطيعين الكلام مع الحيوانات؟ - سأل الملك بطبيعية.

استنتج الأجانب المرتبكون أنّه مما لا شكّ فيه أنّ الكلام مع الحيوانات في تلك المملكة ليس أمراً مستغرباً.

- أحياناً - ردّت الطفلة.

- ما الذي يجري لصديقي الوفيّ تسشِوانغ؟ فهو بشكل عام مهذّب ومُطيع - ابتسم الملك، مشيراً إلى الفهد.

- أظنُّ أنّه خاف حين رأى جغواراً - ردّت ناديا.

ما من أحد غير ألِكساندر فهم ماذا يعني ذلك التأكيد. ضربت كاث كولْدْ ضربة غير إرادية على جبينها: قطعاً هما يمثّلان دوراً تبجحياً، فقد بدَوَا مثل قطيع من المجانين المفلتين. لكنّ الملك لم يتبدل أمام جواب الطفلة الغريبة، عسلية الجلد. اقتصر على النظر باهتمام إلى الفتى الأمريكي، الذي عاد إلى طبيعته وتربّع من جديد. وحده العرق على جبينه وشى بالخوف الذي مرّ به.

وضعت ناديا سانتوس إحدى اللفاعات الحريرية أمام الفهد، الذي أخذها برقّة بين فكّيه وحملها حتى قدمي الملك. ثم استقرّ في مكانه الطبيعي على المنصّة الملكية.

- وهل تستطيعين أن تُكلّمي الطيور أيضاً، أيّتها الصغيرة؟ - سأل الملك

- أحياناً - أجابت.

- عادة ما تظهر هنا طيور مهمّة - قال.

حقيقة كانت مملكة التنين الذهبي متحفاً بيئياً فيه أنواع منقرضة في بقية أنحاء العالم، لكنّ التبجّح كان يعتبر دليلاً لا يُغتَفر على قلّة الأدب؛ فلا الملكُ نفسه، الذي هو المرجعية العليا في موضوع نباتات وحيوانات المملكة، يفعل ذلك.

فيما بعد حين فتحت مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* الهدية الملكية، تبيّنَ لها أنّه كتاب صور طيور. شرح لهم واندجي أنّ الملك التقطها بنفسه، ومع ذلك فاسمه لا يظهر على الكتاب، لأنّ هذا سيكون دليلاً على الغرور.

جرت بقيةُ المقابلة بالحديث عن مملكة التنين الذهبي. ولاحظ الأجانب أنّ الجميع يتكلّمون بغموض. أكثر الكلمات ترداداً كانت «ربّما» و«احتمالاً» وهم بذلك يتفادون الآراء القوّية والمواجهات. وهذا ما يفسح المجال لخروج مشرّف في حال أنّ الطرف الآخر لم يكن موافقاً.

بدا أنّ جوديت كينسكي كانت تعرف كثيراً عن طبيعة المنطقة الرائعة، وهذا ما استأثر بقلب الحاكم وبقية رجال البلاط، لأنّ معارفها تندر جدّاً بين الأجانب.

ـ إنّه لشرف لنا أن نستقبل في بلدنا مراسلي مجلة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* ـ قال العاهل.

ـ الشرف كلّه لنا، يا صاحب الجلالة. نعرف أنّ احترام الطبيعة في هذه المملكة فريد في العالم ـ ردّت كاثْ كولْدْ.

ـ إذا ما آذينا العالم الطبيعي، فعلينا أن ندفع النتائج. وحده المجنون يرتكب مثل هذه الحماقة. يستطيع دليلُ المملكة، واندجي أن يحملكم إلى حيث تريدون الذهاب. ربّما استطعتم أن تزوروا المعابد أو *الدزونغ*، الأديرة المحصّنة، حيث يمكن أن يستقبلكم الرهبان ضيوفاً ويقدّموا إليكم المعلومات التي تحتاجونها ـ عرض الملك.

لاحظ الجميع أنّه لم يشمل بكلامه جوديت كينسكي، وخمّنوا أنّ الحاكم يُفكّر بأن يريها بنفسه جمال مملكته.

كانت الزيارة قد وصلت إلى نهايتها، ولم يبقَ غير أن يشكروه

ويودّعوه. وعندئذٍ ارتكبت كاث كولْدْ أوّلَ حماقة لها. فهي التي لم تكن قادرة على كبح اندفاعها، سألت مباشرة عن أسطورة التنين الذهبي. ساد على الفور صمت جليدي في القاعة. تجمّد أصحاب الشأن واختفت ابتسامة الملك اللطيفة. الوقفة التي تلت ذلك بدت ثقيلة جداً، حتى تجرّأت جوديت كينسكي على التدخّل.

ـ عذراً على تهوّرنا، يا صاحب الجلالة. فنحن لا نعرف جيّداً العادات هنا، آمل ألاّ يكون سؤال السيّدة كولد مهيناً... الحقيقة أنّها تكلّمت باسمنا جميعاً. فأنا نفسي أشعر بالفضول ذاته الذي يشعر به صحفيو *الإنترناشيونال جيوغرافيك* نحو هذه الأسطورة ـ قالت مثبتة عينيها العسليتين في عينيه.

ردّ الملكُ على النظرة بتقاسيم جدّيّة جدّاً، وكأنّه يقيّم مقاصدها، وابتسم أخيراً. تكسّر الجليد على الفور وعاد الجميع ليتنفّسوا الصعداء.

ـ التنين المقدَّس موجود، وهو ليس أسطورة، ومع ذلك لا تستطيعون أن تروه، آسف ـ قال الملكُ، متكلّما بالحزم الذي تفاداه حتى تلك اللحظة.

ـ قرأتُ في مكان ما أنّ التمثال المقدّس محفوظ في دير محصّن في التيبت. أتساءل ماذا حدث له بعد الغزو الصيني... ـ أصرّت جوديت كينسكي.

فكّرت كاث أنّه ما من أحدٍ آخر كان سيجرؤ على متابعة الموضوع. كانت ثقة تلك المرأة بنفسها وبالسحر الذي تمارسه على الملك كبيرين.

ـ التنين المقدّس يمثل روحَ أمّتنا. ولم يخرج قط من مملكتنا ـ وضَّح.

ـ عفواً، يا صاحب الجلالة، كنت مخطئة في معلوماتي. من المنطقيّ أن يحفظ في هذا القصر، بجانبكم ـ قالت جوديت كينسكي.

ـ ربّما ـ قال هو وقد نهض في إشارة إلى أنّ الزيارة قد انتهت.

استودّعته مجموعة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* بانحناءات احترام عميقة وخرجت متراجعة، باستثناء كاث كولدْ، المتورّطة في السارونغ، الذي لم يكن أمامها من مخرج غير أن ترفعه حتى ركبتيها وتخرج متعثّرة، وظهرها إلى صاحب الجلالة.

تبع تسشِوانغ، الفهد الملكي، ناديا إلى باب القصر، فاركاً فرطوسه بيدها، لكن دون أن يغيب ألِكساندر عن بصره.

ـ لا تنظر إليه، يا جغوار، إنّه يغار منك... ـ ضحكت الفتاة.

8

مخطوفات

استيقظ المُقتني مذعوراً على جرس الهاتف الخاص فوق طاولة الليل. كانت الساعة الثانية فجراً. ثلاثة أشخاص يعرفون رقمه فقط: طبيبه ورئيس حرّاسه وأمّه. منذ شهور لم يرنّ ذلك الهاتف. لم يحتج المُقتني إلى طبيبه ولا إلى رئيس حرسه الخاص. وأمّه في هذا الوقت تلتقط صوراً للبطاريق في أنتارتيك. فالسيّدة تقضي سنواتها الأخيرة مسافرة على متن عددٍ من عابرات القارات الفاخرة، التي تحملها من جانب إلى آخر في رحلة لا نهاية لها. وحين تقترب من أحد الموانئ يستقبلها مستخدم آخر يحمل في يده تذكرة لتركب عابرة محيطاتٍ أخرى. اكتشف ابنُها أنّها بهذه الطريقة تعيش متسلية ولا يضطر لرؤيتها.

ـ كيف حصلت على هذا الرقم؟ ـ سأل ثاني أغنى رجل في العالم منزعجاً، ما إن عرف محدِّثَه، على الرغم من جهاز تشويه الصوت.

ـ الحصول على الأسرار جزء من عملي ـ ردّ المُتخصّص.

ـ ما الأخبار التي تحملها لي؟

ـ قريباً سيكون بين يديك ما اتفقنا عليه.

ـ ولماذا تزعجني إذن؟

ـ لأقول لك إنّ التنين الذهبي لن يفيدك في شيء، إذا لم تعرف استخدامه ـ وضّح المُتخصّص.

ـ لهذا أملك الرقَ المترجم الذي اشتريته من الجنرال الصيني ـ وضّح المُقتني.

ـ وهل تظنّ أن شيئاً بمثل هذه الأهمية والسرّية يُعرض في قطعة من رقّ؟ الترجمة لها شيفرة.

ـ احصل على الشيفرة! لهذا تعاقدت معك.

ـ لا. أنت تعاقدت معي للحصول على التمثال. ليس أكثر. لم يُلحظ هذا في العقد ـ وضّح الصوتُ المشوّه على الهاتف بعزيمة.

ـ لا يهمّني التنين دون الرموز المشفّرة. هل فهمت؟ احصل عليها وإلاّ فلن تحصل على ملايين دولاراتك ـ صرخ الزبون.

ـ أنا لا أعيد النظر في صفقة أبداً. أنا وأنت اتفقنا على شيء. سأحضر لك التمثال خلال أسبوعين وسأتقاضى ما اتفقنا عليه، أو أنك ستتعرّض لأذى حتميّ.

أحسّ الزبون بالتهديد وانتبه إلى أنّه يُقامِر بحياته. ولمرّة شعر ثاني أغنى رجلٍ على الكوكب بالخوف.

ـ معك حق. العقد هو العقد. سأدفع لك على حدة عن شيفرة فكّ رموز الرق. هل تعتقد أنّ باستطاعتك أن تحصل عليها في مهلة معقولة. كما تعلم، هذا موضوع مستعجل. وأنا على استعداد لأن أدفع ما هو ضروري. المال ليس مشكلة ـ قال المُقتني بنبرة مصالحة.

ـ في هذه الحال ليست المسألة مسألة سعر.

ـ كلٌّ العالم له سعر.

ـ تُخطئ ـ ردّ المُتخصِّص.

ـ ألم تقل لي إنّك قادر على الحصول على أيّ شيء؟ ـ سأل الزبون متضايقاً.

ـ سيتصل بك أحد وكلائي قريباً ـ ردّ الصوت وانقطع الاتصال.

لم يستطع الملياردير العودة للنوم. قضى بقيّة الليل يدرس

ثروته التي لا تحصى في المكتب الذي يشغل القسم الأكبر من البيت، حيث يوجد خمسون كمبيوتراً. فموظفوه على اتصال ليلاً ونهاراً بأهمّ أسواق الأسهم في العالم. ومع ذلك ومهما راجع المُقتني الأرقام وصرخ بمرؤوسيه، لا يتمكن من تغيير حالٍ أنّ هناك رجلاً آخر أغنى منه. وهذا ما كان يُدمّر أعصابه.

ما إن جابوا مدينة تونخالا ببيوتها التي لها سقوف معابد، وستوباتها أو قببها الدينية، معابدها، عشرات أديرتها التي ترتفع فوق الهضاب، حتى عرض عليهم واندجي أن يريهم الجامعة. كان حرم الجامعة حديقة طبيعيةً، فيها شلالات ماء، وآلاف الطيور، حيث ترتفع عدّة أبنية. سقوف المعابد، صور بوذا على الجدران ورايات الصلاة تُضفي على الجامعة مظهر مجموعة من الأديرة. رأوا في دروب الحديقة عدداً من الطلاب يتبادلون الأحاديث في مجموعاتٍ ولفت انتباههم جِدّتهم، المختلفة تماماً عن الانفلات المسترخي للشباب في الغرب.

استقبلهم رئيس الجامعة، الذي طلب من كاث كولدْ أن تتوجّه إلى الطلاب وتُحدِّثهم عن مجلّة *إنترناشيونال جيوغرافيك*، التي كان الكثيرون يقرؤونها عادة في المكتبة.

- قليلة هي الفرص التي نستقبل فيها زوّاراً بمثل هذه الشهرة في جامعتنا المتواضعة - قال، منحنياً انحناءة تشريفات أمامها.

وهكذا كان أن رأت الكاتبة والمصوران وألِكساندِر ونادِيا أنفسهم في قاعة أمامَ طلاّب الجامعة ومدرّسيها المئة والتسعين؛ وجميعهم تقريباً يتكلّمون الإنكليزيةَ قليلاً، لأنّها المادّة المُفضّلة عند الشباب، لكن كان على واندجي أن يترجم في كثير من المناسبات. مرّ نصف الساعة الأوّل بكثير من الهدوء.

كان الجمهور يسأل أسئلة ساذجة، بكثير من التبجيل وينحنون

انحناءات احترام قبل أن يتوجّهوا إلى الأجانب. رفع ألِكساندر، المنزعج يده.

ـ هل نستطيع نحن أن نسأل أيضاً؟ لقد جئنا من مكان بعيد جدّاً كي نتعلم عن هذا البلد... ـ اقترح.

سادت عدّة لحظات صمت، نظر خلالها الطلاب بعضهم إلى بعض مشوَّشين، لأنّها المرّة الأولى التي يقترح فيها محاضرٌ مثل هذا الأمر. وبعد بعض التردّد والتهامس بين الأساتذة، أعطى رئيس الجامعة موافقته. في الساعة والنصف التالية تحقّق الزوار من بعض المعلومات المهمّة عن المملكة الممنوعة. والطلاب الذين تحرّروا من الجدِّيّة المتوترة التي اعتادوا عليها تجرّؤوا وطرحوا أسئلة عن السينما والموسيقى والملابس والعربات وألف موضوع آخر عن أمريكا.

في النهاية أخرج تيموثي بروس شريطَ روك أند رول، وضعته كات كولت في مسجِّلتها. انتاب حماس لا يقاوم حفيدها، الخجول عادة، فخرج وقدّم عرضَ رقصٍ حديث ترك الجميع فاغري الفم. بوروبا الذي أُصيب بعدوى تلك الرقصة الجنونية راح يقلِّده تماماً وسط ضحك الجمهور. وعند الانتهاء من «المحاضرة» رافقهم حشد الطلاب إلى حدود حرم الجامعة وهم يُغنّون ويرقصون مثل ألِكساندِر، بينما المدرسون يحكّون رؤوسهم مذهولين.

ـ كيف استطاعوا أن يتعلّموا الموسيقى الأمريكية من سماعها مرّةً واحدة فقط؟ ـ سألت كاتْ كولدْ معجبة.

ـ إنّها تدور بين الطلاب منذ سنواتٍ كثيرة، يا جُديْدة. فهؤلاء الفتية يستخدمون في بيوتهم الجينز مثلك. يأتون بها تهريباً من الهند ـ ردّ واندجي، ضاحِكاً.

كانت كاتْ كولدْ في تلك الأثناء قد قبلت مذعنةً أن يُناديها الدليلُ «جُدَيْدَة». إنّها علامة احترام، وطريقة مهذّبة للتوجّه إلى شخص كبير

في السن. أمّا ناديا والِكس فكان عليهما أن يناديا واندجي «عمّاً» وبِّما «ابنة العمّ».

ـ ربّما كان الزوار الكرام يرغبون، إذا لم يكونوا متعبين، بأن يتناولوا طعاماً تقليدياً في تونخالا... ـ اقترح واندجي بخجل.

كان الزوار الكرام منهكين، لكنّهم لا يستطيعون أن يفوّتوا الفرصة. أنهوا نشاطات ذلك اليوم المكثّفة في بيت الدليل، الذي يتألف، مثل الكثير من البيوت في العاصمة، من طابقين، وكان مبنياً من القرميد الأبيض والخشب المصوّر تصويراً مركباً من الأزهار والطيور، على طريقة القصور نفسها. كان من المحال التأكّد ممن ينتمي إلى أسرة واندجي، لأنّ عشرات الأشخاص صاروا يدخلون ويخرجون والجميع يُقدَّمون كأعمام أو أخوة أو أبناء عمّ. لم تكن توجد كنى. حين يولد طفل يقترح له الأبوان اسمين أو ثلاثة ليميِّزوه عن البقية، لكنّ كلّ شخص يستطيع أن يغيّر اسمه بإرادته عدّة مرّات في حياته. الوحيدون الذين يحملون كنية هم أبناء الأسرة الملكية.

قدّمت بِّما وأمّها وعدد من العمّات وبنات الأعمام الطعام. جلس الجميع على الأرض حول طاولة مستديرة، وضعوا عليها جبلاً حقيقيّاً من الرزّ الأحمر والحبوب وعدّة تركيبات من النباتات، المتبلة بالتوابل والفلفل الأحمر الحار. وسرعان ما راحوا يأتون بالطيّبات المحضَّرة خصيصاً لتكريم الأجانب: كبد ياك، رئة غنم، كراعين خنزير، عيون كوبرا ونقانق دمٍ متبل بكثير من الفلفل الحارّ والفلفل الحلو، وما إن شمّوا رائحة الصحون حتى دمعت عيونهم وأصابت كاتْ نوبة من السعال. كان الطعام يُتناول باليد، بصنع كريات من الطعام تقتضي الآداب أن يقدّموها للزائرين أوّلاً.

عندما حمل ألِكساندر وناديا اللقمة الأولى إلى فميهما كادا يطلقان صرخة. ما من أحدٍ منهما جرّب قط شيئاً حارّاً مثله، التهب فماهما كما لو بفحم مشتعل. حذّرتهما كاتْ كولدْ بين نوبات السعال أنّ عليهما ألا يهينا مضيفيهما، لكنّ أبناء المملكة الممنوعة

الأصليين يعلمون أنّ الأجانب غير قادرين على ابتلاع طعامهم. وبينما راحت دموعُ الفتيين تجري على خدودهما راح الآخرون يضحكون بصوت عالٍ، طارقين الأرض بأقدامهم وأيديهم.

بِمّا المبسوطة بدورها جاءتهما بشاي كي يمضمضا فميهما به، وبصحن يحتوي على النباتات ذاتها لكنّها مُحضّرة دون فلفل حار. تبادل ألِكساندر وناديا نظرات التواطؤ. في الأمازون أكلا بدءاً من الأفعى المشوية وحتى الحساء المصنوع من رماد هنديّ ميت. قرّرا تلقائياً ودون أن ينبسا بكلمة أنّ اللحظة ليست مناسبة للانسحاب. فشكراهم مُنحنيين وأيديهما أمام وجهيهما وحضّر كلّ منهما بعدها كرةَ ناره ووضعها بعنفٍ في فمه.

في اليوم التالي كان يُحتفل بعيد دينيّ يصادف تمامَ القمرِ وعيدَ ميلاد الملك. كان البلد قد تهيّأ كلّه طوال أسابيع للحدث. كل تونخالا صبّت في الشارع ونزل الفلاحون الذين كان عليهم أن يسافروا على أقدامهم أو على الخيول طوال أيام من القرى البعيدة في الجبال. خرج الموسيقيون بعد مباركة اللامات بآلاتهم، والطباخات وضعن موائد كبيرة من الطعام والحلوى والأباريق المليئة بمشروب الأرز. كلّ شيء كان بهذه المناسبة مجاّناً.

دوّت أصوات الأبواق والطبول والغونغات في الأديرة منذ الصباح الباكر. كان المؤمنون والحجّاج القادمون من بعيد يجتمعون في المعابد ليقدّموا قرابينهم ويقيموا حلقات الصلاة، ويشعلوا شموع زبدة الياك، بينما رائحة الشحم الزنخة ودخان البخور يطفوان في جوّ المدينة.

كان ألكساندر قبل سفره قد لجأ إلى مكتبة مدرسته ليجمع معلومات عن المملكة الممنوعة وعاداتها ودينها. وأعطى درساً مقتضباً عن البوذية لناديا التي لم تكن قد سمعت قط ببوذا.

ـ فيما يشكّل اليوم جنوب نيبال، وُلِد قبل المسيح بخمسمئة وستّة وستين عاماً أميرٌ يُدعى سد هارتا غوتاما. وعند ولادته تنبّأ عرّاف بأنّ الطفل سيسود الأرض كلّها، لكن شريطة أن يُحفظ من التآكل والموت، وإلاّ أصبح معلِّماً روحياً عظيماً. والده الذي كان يُفضّل الأمر الأوّل، أحاط القصرَ بأسوارٍ عالية كي يتمتع سد هارتا بحياة زاهية، مكرّسة للملذات والجمال، دون أن يُواجِه قط المعاناة. حتى الأوراق التي كانت تسقط من الأشجار سرعان ما كانت تُكنَس، كيلا يراها تذبل. تزوّج الشاب وأنجب ولداً دون أن يكون قد خرج قط من ذلك الفردوس. كان في التاسعة والعشرين من عمره حين أطلّ على خارج الحديقة ورأى لأوّل مرّة المرضَ والفقرَ والألم والقسوة. قصّ شعرَه، نزع حليه وثيابه الحريرية الفاخرة ومضى باحثاً عن الحقيقة. درس خلال ستّ سنوات على يد لاعبِ يوغا في الهند وأخضع جسده للزهد الأكثر صرامة...

ـ ما هذا؟ ـ سألت ناديا.

ـ كان يتبع حياة من التقشف والحرمان. ينام على الشوك، ويأكل بعض حبّات الرز فقط.

ـ فكرة سيّئة... ـ علّقت ناديا.

ـ هذا ما خلص إليه سد هارتا. بعد الانتقال من اللذة المطلقة في القصر إلى التضحية الأكثر صرامة أدرك أنّ الطريقَ الوسط هو الأنسب ـ قال ألِكساندر.

ـ ولماذا يُسمّونه المستنير؟ ـ أرادت صديقته أن تعلم.

ـ لأنّه في الخامسة والثلاثين من عمر جلس بلا حراكٍ تحت شجرة يتأمّلُ ستّةَ أيّام وستّ ليالٍ. وفي ليلة مقمرة كهذه الليلة التي يُحتفل بها بهذا العيد انفتح عقله وروحه وتمكّن من أن يُدرك كلّ مبادئ تطوّر الحياة. أي أنّه تحوّل إلى بوذا.

ـ «بوذا» بالسنسكريتية تعني «المستيقظ» أو «المستنير» ـ

وضَّحت كاثْ كولدْ، التي كانت تُصغي باهتمامٍ إلى شرح حفيدها ـ بوذا ليس اسماً، بل درجة ويمكن لأيِّ شخصٍ أن يُصبح بوذا من خلال حياة نبيلة وممارسة روحية ـ أضافت.

ـ قاعدة البوذية هي الرحمة تجاه كلّ ما يعيش ويوجَد. قال إنّ على كلّ شخص أن يبحث عن الحقيقة أو النور في داخله وليس في آخرين أو أشياء خارجية. ولذلك لا يذهب البوذيون ليبشروا مثل مبشرينا، بل يقضون معظم حياتهم في تأملات وقورة، باحثين عن حقيقتهم الخاصّة. وهم لا يملكون غير غفّاراتهم، وصنادلهم وقصعاتهم يتسوّلون فيها طعامهم، لا تهمهم الخيرات المادية ـ قال ألِكساندِر.

ناديا، التي لم تكن تملك أكثر من حقيبة صغيرة فيها ما لا غنى عنه من الملابس وثلاث ريشات ببغاء لتسريحتها، بدا لها هذا الجزء من البوذية تامّاً.

في الصباح قاموا بمباريات الرمي على الأهداف، وهي أكثر نشاطات احتفال تونخالا ازدحاماً. حضر أفضل رماة الأقواس مزدانين بأفخر ملابسهم، وبأطواق الأزهار التي تضعها الصبايا في أعناقهم. كانت الأقواس ثقيلة جدّاً ويبلغ طولُ الواحد منها المترين تقريباً.

قدّموا واحداً لألِكساندر، لكنّه وجد صعوبة شديدة في رفعه، وصعوبة أكبر في إصابة الهدف. شدّ الوترَ بكلّ قواه، لكن السهم أفلت في غفلة منه من بين أصابعه وخرج باتجاه أحد أصحاب الشأن على بعد أمتار من الهدف. رآه ألِكساندر يسقط على ظهره فذُعِر، واعتقد أنّه قتله، لكنّ الضحيّة نهض على الفور وهو في أمرح حال. فقد دخل السهم وسط قبّعته. لم يشعر أحد بالإهانة. انفجرت جوقة من القهقهات احتفالاً بارتباك الأجنبيّ، وتنزّه صاحبُ الشأن بقيّةَ النهار والسهم في قبّعته كأنّه ذكرى.

حضر سكّان المملكة الممنوعة في أفضل ثيابهم الاحتفالية ووضع غالبيّتهم أقنعة أو طلُوا وجوههم بالأصفر والأبيض والأحمر. في أعناقهم وآذانهم وأذرعهم كانت تزدهي زينات من فضّة وذهب ومرجان قديم وفيروز.

جاء الملك في هذه المرّة بعمرةٍ مذهلة على رأسه: تاج المملكة الممنوعة. وكان من الحرير المطرّز بترصيعات من الذهب والمطعَّم بالحجارة الكريمة. في الوسط فوق الجبهة ياقوتة حمراء كبيرة. وعلى صدره القلادة الملكية الكبيرة. راح يتمشى دون موكب بملامحه الأبدية الهادئة وتفاؤله بين الرعية، التي كان من الواضح أنّها تعبده. فموكبه مؤلّف فقط من تسشِوانغ، الفهد، الذي لا ينفصل عنه، وضيفة الشرف جوديت كينسكي، المزدهية في ثياب البلد التقليدية، لكنّها تحمل دائماً حقيبةً على كتفها.

في المساء قُدّمت مسرحيات، قام بها ممثلون مقنَّعون وبهلوانيون ومشعوذون. وقدّمت مجموعات من الفتيات عرضاً من الرقصات التقليدية، بينما تنافس أفضل الرياضيين في معارك تصويرية بالسيوف وبنوع من الفنون الحربية لم يرها الأجانب في حياتهم قط. كانوا يقفزون قفزات قاتلة ويتحرّكون بسرعة مدهشة، فيبدون وكأنهم يطيرون فوق رؤوس خصومهم. ما من أحد منهم استطاع أن ينتصر على شاب نحيل ووسيم له رشاقة وضراوة نمر. أعلم واندجي الأجانبَ أنّه أحد أبناء الملك، لكنّه ليس المختار ليشغل ذات يوم العرشَ. كانت له ملكات المحارب، وهو دائماً نافد الصبر وعنيد، يريد أن ينتصر، ويُحبّ التصفيق، أضاف الدليل، لم يكن يملك إطلاقاً مؤهلاتٍ كي يصبح حاكماً حكيماً.

عند مغيب الشمس بدأت الجداجد تصدح ملتحقة بضجيج الاحتفال. اشتعلت آلافُ المشاعل والمصابيح ذات الشاشات الورقية.

كان بين الحشود المتحمّسة الكثير من المقنَّعين. وكانت الأقنعةُ أعمالاً فنّيةً حقيقيّةً، وجميعها مختلفة، مطليّة بالذهب والألوان

البرّاقة. لفتَ انتباهَ ناديا أنّ تحت بعض الأقنعةِ لحىً سوداء، مع أنّ رجالَ المملكة الممنوعة كان يحلقون ذقونهم بعناية ولا يظهرون أبداً بالشعر على وجوههم، فهذا يُعتبر نقصاً في النظافة. درست لبرهةٍ الحشودَ وانتبهت إلى أنّ الملتحين لا يُشاركون مثل البقيّة في الاحتفالات. كانت ستبلغ ألِكساندر بملاحظاتها حين اقترب منها هذا وعليه ملامح الانشغال.

ـ تمعّني بهذا الرجل هناك، يا نسر ـ قال لها.

ـ أين؟

ـ خلف البهلوان الذي يطلق المشاعل المشتعلة في الهواء. ذاك الذي يعتمر قبعة تيبتية جلدية.

ـ وماذا به؟ ـ سألت ناديا.

ـ لنقترب بحذر ونراه عن قرب ـ قال ألِكساندِر.

حين استطاعا ذلك رأيا خلف القناع بؤبؤين شفافين، جامدين: إنّهما عينا تِكس أرماديّو اللتان لا تُنسيان.

ـ كيف وصل إلى هنا؟ فهو لم يأتِ معنا بالطائرة والرحلة المقبلة بعد خمسة أيّام ـ علّق ألِكساندِر بعد قليل، حين ابتعدا قليلاً.

ـ أعتقد أنّه ليس وحده، يا جغوار. يمكن لهؤلاء المقنّعين الملتحين أن يكونوا من طائفة العقرب. كنتُ أراقبهم ويبدو لي أنّهم يحيكون أمراً.

ـ إذا لاحظنا شيئاً مثيراً للشبهة سنخبر كاتْ. الآن لا نستطيع أن نرفع بصرنا عنهم ـ قال ألِكساندر.

كانت قد وصلت من الصين أسرة مختصّة بالألعاب النارية. وما إنّ غابت الشمس خلف التلال حتى هبط الليل فجأة وهبطت درجة الحرارة، لكنّ الاحتفالات استمرّت. وسرعان ما أضيئت السماء واحتفلت الحشود في الشوارع بكلّ انفجارٍ من انفجارات أنوار الصينيين.

كان هناك من الناس ما يجعل من الصعب التحرّك في الزحام. ناديا المعتادة على الطقس الاستوائي في قريتها سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، راحت ترتعد من البرد. عرضت عليها بِمّا أن تُرافقها إلى الفندق للمجيء بثياب سميكة فانطلقتا برفقة بوروبا، الذي جنّ من دوي الألعاب النارية، بينما ألِكساندر يراقب من بعيد تكِس أرماديّو.

شكرت ناديا كاتْ كولدُ لأنّها اشترت لها ثياباً للجبال العالية. كانت أسنانها تصطكّ مثل بوروبا. في البداية ألبست القردَ باركا الرضيع ثمّ ارتدت بنطلوناً وجورباً وحذاءً شتوياً وسترة كبيرة. بينما بِمّا ترقبها مسرورة. فهي كانت مرتاحة تماماً في سارونغ الحرير.

ـ هيّا بنا! فنحن نضيع أحسن ما في الاحتفال ـ صاحت الشابة.

خرجتا راكضتين إلى الشارع. كان القمرُ وشلالاتُ أنوار الصينيين متعدّدة الألوان تضيء الليل.

ـ أين بِمّا وناديا؟ ـ سأل ألِكساندِر مقدّراً أنّه لم يرهما منذ أكثر من ساعة.

ـ لم أرهما ـ ردّت كاتْ.

ـ ذهبتا إلى الفندق، لأنّ ناديا كانت بحاجة إلى سترة، لكنّ يجب أن تكونا قد عادتا. من الأفضل أن أذهب وأبحث عنهما ـ قرَّر ألِكس.

ـ ستأتيان، لا يوجد هنا مكان تضيعان فيه ـ قالت جدّته.

لم يعثر ألِكساندر على الفتاتين في الفندق. بعد ساعتين انشغل الجميع لأنّ أحداً لم يرهما في زحام الاحتفال منذ برهة طويلة. حصل الدليل واندجي على درّاجة مستعارة وذهب إلى بيته، مفكِّراً أنّ

من الممكن أن تكون بِّما قد حملت ناديا إليه. لكنّه عاد بعد قليل مضطرباً.

ـ لقد اختفتا! ـ أعلن صارخاً.

ـ لا يمكن أن يكون قد حدث لهما مكروه. أنت قلتَ إنّ هذا البلد هو الأكثر أماناً في العالم ـ صاحت كاث.

لم يكن قد بقي في تلك الساعة إلاّ القليل من الناس في الشارع، فقط بعض الطلبة المتأخّرين وبعض النسوة يجمعن القمامة وبقايا الطعام عن الطاولات. كان الجوّ يفوح برائحة الأزهار والبارود.

ـ يمكن أن تكونا قد ذهبتا مع بعض طلبة الجامعة... ـ قال تيموثي بروس.

أكّد لهم واندجي أنّ هذا مُحال، فبِّما لا تفعل هذا أبداً. وقال: ما من فتاة محترمة تخرج ليلاً وحيدة ودون إذن والديها. قرّرا أن يلجآ إلى محطّة الشرطة، حيث استقبلهم بلطف الضباط المُنهكون، الذين عملوا منذ الفجر ولا يبدو أنّهم مستعدون للخروج للبحث عن الفتاتين، اللتين لا شكّ أنّهما مع أصدقائهما أو أقربائهما. واجهتهم كاثْ كولدْ ملوّحة بجواز سفرها وبطاقتها الصحفية، بينما راحت تطلب منهم ذلك بأسوأ صوتٍ آمر، لكن دون أن تستطيع أن تهزّهم.

ـ تلقى هؤلاء الأشخاص دعوةً خاصّة من ملكنا المحبوب ـ قال واندجي، وهو ما وضع الشرطة في حالة تأهّب فوري.

أمضوا بقيّة الليل في البحث عن بِّما ونادِيا في كلّ مكان. وعند الفجر كانت قوى الأمن تامّة ـ تسعة عشر موظّفاً ـ في حالة تأهّب، لأنّهم عمّموا اختفاء أربع مراهقات أخريات في تونخالا.

أبلغ ألِكساندر شكوكَه عن وجود محاربين زرق مختلطين بين الحشود، وأضاف أنّه رأى تِكس أرماديّو مقنّعاً بهيئة راعٍ تيبِتي. حاول أن يتبعه، لكنه لا شكّ انتبه إلى أنّهم تعرّفوا عليه فضاع في الزحام. أبلغت كاثْ الشرطة التي نبّهتها إلى أنه يجب عدم دبّ الذعر دون براهين.

انتشر الخبر الفظيعُ بأنّ عدّة فتيات قد خُطفن في ساعات الصباح الأولى. بقيت جميع الحوانيت تقريباً مغلقة وأبواب المنازل مفتوحة، بينما نزل سكّانُ العاصمة الوديعة إلى الشوارع ليعلّقوا على خبر الاختطاف. خرجت مجموعات من المتطوّعين تجوبُ الضواحي، لكنّ العملَ كان مثبطاً لأنّ الأرض الوعرة، والمغطاة بالنباتات المكتظّة جعلت البحث صعباً. سرعان ما بدأت شائعة تدور وتكبر حتى تحوّلت إلى نهر جامح من الرعب لفّ المدينة: العقارب! العقارب!

أكّد فلاحان لم يحضرا الاحتفال أنّهما رأيا عدّة خيّالة يمرّون خبباً باتجاه الجبال. قال الفلاحان المذعوران: كانت حدوات خيولهم تقدح شرراً على الحجارة والغفارات السوداء تتموّج في الهواء فبدوا على نور الشهب النارية كالشياطين. بعد قليل عثرت إحدى العائلات العائدة في الطريق إلى ضيعتها على مطرة جلدية مستهلكة مليئة بالكحول نقش عليها عقرب؛ أخذتها إلى الشرطة.

فقد واندجي أعصابه. وراح يئنّ مقرفصاً ووجهه بين يديه، بينما زوجته صامتة مصعوقة وبلا دموع.

- هل يعنون طائفة العقرب، طائفة الهند ذاتها - سأل ألِكساندر كولْدْ.

- المحاربون الزرق! لن أرى بِّما بعد الآن! - كان الدليلُ يبكي.

راح رجال بعثة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* يجمعون التفاصيل على الفور. أولئك الرحل الدمويون الذين يتجوّلون في شمال الهند، يهاجمون القرى العزلاء ليختطفوا الفتيات اللواتي يُحوّلونهنّ إلى عبدات لهم، فالمرأة عندهم أقلّ قيمة من سكّين، ويعاملونهنّ أسوأ من الحيوانات، ويبقون عليهنّ مذعورات، مخبّآتٍ في الكهوف.

- يقتلون الإناث فور ولادتهنّ ويتركون الذكور الذين يفصلونهم عن أمّهاتهم ويدرّبونهم على القتال منذ الثالثة من عمرهم. ولكي يكسبوهم مناعة ضدّ السمّ يجعلون العقارب تلدغهم بحيث

يستطيعون، حين يصلون إلى عمر المراهقة، أن يتحمّلوا لسعات الزواحف والحشرات، التي لولاها لكانت النتائج وخيمة.

بعد زمن قصير تموت الأمّهات من المرض، أو سوء المعاملة أو قتلاً، لكنّ القليلات اللواتي يصلن إلى سنّ العشرين يعتبرن غير ذوات قيمة ويُهْجَرن لتحلّ محلّهنّ مختطفات صغيرات أخريات. وهكذا تتكرّر الدورة. في دروب الهند تظهر هذه النسوة المجنونات المحزنات، يرتدين الأسمال ويطلبن الصدقة. لا أحد يقترب منهنّ خوفاً من طائفة العقرب.

ـ والشرطة، ألا تفعل شيئاً؟ ـ سأل ألِكساندِر، مذعوراً.

ـ يحدث هذا في مناطق معزولة جدّاً، في بلدات نائية وبائسة. لا أحد يجرؤ على مواجهة اللصوص، فالناس مذعورون منهم، يعتقدون أنّهم يملكون قدرات شيطانيّة، يمكن أن تقضي جائحة عقارب على الضيعة. ليس هناك مصير أسوأ بالنسبة إلى طفلة من وقوعها في أيدي الرجال الزرق. تعيش حياة حيوان لعدّة سنوات، ترى بناتها يقضين نحبهنّ، ينزعون منها أولادها الذكور، وإذا لم تمُتْ تتحوّل إلى متسوّلة ـ وضّح لهم الدليل وأضاف أنّ طائفة العقرب عصابة من اللصوص والقتلة الذين يعرفون كلّ ممرات الهيمالايا، يعبرون الحدودَ على هواهم ويهاجمون دائماً ليلاً. إنهم حذرون كالأشباح.

ـ وهل دخلوا قبل هذه المرّة المملكة الممنوعة؟ ـ سأل ألِكساندِرْ، الذي بدأ يتشكّل في ذهنه شكٌ رهيب.

ـ لم يفعلوا ذلك من قبل قط. لم يعملوا إلاّ في الهند ونيبال ـ ردَّ الدليل.

ـ ولماذا جاؤوا من كلّ هذا البعد؟ غريب جدّاً أنّهم تجرّؤوا على الوصول إلى مدينة مثل تونخالا، والأغرب من ذلك أن يُقرِّروا ذلك تماماً خلال الاحتفال بينما الشعب في الشارع والشرطة تراقب ـ قال ألِكساندِر.

ـ سنذهب على الفور للتحدّث إلى الملك. يجب استنفار كلّ الإمكانيات الممكنة ـ قرَّرت كات.

كان حفيدها يُفكِّر بتِكس أرماديّو والأشخاص المريعين، الذين رآهم في أقبية الحصن الأحمر. ما الدور الذي كان يلعبه ذلك الرجل في تلك المسألة؟ ما معنى الخريطة التي كانوا يدرسونها؟

لم يدر مِن أين يبدأ في البحث عن نسر، لكنّه كان على استعداد لأن يجوب كلّ الهيمالايا من رأسها إلى عقبها بحثاً عنها. كان يتصوّر ما تعاني منه صديقته في تلك اللحظات. كلّ دقيقة ثمينة: يجب العثور عليها قبل أن يتأخّر الوقت جدّاً. كان بحاجة إلى غريزة الجغوار الصياد أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لكنّه من العصبية بحيث لا يستطيع التركيز بما يكفي لاستحضارها. كان العرق يسيل على جبينه وظهره، يبلِّل قميصه.

لم تتمكّن ناديا وبّما من رؤية المهاجمين. غفّارتان داكنان سقطتا فوقهما ولفّتاهما، ثمّ ربطتاهما بأمراس، كأنّهما رزمتان ورفعتاهما في الهواء. صرخت ناديا، حاولت أن تُدافِع عن نفسها، خابِطة بساقيها في الهواء، لكنّ ضربة جافّة على رأسها أدخلتها في غيبوبة. بالمقابل استسلمت بِّما لمصيرها، مقدِّرة أنّ من العبث القتال في تلك اللحظات، وعليها أن تحتفظ بطاقاتها إلى ما بعد. وضع المختطفان الفتاتين على الجوادين مثل كيسين وركبا خلفهما، ممسكين بهما بأيدٍ من حديد. لم يكونا يحملان سرجاً غير بطانية مطوية ويسيران مطيتيهما بالضغط عليهما بركبهما. كانا فارسين رهيبين.

بعد دقائق قليلة استعادت ناديا وعيها وما إن صفا ذهنها حتى قدّرت الوضع. انتبهت على الفور إلى أنّها تمضي خبباً على جواد، رغم أنّها لم تمتطِ جواداً قط. كانت تشعر بكلّ ضربة قدم من الحيوان

في معدتها وصدرها، وتعاني من التنفس تحت البطانية وتشعر بيدٍ كبيرة وقويّة تضغط على ظهرها، مثل مخلب، وتسندها.

كانت رائحة الجواد المتصبب عرقاً وثياب الرجل نفّاذة، لكن هذا بالضبط ما أعاد إليها الوعي وسمح لها بالتفكير. هي المعتادة على العيش محتكّةً بالطبيعة والحيوانات، كانت تملك ذاكرةَ شمٍّ عظيمة. لم يكن للرجل الذي اختطفها رائحة الرجال الذين عرفتهم في المملكة الممنوعة النظيفة إلى أقصى حدّ. رائحة الحرير الطبيعي والقطن والصوف المختلطة بالبهارات التي يستعملونها في الطهي وزيت اللوز، الذي يستخدمه الجميع لإضفاء بريق على الشعر. كان باستطاعة ناديا أن تميِّز ابن المملكة الممنوعة عن غيره وهي مغمضة العينين. كان الرجل الذي يسندها وسخاً، كما لو أنَّ ثيابه لم تُغسَل قط وجلده ينشر رائحة ثوم وفحم وبارود مرّة. لا شكّ أنّه كان غريباً عن تلك الأرض.

أصاخت ناديا السمعَ باهتمام واستطاعت أن تُقدِّر أنّ هناك بالإضافة إلى الجوادين، اللذين تمضي عليهما هي وبِّما، أربعة جيادٍ أخرى على الأقل وربّما خمسة. وانتبهت إلى أنّهم يمضون دائماً صعوداً. حين تبدّل خطو الجواد عرفت أنّهم لم يعودوا يمضون في درب بل في برّية وعرة. كان باستطاعتها أن تسمع وقع حوافر الخيول على الحجارة وتشعر بجهد الحيوان في التسلّق. كان ينزلق أحياناً صاهلاً فيحثّه الرجل بلغة مجهولة.

كانت الفتاة تشعر بعظامها مسحوقة من الرجرجة دون أن تستطيع أن تتخذ وضعية مريحة، لأنّ الحبال ثبّتتها. كان الضغط على الصدر من القوّة بحيث أنّها خافت أن تتحطّم أضلاعها. كيف تستطيع أن تترك أثراً كي يستطيعوا العثور عليها. كانت واثقة من أنّ جغوار سيحاول ذلك، لكنّ تلك الجبال كانت متاهة مرتفعاتٍ وهوّات. لو تستطيع على الأقل أن تفلت فردة حذاء، فكّرت، لكنّ هذا كان محالاً لأنّ حذاءها مربوط.

بعد برهة لا بأس بها وحين أصبحت الفتاتان مسحوقتين وشبه غائبتين عن الوعي توقّفت الجياد. جهدت ناديا كي تستعيد وعيها وتنصت. نزل الخيّالة فشعرت بأنّهم عادوا ورفعوها ورموها على الأرض، كما لو أنّها كيس. سقطت فوق حجارة. سمعت بِمّا تئنُّ وعلى الفور فكّت بعض الأيدي الحبال ونزعت عنها البطانية. تنفّستْ ملء رئتيها وفتحت عينيها.

أوّل شيء رأته هي قبّة السماء المظلمة والقمر، ثم الوجوه السوداء والملتحية منحنيةً فوقها. رائحة نتن الثوم والكحول وشيء يشبه التبغ تصدر عن الرجال صفعتها مثل لكمة. عيونهم الشريرة تلمع في محاجرها الغائرة، ويضحكون ساخرين. كانت تنقصهم بعض الأسنان والقلّة القليلة المتبقية منها تكاد تكون سوداء. كانت ناديا قد رأت ناساً في الهند لهم هذه الأسنان ووضّحت لها كاتْ كولْدْ أنّهم يمضغون تامولاً. وعلى الرغم من أنّ الظلمة كانت شديدة إلاّ أنّها عرفت مظهر الرجال الذين رأتهم في الحصن الأحمر، محاربي العقرب المخيفين.

وبشدّة واحدة أوقفها مختطفوها على قدميها، لكن كان عليهم أن يسندوها، لأنّ ركبتيها كانتا تنطويان. رأت ناديا بِمّا على بعد خطواتٍ قليلة منها منكمشةً من الألم. وبإيماءات ودفعٍ أشار الخاطفون إلى الفتيات أن يتقدّمنَ. بقي واحدٌ منهم مع الجيادِ وصعد البقيّة التلّ حاملين المخطوفات. لقد قدّرت ناديا عدد الخيّالة جيّداً: كانوا خمسة.

كان قد مضى عليهم في صعودهم قرابة الخمس عشرة دقيقة حين ظهرت فجأة مجموعة من الرجال، جميعهم ترتدون الثياب ذاتها، وكانوا سوداً، ملتحين ومسلحين بالخناجر. حاولت ناديا أن تنتصر على خوفها، و«تصغي بقلبها» لتفهم لغتهم، لكنّها كانت متوجّعة أكثر من اللازم ومحطّمة. وبينما راح الرجال يتناقشون أغمضت عينيها وتصوّرت أنّها نسر، ملك المرتفعات، الطائر الملكي،

حيوانها الطوطمي. وشعرت لثوانٍ أنّها ترتفع مثل طائر بهيّ ورأت تحتها سلسلة جبال الهيمالايا، وبعيداً جدّاً الوادي الذي تقع فيه مدينة تونخالا. فأعادتها دفعة إلى الأرض.

أشعل المحاربون مشاعل مرتجلة، مكونة من النسالة مربوطة إلى عود ومشبعة بالدهن. وقادوا الفتيات تحت النور المتذبذب عبر فجٍّ طبيعي في الصخر. كانوا يمضون ملتصقين بالجبل، يضعون أقدامهم بحذر مطلق، فتحتهم تنفتح هاوية سحيقة. ريح صرصر تقصُّ الجلدَ مثل سكّين. كان هناك ثلج وجليد بين الحجارة رغم أنّ الوقت صيف.

فكّرت ناديا بأنّ الشتاء في تلك المنطقة مريع حتماً، إذا كانت حتى في الصيف باردة. كانت بِمّا ترتدي الحرير وتنتعل صندلاً. أرادت أن تُمرّر إليها سترتها الكبيرة، لكنّها لم تكد تقوم بحركة حتى صفعوها وأجبروها على متابعة السير. كانت صديقتها في نهاية الصفّ ولا تستطيع أن تراها من موقعها، لكنّها افترضت أنّها في وضعٍ أسوأ من وضعها. من حسن الحظّ أنّهم لم يضطرّوا للتسلق كثيراً، وسرعان ما وجدوا أنفسهم أمام بعض الشجيرات الشوكية التي باعد الرجال بينها. أضاءت الشعلُ مدخلَ كهفٍ طبيعيّ، حسن التمويه مع الأرض. شعرت ناديا بأنّها تنهار: فإمكانية أن يعثر عليها جغوار راحت تُصبِحُ في كلّ مرّة أقل.

كان الكهفُ واسعاً ومكوَّناً من عدّة قبب. شاهدوا كتلاً، خضراوات مجفّفة، جوزاً وجدائل طويلة من الثوم. ومن الواضح بالحكم من مظهر المعسكر وكميّة الأغذية أنّهم مكثوا هناك عدّة أيّام ويفكّرون بالمكوث أياماً أخرى مثلها.

ارتجلوا في مكان مرتفع مذبحاً مريعاً. فوق كومةٍ من الحجارة ينتصب تمثال لكالي الإلهة المرهوبة، محاطاً بعددٍ من الجماجم

والعظام البشرية والجرذان والأفاعي والزواحف الأخرى المحنّطة. أوانٍ فيها سائل داكن، كأنّه دم ومطربانات فيها عقارب سوداء. حين دخل المحاربون ركعوا أمام المذبح وأدخلوا أصابعهم في الأواني ورفعوها إلى أفواههم. لاحظت ناديا أنّ كلَّ واحدٍ منهم يحمل في المئزر الذي يحيط بخصره مجموعةً من الخناجر من مختلف الأشكال والأحجام.

دُفِعت الفتاتان إلى عمق الكهف، حيث استقبلتهما امرأة قبيحةٌ ترتدي الخرق، وعليها معطف من جلد الكلب، يدها مصبوغة بأزرق المحاربين نفسه، يُضفي عليها مظهر الضبع وندبة مريعة على خدّها الأيمن تمتدُّ من عينها وحتى ذروة ذقنها، كأنّها تلقت ضربة سكّين، وعقرب منقوش بالنار على جبينها. كانت تحمل سوطاً قصيراً في يدها.

كان هناك أربع فتيات متقوقعاتٍ حول النار، يرتعدن برداً ورعباً. أطلقت السجّانة زمجرةً وأشارت إلى ناديا وبِمّا أن تلتحقا بالأخريات. الوحيدة التي كانت ترتدي ثياباً شتوية هي ناديا. البقية جميعاً يرتدين السارونغ الحريري الذي ارتدينه للاحتفال بعيد ميلاد الملك. أدركت ناديا أنهنّ اختُطِفن مثلهما، وهذا ما أعاد إليها بعض الأمل لأنّ الشرطة لا بدَّ بدأت البحث عنهنّ في السماء والأرض.

استقبلت جوقة من الأنين ناديا وبِمّا، لكنّ المرأة اقتربت رافعة سوطها فسكتت الفتيات السجينات، مخبِّئاتٍ رؤوسهنّ بين أذرعهنّ. حاولت الصديقتان أن تكونا معاً.

وبغفلة من الحارسة لفّت ناديا بِمّا بسترتها وهمست في أذنها ألاّ تقنط، وأنّهما ستعثران على طريقة للخروج من تلك الورطة. كانت بِمّا ترتعد، لكنّها تمكّنت من أن تُهدّئ نفسَها، وراحت عيناها السوداوان، الباشّتان دائماً فيما مضى تعكسان الآن عزماً وتصميماً. ضغطت ناديا على يدها فشعرت كل منهما بأنّها تحصّنت بالأخرى.

هناك رجل عقرب لم يرفع عينيه عن بِمّا، مندهشاً من لطفها

وكبريائها. اقترب من مجموعة الفتيات المذعورات ووقف مقابل بِمّا وإحدى يديه على مقبض الخنجر. كان له الغفّارة الداكنة الوسخة والعمامة المزيّتة واللحية الشعثاء والجلد الغريب الضارب إلى الزرقة والأسنان المصبوغة بالتامول، مثل البقيّة جميعهم، لكنّ موقفه يشع سلطة والآخرون يحترمونه. بدا أنّه الزعيم.

نهضت بِمّا على قدميها وتحمّلت نظرة المحارب الوحشية. مدّ يده وأمسك الفتاة من شعرها الطويل الذي راح ينزلق بين أصابعه الوسخة مثل الحرير. عطر ياسمين خفيف تضوّع من شعرها. بدا الرجلُ مرتبكاً، شبه متأثّر، كأنّه لم يلمس قطّ شيئاً بمثل تلك الروعة. قامت بِمّا بحركة فجّة من رأسها، فالتة منه. إذا كانت خائفة فهي لم تُظهر ذلك؛ على العكس، كان تعبيرها من التحدّي بحيث أنّ المرأة القبيحة ذات الندبة واللصوص الآخرين وحتى الطفلات بقوا جامدين، واثقين من أنّ المحارب سيضرب سجينته الوقحة، لكنّه تراجع وأطلقَ أمام دهشةِ الجميع قهقهةً. قذف بصقة على الأرض، على قدمي بِمّا وعاد إلى جانب رفاق السوء، المقرفصين قرب النار. كانوا يشربون جرعات من مطرة ويمضغون جوزَ التامول، يبصقون ويتكلّمون حول خريطة منشورة على الأرض.

افترضت ناديا أنّها الخريطة ذاتها التي لمحتها في الحصن الأحمر أو شبيهة بها. لم تفهم ما كانوا يتكلّمون عنه، لأنّ أحداث الساعات الأخيرة الوحشية قدّ عكّرتها بحيث أنّها لم تستطع أن «تُصغي بقلبها». قالت لها بِمّا إنّهم يتكلّمون لهجة من شمال الهند، وأنّها تستطيع أن تفهم بعض الكلمات: تنين، طرق، دير، أمريكي، ملك.

لم تستطيعا الاستمرار بالكلام، لأنّ امرأةَ الندبة سمعتهما واقتربت ملوّحة بالسوط.

ـ اسكتا! ـ زمجرت.

بدأت الفتيات يئننَّ، إلاّ بِمّا وناديا اللتان بقيتا غير مباليتين،

لكنّهما أخفضتا نظرهما كيلا تُثيرانها. وحين غفلت السجانة همست بّما في أذن ناديا قائلة إنّ النساء المهجورات من الرجال الزرق يحملن دائماً عقرباً منقوشاً بالنار على جبينهنّ وكثيرات منهنّ خرساوات، لأنّهم يقطعون ألسنتهنّ. توقّفتا عن الكلام مرتعدتين من الرعب، لكنّهما راحتا تتواصلان بالنظر.

الفتيات الأربع الأخريات، اللواتي حُملن إلى الكهف قبلهن بقليل، كنّ من الخوف بحيث أنّ ناديا افترضت أنّهنّ يعرفن شيئاً هي تجهله، لكنّها لم تجرؤ على السؤال. انتبهت أيضاً إلى أنّ بّما تعرف ما ينتظرها، لكنّها شجاعة ومستعدة لتقاتل من أجل حياتها، وسرعان ما أصيبت الفتيات الأخريات بعدوى الشجاعة من بّما ورحن يقتربن منها دون اتفاق، باحثات عن حماية. خالطت ناديا حالة من الإعجاب بصديقتها مع الضيقِ لأنّها لا تستطيع التواصل مع بقيّة الفتيات، اللواتي لا يتكلّمن كلمة إنكليزية واحدة. حزنت لأنّها مختلفة إلى ذلك الحدّ عنهنّ.

أصدر أحد الرجال الزرق أمراً ولكي تُطيعه نسيت امرأةُ الندبة للحظة المخطوفاتِ. صبّت في بعض القصعات محتوى القدر الأسود المعلّق فوق النار وأعطتها للرجال. وبأمر آخر من الزعيم صبّت مُكرهة للسجينات.

تلقت ناديا حلّة صغيرة من الصفيح، يصعد البخار من طبيخها الرماديّ. موجة من ثوم صفعتها في أنفها ولم تستطع تقريباً أن تكبحَ رعبِ معدتها. عليها أن تتغذّى، قرّرت، لأنّها بحاجة إلى كلّ قواها كي تهرب. قامت بإشارة إلى بّما وحملت كلاهما الصحن إلى فمها. ما من واحدة منهما نوت الاستسلام إلى قدرها.

9

بوروبا

غاصَ القمرُ خلف القِمم وتحوّلت النارُ في الكهف إلى كومةٍ من الجمر والرماد. كانت الحارسة تشخرُ جالسةً، دون أن تفلتَ السوط، مفتوحةَ الفم وخيطٌ من اللعاب يسيل على ذقنها. الرجال الزرقُ استلقوا على الأرض وناموا بدورهم، لكنّ واحداً منهم يقوم بالحراسة في باب الكهف وبندقية قديمة في يديه. شعلة واحدة تُضيء المكانَ بخفوت، مُسْقِطَةً ظلالاً على الجدران الصخرية.

كانوا قد ربطوا المخطوفات من رسُغِهنّ بأحزمة جلدية وأعطوهنّ أربع بطانيات من الصوف السميك. كانت الفتيات سيّئاتُ الحظّ يحاولن أن يتشاركن بالدفءِ لاذّاً بعضهنّ ببعض لا تكاد تغطيهنّ البطانيات. نمن جميعاً منهكات من البكاء، ما عدا بِّما ونادِيا، اللتان استغلّتا اللحظة لتتكلّما همساً.

حكت بِّما لصديقتها ما تعرَف عن طائفة العقرب المخيفة، وكيف أنّهم يسرقون الطفلات ويسيئون معاملتهنّ. إضافة إلى أنّهم يقطعون لسانَ من تتكلّم أكثر من اللازم، ويحرقون أخامص أقدامهنّ إن هنّ حاولن الهرب.

ـ لا أفكّر أن أنتهي إلى أيدي هؤلاء الرجال المريعين. أُفضِّل أن أنتحر ـ خلصت بِّما.

ـ لا تتكلّمي بهذه الطريقة، يا بِّما. في جميع الأحوال خير أن نموت في محاولة الهرب من أن نموت دون صراع.

ـ هل تظنّين أنّ من الممكن الهرب من هنا؟ ـ ردّت بِّما مشيرةً إلى المحاربين النائمين وإلى الحارس على الباب.

ـ سنجد اللحظة التي نفعل فيها ذلك ـ أكّدت لها ناديا ضاغطةً على كعبيها المنتفخين من الأربطة.

بعد برهة قليلة هزمهما التعبُ أيضاً وبدأ رأساهما يترنحان. كانت قد مرَّت عدّة ساعات وناديا، التي لم تملك ساعةً قط لكنّها معتادة على تقدير الزمن، افترضت أنّ الساعة تقارب الثانية فجراً. سرعان ما حدّثها حدسها بأنّ شيئاً ما يحدث. أحسّت من جلدها بالطاقة في الهواء تتبدّل فانتصبت مستنفرة. شبح سريع مرَّ مثل الطير في عمق الكهف. لم تستطع عينا ناديا أن تميّز ماهيته، لكنّها رأت بقلبها أنّه بوروبا، الذي لا يُفارقها. أدركت بارتياحٍ بالغٍ أنّ صديقها قد تبع المختطفين. إلاّ أنّ الخيول سرعان ما تركته وراءها، لكنّ القرد كان قادراً على تتبّع أثر صاحبته وتدبّر بطريقةٍ ما أمرَه لاكتشاف الكهف. تمنّت ناديا من كلّ روحها ألاّ يصدر بوروبا أيّ صيحة فرحٍ حين يراها، وحاولت أن تنقل إليه رسالة عقلية لتهدئته.

وصل بوروبا إلى يد ناديا حديثَ الولادة، حين كانت هي في التاسعة من عمرها. كان صغيراً وعليها أن تطعمه بقطّارة. لم يكونا ينفصلان. كبر القردُ إلى جانبها، واستطاعا أن يتكاملا بحيث يستطيع أن يشعر كلٌّ منهما بما يشعر به الآخر. وكانا يشتركان في لغة الإيماءات والنوايا، إضافة إلى لغة الحيوان، التي تعلّمتها ناديا. يبدو أنّ القرد تلقّى تحذيرَ صاحبتِهِ فلم يقترب منها. بقي بلا حراك، قابعاً في زاويةٍ مظلمة زمناً طويلاً، يراقب ما حوله، مُقدّراً المخاطر، منتظراً.

وحين تأكّدت الفتاة من أنّ أحداً لم ينتبه إلى وجود بوروبا،

ومن أنّ شخير سجانيها لم يتبدّل، أطلقت صفرةً خفيفة. عندها راح الحيوان يقترب قليلاً فقليلاً، ملتصقاً دائماً بالجدار، تحميه الظلمة إلى أن وصل إليها وتعلّق بقفزة واحدة في عنقها. لم يكن يرتدي بزّكة الرضيع، فقد تخلّص منها شدّاً، وراح يُمسك بيديه الصغيرتين شعر ناديا الخشن ويفرك وجهَهُ المجعّد بعنقها متأثّراً لكنّه صامت.

انتظرته ناديا حتى هدأ وشكرته على وفائه. ثم أعطته أمراً هامسةً في أذنه. أطاعها بوروبا على الفور، منسلاً من حيث جاء، اقترب من أحد الرجال النائمين ونزع بيديه الرشيقتين الناحلتين الخنجرَ بدقّة مذهلة من حزامه، وأخذه إلى ناديا. جلس مقابلها مراقباً باهتمام، بينما راحت هي تقطع سيور الرسغين. كان الخنجر مشحوذاً بحيث لم تجد صعوبة في ذلك.

ـ هذه هي لحظة الهرب ـ همستْ.

ـ وكيف تفكّرين بالمرور أمام الحارس.

ـ لا أدري، سنرى، خطوة واحدة.

لكنَّ بِمّا لم تسمح لها أن تقطع أربطتها وأعلمتها والدموعُ تملأ عينيها أنّها لا تستطيع الذهاب.

ـ أنا لا أستطيع أن أصل بعيداً، يا ناديا. انظري لباسي لا أستطيع أن أركض مثلكِ في هذا الصندل. إذا ذهبت معك فسيلقون القبض علينا نحن الاثنتين. أنت وحدك أمامكِ إمكانيّة أفضل لإدراك ذلك.

ـ هل جُننتِ؟ لا أستطيع الذهاب دونك! ـ همست ناديا.

ـ عليك أن تحاولي. احصلي على مساعدة. أنا لا أستطيع أن أترك الفتيات الأخريات، سأبقى معهنّ حتى تعودي أنتِ بدعم. اذهبي الآن قبل أن يفوت الأوان ـ قالت بِمّا وقد خلعت سترتها كي تعيدها إلى ناديا.

كانت من التصميم بحيث أنّ ناديا تنازلت عن محاولةِ تغيير

رأيها. فصديقتها لن تترك الفتيات الأخريات. كما لم يكن من الممكن أخذهنّ، لأنّهن لن تستطعن أن تعبرنِ دون أن تُشاهَدْن؛ لكن ربّما استطاعت ذلك وحدها. تعانقتا قليلاً ونهضت ناديا مشغولة بألف انشغال.

تحرَّكت امرأةُ الندبةِ في حلمها وتمتمت ببعض كلماتٍ، فبدا للحظة أنّ كلَّ شيء قد ضاع، لكنّها تابعت شخيرَها بالإيقاع السابق ذاته. انتظرت ناديا خمس دقائق حتى اقتنعت بأنّ البقيّة نائمون أيضاً، فتقدَّمت على الفور بملاصقة بالجدار، متبعة الطريق الذي سلكه بوروبا. تنفَّست بعمق واستحضرت قواها الخفيّة.

كانت ناديا والِكساندر قد أمضيا وقتاً لا يُنسى مع قبيلة أهل الضباب في الأمازون، أكثر كائنات الكرة الأرضية قِدَماً وغموضاً. أولئك الهنود الذين يعيشون بطريقة العصر الحجري ذاتها، كانوا متطوِّرين جدّاً في بعض النواحي؛ يحتقرون التقدم المادي ويعيشون على تماسٍّ مع قوى الطبيعة في تضامنٍ تامّ مع البيئة. كانوا جزءاً من بيئة الغابة المعقّدة، مثل الأشجار والحشرات والدُبال. وقد بقوا أحياء في الغابة قروناً دون احتكاك بالخارج، تحميهم معتقداتُهم وتقاليدُهم وشعورهم الاجتماعي وفن أنّهم يبدون غير مرئيين. لا يختفون إلاّ حين كان يترصّدهم خطر ما. وكانت هذه الخفّة من القوّة بحيث أنّ أحداً لم يكن يؤمن بوجود أهل الضباب؛ ويتكلمون عنهم بنبرة من يحكي أسطورة، وهو ما حماهم أيضاً من فضول وجشع الغرباء.

انتبهت ناديا إلى أنّ المسألة لا تتعلّق بحيلة إيهام، بل بفنٍّ قديم جدّاً يتطلّب تدريباً متواصلاً. «إنّه مثل تعلّم العزف على الناي، يحتاجٍ إلى الكثير من الدراسة»، قالت لألِكساندر، لكنّه لم يكن يؤمن حقيقةً أنّ ذلك يمكن أن يُتَعَلَّم ولم يصرّ على التدريب. بينما قرَّرت هي أنّه إذا كان الهنود يفعلونه فهي تستطيع ذلك أيضاً. كانت تعرف أنّ الأمر

لا يتعلّق فقط بالتنكّر البيئي، والرشاقة والرقّة والصمت ومعرفة المحيط، بل بالموقف العقلي على وجه الخصوص. كان عليها أن تضمحلّ حتى العدم، تشفّ جسدها بحيث يصير شفافاً حتى تصبح روحاً خالصاً. كان عليها أن تبقي على تركيزها وهدوئها الداخلي كي تخلق حقلاً نفسياً رهيباً حول شخصها؛ إذ تكفي غفلة كي تفشل. فقط في الحالة الأسمى التي تعمل فيها الروح والعقل بإيقاع واحد تستطيع أن تدرك الاختفاء.

مارست ناديا العملية بلا كلّ ولا ملل، خلال الأشهر التي قضتها بين مغامرة مدينة البهائم في قلب الأمازون، واللحظةِ التي وجدت نفسها في ذلك الكهف في الهيمالايا. وتقدّمت في هذا إلى حدّ أنّ والدها كان يناديها صارخاً بينما هي تقف بجانبه. وحين تظهر فجأة ينطُّ سيزَر سانتوس الذي كان يشكو منها قائلاً: «ألم أقل لك لا تظهري بهذا الشكل! سوف تقتلينني بنوبة قلبية!».

في تلك اللحظة كانت ناديا تعلم أنّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُنقِذها هو الفن الذي تعلّمته من أهل الضباب. همست بتعليماتها لبوروبا كي ينتظر عدّة دقائق قبل أن يتبعها، لأنّها لا تستطيع فعل ذلك حاملة الحيوان؛ وعادت على الفور إلى داخلها، ذلك الفضاء الغامض الذي نملكه جميعاً حين نغمض أعيننا ونطرد الأفكارَ من ذهننا. دخلت خلال ثوانٍ قليلة في حالة تشبه الغيبوبة. شعرت أنّها تنفصل عن جسدها، وتستطيع أن تراقب نفسها من علٍ. كأنّ وعيها ارتفع عدّة أمتار فوق رأسها ذاته. رأت من موقعها هذا كيف خطت قدماها خطوة، ثمّ أخرى، ثمّ أخرى، منفصلة عن بمّا والأخريات، متقدّمةً بحركة بكاميرا بطيئة، قاطعةً المكان في عتمة جحر اللصوص.

مرّت على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من امرأة السوط الرهيبة، انسلّت مثل طيف غير محسوس بين أجسام المحاربين النائمين، وتابعت طريقها شبه طافية باتجاه فتحة الكهف، حيث يُغالِب الحارسُ

المنهك نفسَه كي يبقى مستيقظاً بعينيه الضائعتين في الليل دون أن يترك بندقيته. لم تُضيِّع تركيزَها لحظةً واحدةً، لم تسمح للخوف أو للتردُّد أن يعيدا روحَها إلى سجن الجسد. اقتربت دون أن تتوقّف أو تُعدّل من وقع خطواتها من الرجل حتى لامست ظهره تقريباً، وأحسّت بحرارته ورائحة الوسخ والثوم فيه.

ارتعش الحارسُ رعشةً خفيفةً وشدَّ على سلاحه كما لو أنّه انتبه بالغريزة إلى حضورٍ بجانبه، لكن سرعان ما حاصر عقلُه هذا الشكّ فارتخت يداه وعادت عيناه فأغمضتا قليلاً، وهو يُصارع النعاس والتعب.

عبرت ناديا مدخلَ الكهف مثل شبحٍ وتابعت طريقَها في العتمة على غيرِ هدى، ودون أن تلتفت بنظرها إلى الخلف أو تستعجل ابتلاع الليلُ طيفَها النحيل.

ما إن عادت ناديا سانتوس إلى جسدها وألقت نظرة حولها، حتى أدركت أنّها إذا كانت ترى نفسها عاجزة عن العثور على طريق العودة إلى تونخالا في عزّ النهار، فلا بدّ أنّها ستكون أكثر عجزاً في ظلمات الليل. كانت الجبال ترتفع من حولها، وبما أنّها قامت بالرحلة مغطاة الرأس بالبطانية لم يكن عندها نقطة علاّم تسمح لها بأن تهتدي بها. يقينها الوحيد هو أنّها كانت تصعد دائماً، وهو ما عنى أنّ عليها أن تهبط التل نزولاً، لكنّها لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك دون أن تصطدم بالرجال الزرق. كانت تعلم أنّ محارباً بقي يحرس الخيول في الشِّعب، ولا تدري كم بقي منهم مبعثرين في التلال. الثقة التي كان يتحرّك بها اللصوص دون خوف من أن يُهاجموا تدلّ على أنّهم كثر. كان من الأفضل لها أن تبحث عن طريق آخر للهرب.

ـ ماذا نفعل الآن؟ ـ سألت بوروبا حين اجتمعا من جديد، لكنّ

هذا لم يكن يعرف غير الطريق الذي استخدمه للوصول إلى هناك، طريق اللصوص ذاته.

الحيوان، الذي كان مثل صاحبته غير معتادٍ على البرد، راح يرتعد إلى حدّ أن صوت اصطكاك أسنانه كان مسموعاً. وضعته الفتاة بشكل مريح على صدرها، تحت بَرْكتها، مستأنسة بحضور هذا الصديق الوفي. رفعت القلنسوة وربطتها جيّداً حول وجهها، حزينةً لأنّها لا تحمل القفاز الذي اشترته لها كاث؛ فيداها من البرودة بحيث لم تكن تشعر بأصابعها. أدخلتها في فمها نافخة كي تمنحها حرارة، ثمّ في جيوبها، لكن كان من المحال عليها أن تتسلّق أو تتوازن في تلك الأرض الوعرة دون أن تمسك بيديها. قدّرت أنّه ما إن تشرق الشمس وينتبه خاطفوها إلى أنّها هربت حتى يخرجوا للبحث عنها، لأنّهم لا يمكن أن يسمحوا لأسيرةٍ بأن تصل إلى الوادي وتدبّ الصوت. لا شكّ أنهم كانوا معتادين على التحرُّك في الجبال، بينما هي لا تملك فكرة عن مكان وجودها.

سيفترضُ الرجالُ الزرقُ أنّها ستهرب إلى الأسفل، حيث القرى ووديان المملكة الممنوعة. ولكي تخدعهم قرّرت أن تصعد الجبل رغم وعيها بأنّها كانت تبتعد عن هدفها، ولا وقت عندها تضيِّعُه: فمصير بِمّا والفتيات الأخريات يتعلّق بعثورها على النجدة بسرعة. أملت أن تصل إلى الأعلى مع الفجر وأن تحدّد موقعها من القمّة. عليها أن تجد طريقة للوصول إلى الوادي.

جاء صعود السفح أبطأ وأشقّ مما تصوَّرت، لأنّ العتمة التي لا يكاد يُخفّف منها القمر أضيفت إلى وعورة الأرض. فقد انزلقت وسقطت ألف مرّة. ثمّ إنّها موجوعة من خببِ الأمس حيث حملوها مثل كيس على الجواد، ومن الضربة التي تلقّتها على رأسها والرضوض التي شملت كلّ جسدها، لكنّها لم تسمح لنفسها بالتفكير بذلك. كانت تجد مشقّة في التنفّس وأذناها تدوّيان، فأدركت أنّ الأوكسجين في ذلك الارتفاع يقلّ، كما وضّحت لها كاث كولْدْ.

كانت تنمو بين الصخور شُجيرات صغيرة تختفي في الشتاء تماماً، لكنّها تُبرعِم في الصيف تحت الشمس. راحت ناديا تمسك بها كي تصعد وحين تخونها قواها تتذكّر كيف تسلّقت قمّة التِبّوي في مدينة البهائم، حتى عثرت على عش النسر حيث وجدت الماسات الثلاث الرائعة. «إذا كنتُ قد استطعتُ فعل ذلك، كذلك أستطيع أن أفعل هذا، الأصعب بكثير» كانت تقول لبوروبا، لكنّ القرد الصغير، المتشبّث بها تحت السترة، لم يُطلّ ولا حتى بأنفه.

طلع الفجر حين كان ما يزال أمامها قرابة المئتي متر للوصول إلى قمّة الجبل. كان في البداية بهاءً مغبشاً، لكنّه تحوّل خلال دقائق لوناً برتقالياً. وحين أطلّت خيوطُ الشمس الأولى على مرتفعات الهيمالايا الرهيبة تحوّلت السماء إلى سيمفونية من الألوان واصطبغت الغيومُ بالأرجوان واكتسبت بقعُ الثلج بهاءً ورديّاً.

لم تتوقّف ناديا لتتأمّل جمالَ المنظر، بل تابعت صعودَها بجهد خارق لتقف بعد قليل منتصبةً على قدميها في أعلى قمّة في ذلك الجبل، لاهثةً مستحمة بعرقها. تشعر بقلبها يوشك أن ينفجر في صدرها. افترضت أنّ باستطاعتها أن ترى تونخالا من هناك، لكنّ الهيمالايا كان ينتصب مُصْمَتاً أمام عينيها، جبالاً خلف جبال، تمتدّ إلى اللانهاية. كانت ضائعة. وحين نظرت إلى الأسفل بدا لها أنّ هناك هيئات تتحرّك في عدّة اتجاهات: إنّهم الرجال الزرق. جلست مغمومةً فوق صخرة، تصارع القنوط والتعب. كان عليها أن ترتاح كي تستعيد أنفاسها، لكنّها لا تستطيع البقاء هناك: إذا لم تعثر على مخبأٍ سرعان ما سيقبض عليها ملاحقوها.

تحرّك بوروبا تحت البَرْكة. فتحت ناديا السحَّابَ فأطلّ صديقها برأسه وعيناه الذكيتان ثابتتان عليها.

ـ لا أدري أين أذهب، يا بوروبا، فكلّ الجبال تبدو متماثلة ولا أرى درباً واحداً يمكن السير فيه. ـ قالت ناديا.

أشار الحيوان إلى الدرب الذي جاء منه.

- لا أستطيع العودة من هناك لأنّ الرجال الزرقَ سيلقون القبض عليّ؛ لكنَ أنت لا تلفت الانتباه هنا، يا بوروبا، فالقرود في هذا البلد موجودة بكثرة في كلّ مكان. أنت تستطيع العثور على الدرب الذي يقود إلى تونخالا. هيّا اذهب وابحث عن جفوار - أمرته ناديا.

رفض القرد برأسه؛ مغطياً عينيه بيديه وزاعقاً، لكنّها وضحت له أنّهما إذا لم ينفصلا لن يكون هناك أيّة إمكانية لخلاص الفتيات الأخريات ولا لنجاتهما. فمصير بِمّا والطفلات الأخريات ومصيرها هي نفسها متعلّق به. عليه أن يعثر على مساعدة وإلاّ فجميعهم سيموتون.

- أنا سأختبئ قريباً من هنا، حتى أتأكّد جيّداً من أنّهم لا يبحثون عنّي. بعدها سأجد طريقة للنزول إلى الوادي. خلال ذلك عليك أن تجري يا بوروبا. ها قد طلعت الشمس ولن يكون البرد شديداً وستستطيع أن تصل إلى المدينة قبل أن تغيب الشمس من جديد - ألحّت ناديا سانتوس.

أخيراً انفصل الحيوان عنها وانطلق مثل سهم نازلاً التلّ.

أرسلت كاتْ كولْدْ المصوّرين تيموثي بروز وجول غونثالث إلى داخل البلد ليصوّرا نباتات وحيوانات البلد لمجلة *إنترناشيونال جيوغرافيك*. كان عليهما أن يقوما بالعمل وحدهما، بينما تبقى هي في العاصمة. لم تتذكّر أنّها مرّت بمثل ذلك الضيق في حياتها كلّها، إلا عندما ضاع ألِكساندِر وناديا في أدغال الأمازون. كانت قد أكّدت لسيزَر سانتوس أنّ الرحلة إلى المملكة الممنوعة لا تنطوي على أيّ خطر. كيف ستُعلِم الأب بأنَّ ابنته اختُطِفت؟ أو تقول له إنّ ناديا في قبضة قتلة محترفين، يسرقون الطفلات ليحولونهنّ إلى عبدات.

كانت كاتْ وألِكساندر في تلك اللحظة في قاعة الاستقبال في

القصر بحضور الملك، الذي استقبلهما هذه المرّة برفقة القائد العام ورئيس وزرائه وأرفع اثنين من لاماته بعده. كذلك جوديت كينسكي كانت في القاعة.

ـ لقد استشار اللامات النجوم وأعطوا تعليماتهم للأديرة كي يقيموا الصلاة ويقدّموا القرابين من أجل الفتيات المختفيات. خرج الجنرال ميار كونغلونغ على رأس الحملة العسكرية. من المحتمل أنّك استنفرت الشرطة. أليس كذلك؟ ـ سأل الملكُ، الذي لم يعكس وجهُهُ انشغاله الرهيب.

ـ ربّما، يا صاحب الجلالة. والجنود وحرس القصر أيضاً في حالة استنفار والحدود مُراقَبة. ـ قال الجنرال بلغته الإنكليزية البائسة كي يفهم الأجانب.

ـ ربّما خرج الشعبُ أيضاً للبحث عن الطفلات. أعرف أنّه لم يحدث مثل هذا قط في بلدي. ربّما حصلنا على بعضِ الأخبار سريعاً ـ أضاف الجنرال.

ـ ربّما؟ لا تبدو لي كافية ـ صاحت كاتْ كولْدْ، لكنّها سرعان ما عضّت على شفتيها، لأنّها أدركت أنّها ارتكبت قلّة أدب رهيبة.

ـ ربّما كانت السيّدة كولْدْ متوتّرة قليلاً... ـ عبّرت جوديت كينسكي، التي يبدو أنّها تعلّمت الكلام بغموض، كما كان سليماً في مملكة التنين الذهبي.

ـ ربّما ـ قالت كاتْ، منحنية بيديها المجموعتين أمام وجهها.

ـ ترى هل من غير المناسب أن أسأل الجنرال المحترم كيف يُفكّر أن يُنظِّم البحث؟ ـ سألت جوديت كينسكي.

مضت الدقائق الخمس عشرة التالية بأسئلة الأجانب الذين كانوا يتلقون أجوبة أكثر غموضاً، إلى أن بدا لهم أنّه ما من طريقة للضغط على الملك أو الجنرال. جعل القلق كاتْ وألِكساندِر يتصبّبان عرقاً. أخيراً نهض العاهِل ولم يعد هناك من مجال غير أن يودعوه ويخرجوا متراجعين.

ـ إنّه صباح جميل، ربّما هناك عصافير كثيرة في الحديقة ـ أشارت جوديت كينسكي.

ـ ربّما ـ وافق الملك وهو يقودها إلى الخارج.

تمشّى الملكُ وجوديت كينسكي عبر الدرب الضيّق الذي كان ينزلق بين نباتات الحديقة الكبيرة، حيث كلّ شيء يبدو أنّه ينمو بطريقة برّية، لكنّ عيناً خبيرة تستطيع أن تقدّر الانسجام المدروس للمجموع. هناك في تلك الوفرة الرائعة من الأزهار والأشجار وجوقة الطيور اقترحت جوديت كينسكي أن تبدأ تجربة التوليب.

كان الملكُ يفكّر أنّه لا يستحق أن يكون الزعيم الروحي لأمّته، لأنّه يشعر بأنّه أبعد ما يكون عن أن يكون قد وصل إلى درجة الإعداد اللازم. مارس طوال حياته الابتعاد عن المسائل الدنيوية والملكيات المادّية. كان يعرف أنّه ما من شيء في العالم دائم، كلّ شيء يتبدّل، يتفكّك، يموت ويتجدَّد في أشكالٍ أخرى، وبالتالي فإنّ التمسكَ بأشياء هذا العالم غير مُجدٍ ويسبّب العذاب. طريق البوذية يقتضي قبول هذا. كان يتوهّم أحياناً أنّه أدركه، لكنّ زيارة المرأة الأجنبية أعادت إليه شكوكَه. كان يشعر بأنّه مشدود إليها وهذا ما يجعله غير معصوم. إنّه شعور لم يختبره من قبل، لأنّ الحبّ الذي شارك فيه زوجته تدفّق مثل ماء جدولٍ رقراق. كيف سيحمي مملكته إذا كان لا يستطيع أن يحمي نفسه من إغواء الحبّ؟ لا سوء في الرغبة بالحبّ والودّ مع شخص آخر، كان الملك يوسوس، لكنّه في موقعه لا يستطيع أن يسمح لنفسه بذلك، لأنّ ما تبقى له من سنوات يجب أن يُخصّص كاملاً لشعبه. لقد كسرت جوديت كينسكي تأملاته.

ـ يالها من قلادة رائعة، يا صاحب الجلالة! ـ علّقت وهي تشير إلى جوهرة يحملها على صدره.

ـ استخدمها ملوك هذا البلد منذ ألف وثمانمئة سنة ـ وضّح، وهو يخلع القلادة ويعطيها لها كي تتفحَّصها عن قرب.

ـ إنّها في غاية الجمال ـ قالت هي.

ـ المرجان القديم مثل هذا مقدَّر جدّاً بيننا لأنّه نادر. وهو موجودٌ أيضاً في التيبت. ووجوده يدلّ على احتمال أنّ الماء كان يصلُ قبل ملايين السنين حتى قمم الهيمالايا ـ وضّح الملك.

ـ ماذا يقول النقشُ؟ ـ سألت هي.

ـ إنّها كلماتٌ لبوذا: «التغيير يجب أن يكون طوعياً وليس مفروضاً».

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ جميعنا قابلون للتغيير، لكن لا أحد يستطيع أن يجبرني على ذلك. يحدث التغيير عادةً حين نواجِهُ حقيقةً مسلّماً بها، شيئاً يجبرنا على إعادة النظر بمعتقداتنا ـ قال الملك.

ـ يبدو لي غريباً أن يكونوا قد اختاروا هذه العبارة للقلادة...

ـ لقد كان هذا البلدُ دائماً تقليدياً. واجب الملوك هو الدفاعِ عن شعبهم من التغيرات التي لا ترتكز على شيء حقيقيّ ـ ردَّ الملكُ.

ـ العالم يتغيَّرُ بسرعة. وأتفهّم أنّ الطلاب هنا ينشدون هذا التغيير ـ أبدت هي.

ـ بعض الشباب تسحرهم طريقة حياة الأجانب ومنتجاتهم، لكن ليس كلّ جديدٍ جيّداً. غالبية شعبي لا ترغب بتبنّي عادات غربية.

كانا قد وصلا إلى بحيرة، فتوقّفا ليتأملا رقصة أسماك الكرب في الماء البلّوريّ.

ـ أعتقد، على المستوى الشخصيّ، أن نقش القلادة يعني أنّ كلّ كائن بشري يمكن أن يتغيّر. هل تعتقدون، يا صاحب الجلالة، أنّ

شخصية مكوّنة يمكن أن تتبدّل؟ مثلاً أن يُصبح عاميٌّ بطلاً، أو مجرم قديّساً؟ ـ سألت جوديت كينسكي، معيدةً إليه الجوهرة.

ـ إذا لم يتغيّر الشخصُ في هذه الحياة، ربّما سيضطرّ لأن يعود ليفعل ذلك في طورٍ تناسخيّ آخر ـ ابتسم الملكُ.

ـ لكلّ شخص كارماه. وربّما كارما شخص شرير لا تستطيع أن تتغيّر ـ ارتأت هي.

ـ ربّما كارما هذا الشخص هي العثور على حقيقة تجبره على التغيّر ـ ردَّ الملك، ملاحظاً، بفضول، أنّ عيني ضيفته العسليّتين رطبتان.

مرّا بمكان معزول من الحديقة، اختفت فيها الأزهار الوفيرة. كان فناءً بسيطاً من رمل وصخور، حيث يرسم راهب عجوز طاعن في السن رسماً بمجرفة. وضّح الملك لجوديت أنّه نسخ الفكرة عن بعض حدائق أديرةِ زِنْ التي زارها في اليابان. عبرا بعد ذلك جسراً خشبيّاً منقوشاً. كان جريُ النهر فوق الحجارة يصدر صوتاً موسيقياً. وصلا إلى معبدٍ (باغودا) يمارسون فيه طقس الشاي وينتظرهم راهب آخر، حيّاهما بانحناءة. تابعا حديثهما بينما راحت جوديت تخلع نعلها.

ـ لا أريد أن أكون قليلة أدب، يا صاحب الجلالة، لكنّني أعتقد أنّ اختفاء الفتيات لا بدّ يشكّل ضربة قاسية بالنسبة إلى الأمّة... ـ قالت جوديت.

ـ ربّما... ـ ردّ العاهِل ورأت هي أنّه يبدّل لأوّل مرّة تعبيره وأنّ شقّاً عميقاً يخترق ما بين حاجبيه.

ـ أما من شيء يمكن فعله؟ أعني شيئاً أكثر من العمل العسكريّ...

ـ ماذا تريدين أن تقولي، يا آنسة كينسكي؟

ـ من فضلكم، يا صاحب الجلالة، نادِني جوديت.

ـ جوديت اسم جميل. من المؤسف أنّه ما من أحدٍ يناديني باسمي. أخاف أن يكون هذا بطلبٍ من المراسم.

ـ في مناسبة بمثل هذه الخطورة، ربّما كان التنين الذهبي ذا فائدة كبرى، هذا إذا كانت أسطورة قواه السحرية صحيحة ـ ارتأت هي.

ـ التنين الذهبي لا يستشار إلاّ في مسائل تتعلّق برغد هذه المملكة وأمنها، يا جوديت.

ـ اعذرني على جرأتي، يا صاحب الجلالة، لكن ربّما كانت هذه هي إحدى هذه المسائل. إذا اختفى مواطنوك فهذا يعني أنّهم لا يتمتعون بالرغد والمن... ـ ألحّت هي.

ـ ربّما كنتِ على حقّ ـ اعترف الملكُ، مطأطأ الرأس.

دخلا المعبد وجلسا على الأرض مقابل الراهب. كانت تسود ظلال في الغرفة الخشبية الدائرية، التي لا تكاد تُضيئها بعض الجمرات التي يُغلى عليها الماء في إناء حديدي قديم. مكثا يتأمّلان بصمت، بينما الراهب يحضّر، خطوة فخطوة، الاحتفال الطويل والبطيء الذي يقوم ببساطة على تقديم الشاي الأخضر والمرّ في وعائين من الفخّار.

10

النسر الأبيض

اتصل المُتخصِّص بالمُقتني عبر الوكيل، حسب طريقته المعتادة. صادف أنّ الرسول كان هذه المرَّة يابانيّاً، طلب مقابلةَ ثاني أغنى رجلٍ في العالم ليناقش معه الاستراتيجيّة التجارية في أسواق الذهب في آسيا.

كان المُقتني قد اشترى في ذلك اليوم من جاسوسٍ شيفرة أرشيفات البنتاغون السرّية للغاية. فأرشيفات حكومة الولايات المتحدة العسكرية يمكن أن تفيده لمصالحه التسلحية. كان من صالح المستثمرين من أمثاله أن تقوم صراعات في العالم؛ فالسلام لا يناسبهم. كان قد قدّر نسبة البشرية الدقيقة التي يجب أن تبقى في حالة حرب لإنعاش سوق الأسلحة. فإذا كانت النسبة أدنى خسر مالاً وإذا كانت أعلى أصبحت قيمة الأسهم متقلّبة والخطر أكبر. من حسن حظّه أنّ إثارة الحروب كانت سهلة وإن لم يكن من السهل إنهاؤها.

حين أعلمه مساعده بأنّ مجهولاً يطلب مقابلة مستعجلة قدّر أنّه يجب أن يكون رسول المُتخصِّص. كلمتان منحتاه المفتاح: الذهب وآسيا. أيّام عدّة مرّت وهو ينتظره بقلق واستقبله على الفور. توجّه العميل إلى الزبون بإنكليزية صحيحة. أناقة ثيابه وآدابه التامة مرّت دون أن تلفت أبداً انتباه المُقتني، الذي لم يكن يتميّز بأيّ نوع من التهذيب.

ـ لقد تحقّق المُتخصِّص من هويّة الشخصين الوحيدين اللذين يعرفان تماماً عمل التمثال الذي يهمّك. الملك ووليّ العهد، الفتى الذي لم يره أحدٌ منذ أن كان في الخامسة أو السادسة من عمره ـ أعلمه.

ـ لماذا؟

ـ لأنّه يتلقّى تعليمه في مكان سرّي. جميعُ ملوك المملكة الممنوعة يمرّون في طفولتهم وشبابهم بذلك. يُسلِّم الأبوان الطفلَ للاما ليُعدّه للحكم. من بين الأشياء الأخرى التي يتعلّمها على الأمير أن يتعلّم رموز التنين الذهبي.

ـ إذن هذا اللاما، أو ما لا أدري ما اسمه، يعرف بدوره المفتاح.

ـ لا. هو مجرّد معلّم خاص أو دليل. لا أحد يعرف المفتاحِ كاملاً غير الملك وولي العهد. فالشيفرة مقسّمة إلى أربعة أقسام وكلّ قسم موجود في دير مختلف. المعلّم يقود الأمير في رحلة إلى هذه الأديرة. تدوم الرحلةُ اثني عشر عاماً يتعلّم خلالها الشيفرة كاملة ـ وضّح العميل.

ـ وكم عمر هذا الأمير؟

ـ قرابة الثمانية عشر عاماً. تربيته على وشك الانتهاء، لكنّنا لسنا واثقين من أنّه يعرف فكّها بعد.

ـ وأين هذا الأمير الآن؟ ـ قلق المُقتني.

ـ نعتقد أنّه في صومعة سرّية في قمم الهيمالايا.

ـ حسن، وماذا تنتظر؟ جئني به.

ـ لن يكون هذا سهلاً. سبق وقلت لك إنّ مكانه غير معروف بدقة؛ وليس من الأكيد أنّه يملك المعلومات التي تحتاجها.

ـ تحقّق من ذلك، فلأجل ذلك أنا ادفع لك يا رجل! وإذا لم تعثر عليه ارشِ الملك.

ـ كيف؟

ـ الملوك الدعاسيق لهذه البلاد التافهة جميعهم فاسدون. اعرض عليه ما يريد: مال، نساء، سيارات، ما يريد ـ قال الملياردير.

ـ ما من شيء مما تملك يمكن أن يغوي هذا الملك. لا تهمّه الأمور المادّية ـ ردّ العميل الياباني، دون أن يخفي الاحتقار الذي يشعر به تجاه الزبون.

ـ والقوّة؟ القنابل الذرّية مثلاً؟

ـ لا، على الإطلاق.

ـ إذن اخطفه، عذّبه، اعمل ما هو ضروري كي تنتزع منه السرّ!

ـ في حالته، لا عمل للتعذيب. يموت ولا يقول شيئاً. لقد مارس الصينيون هذه الطرق مع لامات التيبت ونادراً ما أعطت نتيجة. فهؤلاء الناس مدرّبون على فصل الجسد عن الروح ـ قال رسول المُتخصّص.

ـ وكيف يفعلون ذلك؟

ـ لنقل إنّهم يصعدون إلى مستوى عقلي أعلى. تنفصل فيه الروح عن المادّة الملموسة، هل تفهم؟

ـ روح؟ هل تؤمن بذلك؟ ـ سخر المُقتني.

ـ لا يهمّ ما أومن به. المسألة أنّهم يفعلون ذلك.

ـ هل تعني أنّهم مثل فقراء السيرك، الذين لا يأكلون خلال أشهر، وينامون على فرش من مسامير؟

ـ أنا أتكلّم عن شيء أكثر غموضاً من هذا بكثير. هناك بعض اللامات الذين يستطيعون أن يبقوا منفصلين عن جسدهم الوقتَ الذي يرغبون.

ـ و؟

ـ يعني أنّهم لا يشعرون بالألم. بل ويستطيعون أن يموتوا

بإرادتهم. ببساطة يكفّون عن التنفّس. من غير المجدي تعذيب مثل هذا الشخص ـ وضّح العميلُ.

ـ ومصل الحقيقة؟

ـ لا عمل للمخدرات لأنّ العقل في مستوى آخر، مفصولٌ عن الدماغ.

ـ وهل تريد أن تقول لي إنّ ملك هذا البلد قادر على فعل هذا؟ ـ زمجر المُقتني.

ـ لا نعرف بيقين، لكن إذا كان التدريب الذي تلقاه في شبابه تاماً فهذا تماماً ما أريدُ قوله.

ـ لا بدّ أنّ عند هذا الرجل نقطة ضعف ما! ـ صاح المُقتني، ذارعاً الغرفة مثل حيوانٍ ضارٍ.

ـ قليل هو ما عنده منها، لكنّنا سنبحث عنها ـ ختم العميل، واضعاً على الطاولة بطاقة كتب عليها بالحبر البنفسجيّ رقماً بملايين الدولارات كلفة العملية.

كان رقماً عالياً إلى حدٍّ لا يُصدَّق، لكنّ المُقتني قدّر أنّ الأمر لا يتعلّق بعمليّة اختطافٍ عاديّة، وأنّه يستطيع في جميع الأحوال أن يدفعها. فحين يُصبح التنين الذهبيُّ بين يديه ويستطيع أن يتحكَّمَ بسوق الأسهم في العالم سيستعيد استثماراته مضروبةً بألف.

ـ حسن، لكنّني لا أريد أيَّ نوعٍ من المشاكل، يجب العمل بحذرٍ، وألا يُثار حادث دولي. شيء أساسيّ ألا يربطني أحد بهذه المسألة لأنّ سمعتي ستُدمّر. أنتم ستأخذون على عاتقكم الكلام مع الملك حتى ولو اضطرَّ الأمرُ لنسف هذا البلد وتحطيمه إلى شظايا، هل فهمتني؟ لا تهمُّني التفاصيلُ.

ـ سريعاً ستتلقى الأخبار ـ قال الزائرُ ناهضاً ومختفياً بصمت.

بدا للمُقتني أنّ العميل تبخّر في الهواء. أخذته رعشة. محزن أن

يُضطرّ للعمل إلى هذا الحدّ مع ناسٍ بهذا الحجم من الخطورة. ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يشكو: فالمتخصِّص كان محترفاً من الطراز الأوّل، ولولاه ما كان باستطاعته أن يُصبح أغنى رجلٍ في تاريخ البشرية، أكثر من الفراعنة المصريين والأباطرة الرومان.

كانت شمسُ الصباح تتلألأ في الهيمالايا، والمعلّم تِنسينغ قد أنهى تأمّله وصلواته. اغتسل بالبطء والدقّة اللذين يُميِّزان كلّ حركاته، من خيطٍ من الماء يسقط من الجبال وراح يُحَضِّر نفسه لوجبته اليومية الوحيدة. كان تلميذه الأمير ديل باهادور قد غلى الماءَ بالشاي والملح وزبدة الياك. ترك قسماً منها في قرعة ليشربا منها طوال اليوم وخلط القسم الآخر بطحين الشعير المحمَّص ليصنع التسامبّا. يحملُ كلّ منهما حصّته في كيس صغير بين طيات دثاره.

كان ديل باهادور قد غلى أيضاً قليلاً من النباتات التي يزرعانها بكثير من الجهد في تربة فقيرة في مصطبة طبيعية في الجبل، بعيداً كفايةً عن الصومعة التي يعيشان فيها. وكان على الأمير أن يسير عدّة ساعاتٍ للحصول على رزمة من الأوراق الخضراء أو الأعشاب للطعام.

- أرى أنّك تعرج يا ديل باهادور - أبدى المعلِّم.

- لا، لا...

غرز المُعلِّم نظره فيه، فتلقّى التلميذُ شرارة دعابة من بؤبؤيه.

- سقطتُ - اعترفَ كاشفاً عن خدوشٍ ورضوض في ساقه.

- كيف؟

- غفلتُ. أنا آسِف يا مُعلِّمي - قال الشابُ منحنياً بعمق.

- مروِّض الفيلة يحتاج إلى خمس فضائل يا ديل باهادور: الصحة الجيدّة، الثقة، الصبر، الصراحة والحكمة - قال اللاما مُبتَسِماً.

ـ نسيتُ الفضائل الخمس. في هذه اللحظة تخونني الصحّة لأنّني فقدت الثقة عند الوطء. وفقدت الثقة لأنّني كنت مستعجلاً ولم أصبر. وعندما أنكرتُ عليكِ أنّني أعرج فقدت الصراحة. باختصار أنا بعيد عن الحكمة يا مُعلّمي.

راحا يضحكان بفرح. اتجه اللاما إلى صندوق خشبيّ، أخرج منه وعاء خزفياً فيه مرهم ضارب إلى الخضرة وفرك به ساقَ الشابّ.

ـ يا مُعلّمي أعتقد أنّك أدركتَ الاستنارة، لكنّك بقيت على هذه الأرض فقط كي تُعلِّمني ـ تنهّد ديل باهادور فضرب اللاما على رأسه بالوعاء الخزفيّ ردّاً وحيداً.

استعدّا لطقس الشكرِ القصير الذي كانا يقومان به دائماً قبل الطعام، جلسا بعدها في وضعية زهرة اللوتس على قمّة الجبل. بين لقمة وأخرى يمضغانها ببطء يتأمّلان المنظرَ بصمت، لأنّهما لا يتكلّمان أثناء الطعام. كانت نظرتهما تضيع في سلسلة القمم الرائعة المغطاة بالثلج التي تنتشر أمامهما. وكانت السماء قد أحرزت لوناً أزرق كوبالتياً عميقاً.

ـ ستكون هذه الليلة شديدة البرودة ـ لاحظ المعلّم.

ـ أعرف: هنا والآن. علينا أن نُسعد بجمال هذا الجبل بدل أن نُفكِّر بالعاصفة القادمة... ـ رتّل الطالبُ بنبرة ساخرة خفيفة.

ـ حسن، يا ديل باهادور.

ـ ربّما ليس كثيراً ما ينقصني تعلّمه ـ ابتسم الشاب.

ـ تقريباً لا شيء، مجرّد قليل من التواضع ـ ردّ اللاما.

في تلك اللحظة ظهر في السماء طائر، حام راسماً دوائر كبيرة، ناشراً جناحيه الهائلين ثمّ اختفى.

ـ ماذا كان هذا الطائر ـ سأل اللاما ناهضاً على قدميه.

ـ يبدو نسراً أبيضَ ـ قال الشاب.

ـ لم أره قط في هذه المنطقة.

ـ منذ زمنٍ طويل وأنت تراقب الطبيعة. ربّما أنت تعرف كلَّ طيور وحيوانات المنطقة.

ـ سيكون عجرفة لا تُغتفر لي لو ادعيتُ أنّني أعرف كلّ ما يعيش في هذه الجبال، لكنّني حقيقة لم أرَ قط نسراً أبيض ـ ردَّ اللاما.

ـ عليّ أن اهتمّ بدروسي يا مُعلِّمي ـ قال الأميرُ، وهو يجمع القصعات وينسحب إلى الصومعة.

على رأس الجبل، وفي دائرة منقشعة، راح تِنسينغ وديل باهادور يمارسان التاو ـ شو وهي رياضة مركّبة من عدّة فنون قتالية ابتدعها رهبان دير تشينتان دزونغ المحصّن والبعيد. انتشر الناجون من الزلزال الذي دمّر الدير في آسيا ليعلّموا فنَّهم. يعلّمُ كلّ واحدٍ منهم شخصاً واحداً يختاره لقدرته الجسدية وكماله الأخلاقي. هكذا كانت تنتقل المعارفُ. لم يكن العدد الكلّي للمُحاربين الخبراء بالتاو ـ شو يتجاوز الاثني عشر في كلّ جيل. وكان تِنسينغ واحداً منهم والتلميذ الذي اختاره ليحلَّ محلّه هو ديل باهادور.

كانت الأرض الصخرية غدّارة في ذلك العصر لأنّ الفجر يطلع على صقيع يجعل الأرض زلقة. كانت التمارين في الخريف والشتاء تبدو لديل باهادور أمتع، لأنّ الثلج الطريّ يُخفّف السقطات. كما كان يحبّ هواء الشتاء، فتحمّل البرد يشكل جزءاً من التدريب القاسي الذي يُخضعه إليه المُعلِّم، كالمشي حافياً دائماً تقريباً، والأكل القليل جدّاً والمكوث ساعاتٍ وساعاتٍ متأمِّلاً دون حراك. في تلك الظهيرة كانت هناك شمس ولا تجري ريح لتبرِّده، تؤلمه ساقه المرضوضة وفي كلّ دحرجة ساء تنفيذها يحطّ على الحجارة، لكنّه لا يطلب هدنة. لم يسمعه مُعلِّمه يئنُّ قط.

كان الأميرُ النحيلُ بقامته المتوسّطة يتناقض مع ضخامة تِنسينغ، الذي جاء من منطقة التيبت الشرقية، حيث الناس طوال جدّاً. كان طول اللاما مترين وأمضى حياته مكرِّساً نفسه للتمارين الروحية والتمارين الرياضية. كان عملاقاً له عضلات حامل أثقال.

ـ عفواً إذا كنت فظّاً أكثر من اللازم يا ديل باهادور. من المحتمل أنّني كنتُ في حيوات أخرى محارباً قاسياً ـ قال تِنسينغ بنبرة اعتذارٍ في المرّة الخامسة التي أطاح فيها بتلميذه.

ـ ربّما كنتُ في حيوات أخرى فتاة هشّة ـ ردّ ديل باهادور، لاهثاً، مسحوقاً على الأرض.

ـ ربّما كان من الملائم ألاّ تُحاول السيطرة على جسدك بعقلك. عليك أن تكون مثل نمر الهيمالايا، غريزة خالصة وعزماً ـ اقترح اللاما.

ـ ربّما لن أصبح أبداً قويّاً مثل معلِّمي المحترم ـ قال الشابُّ، ناهضاً على قدميه ببعض الصعوبة.

ـ العاصفة تقتلع من الأرض السنديانة القويّة لكنّها لا تقتلع الخيزران لأنّه ينحني. لا تُقدِّر قوّتي بل نقاطَ ضعفي.

ـ ربّما ليس عند مُعلّمي نقاط ضعفٍ ـ ابتسم ديل باهادور، متخذاً وضعية الدفاع.

ـ قوّتي هي أيضاً ضعفي يا ديل باهادور. عليك أن تستخدمها ضدّي.

بعد ثوانٍ راحت مئة وخمسون كيلوغراماً من العضلات والعظام تطير في الهواء باتجاه الأمير. ومع ذلك فقد خرج ديل باهادور هذه المرّة لملاقاة الكتلة التي راحت تسقط فوقه برشاقة راقص. في اللحظة التي التقى فيها الجسدان قام بدورة خفيفة نحو اليسار، متفادياً ثقل تِنسينغ، الذي سقط على الأرض وراح يتدحرج بمهارة على كتفٍ وجانب. وعلى الفور نهض على قدميه بقفزة رهيبة وعاد

للهجوم. كان ديل باهادور بانتظاره. وعلى الرغم من ضخامة اللاما فإنّه ارتفع مثل هرّ راسماً قوساً في الهواء، لكنّه لم يتمكّن من لمس الشاب، لأنّه في الوقت الذي انطلقت فيها ساقه برفسة مريعة لم يعد ذاك هناك ليتلقاها. في جزء من الثانية صار ديل باهادور خلف خصمه، وضربه ضربة جافّة خفيفة على نقرته. تلك كانت خطوة من خطوات التاو ـ شو التي تستطيع أن تشلّ بل وتقتل الخصم، لكنّ القوّة كانت محسوبة كي ترميه دون أن تؤذيه.

ـ ربّما كان ديل باهادور فتاة مقاتلة في الحيوات الماضية ـ قال تِنسينغ، ناهضاً على قدميه، وهو في غاية الرضا، محيّياً تلميذه بانحناءة كبيرة.

ـ ربّما نسي معلّمي المحترم فضائل الخيزران ـ ابتسم الشابّ، محيّياً بدوره.

في هذه الأثناء سقط ظلّ على الأرض ورفعا نظريهما: كان يُحلّق فوق رأسيهما الطائر الأبيضُ ذاته الذي رأياه قبل ساعاتٍ يرسم دوائر.

ـ ألا تلاحظ شيئاً غريباً في هذا الطائر؟ ـ سأل اللاما.

ـ ربّما خانني نظري، يا مُعلّمي، لكنّني لا أرى هالته.

ـ ولا أنا...

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ استفسر الشابّ.

ـ قلْ لي أنت ماذا يعني، يا ديل باهادور.

ـ إذا لم نستطع أن نراها فربّما لأنّه ليس له هالة يا مُعلّمي.

ـ هذا استنتاج حكيم جدّاً ـ سخر اللاما.

ـ كيف يمكن ألا تكون له هالة؟

ـ ربّما كانت إسقاطاً عقليّاً ـ ارتأى تِنسينغ.

- سنحاول التواصل معه - قال ديل باهادور.

أغمضا عيونهما وفتحا عقليهما وقلبيهما كي يتلقيا طاقة الطائر الجبّار الذي يحوم فوق رأسيهما. مكثا هكذا عدّة دقائق. كان حضور الطائر من القوّة بحيث أنّهما شعرا باهتزازاته في جلديهما.

- هل يقول لك شيئاً، يا مُعلّمي؟

- فقط أشعر بضيقه وارتباكه. لا أستطيع فكّ رموز رسالته. وأنت؟

- وأنا أيضاً.

- لا أدري ماذا يعني هذا يا ديل باهادور، لكن هناك سبباً يدفع الطائر للبحث عنّا - خلُص تِنسينغ، الذي لم يمرّ قط بتجربة مثل تلك فبدا مرتبكاً.

11

الجغوار الطوطم

ساد الارتباك مدينةَ تونخالا. استنطقت الشرطةُ نصفَ الشعب، بينما انطلقت دوريات الجيش إلى داخل البلد في سيارات جيب وبعضها على الجياد، لأنّه ما من مركبة بعجلات تستطيع أن تُغامر في دروب الجبال الشاقولية. رهبان يحملون تقدمات من أزهار ورزّ وبخور يتجمعون أمام التماثيل الدينية. أبواق تُسمَع في المعابد وراياتُ صلاة تُرَفرف في كلٍّ مكان. التلفزيون ينقل طوال النهار لأوّل مرّة منذ إنشائه الخبر ذاته، يُكرِّر ألف مرّة صور الفتيات المختفيات ويُظهرها. بيوت الضحايا لا تتسع لإبرة: أصدقاء وأقارب وجيران راحوا يَصلون ليقدّموا مواساتهم، حاملين معهم الطعام والصلوات المكتوبة على الورق الذي يحرقونه أمام التماثيل الدينية.

استطاعت كاتْ كولدْ الاتصال هاتفياً بالسفارة الأمريكية في الهند، لتطلب المساعدة لكنّها لم تكن تثق بأنّ هذه ستصل بالسرعة الضرورية، هذا إذا وصلت. قال لها الموظّف الذي ردّ عليها إنّ المملكة الممنوعة ليست ضمن صلاحياته، كما أنّ ناديا سانتوس ليست مواطنة أمريكية، بل برازيلية. وأمام ذلك قرَّرت الكاتبةُ أن تتحوَّل إلى ظلٍّ للجنرال ميار كونغلونغ؛ الذي يملك تحت تصرّفه

الوسائل العسكرية الوحيدة الموجودة في البلد. لم تكن لتسمح له بأن يغفل ولو للحظة واحدة. خلعت بشدّة واحدة الساورنغ الذي ارتدته في تلك الأيام، وارتدت ملابس المستكشفة المعتادة، وركبت سيّارةَ جيب الجنرال، دون أن يستطيع أحد أن يثنيها عن ذلك.

ـ أنت وأنا سنقوم بالحملة ـ أعلنت للجنرال المفاجَأ الذي لم يفهم كلّ كلمات الكاتبة، لكنّه فهم مقاصدها.

ـ أنتَ تبقى في تونخالا، يا ألِكساندر، لأنّ ناديا ستتصل بك إن هي استطاعت. اهتف مرّةً أخرى للسفارة في الهند ـ أمرت حفيدَها.

أن ينتظر ألِكسْ مكتوفَ الأيدي كان بالنسبة إليه أمراً غير مُحتمَل، لكنّه أدرك أنّ جدّته على حقّ. ذهب إلى الفندق حيث يوجد هاتف وتمكّن من التكلّم مع السفير، الذي كان ألطف قليلاً من الموظّف السابق، لكنّه لم يستطع أن يعده بشيء محدّد. أيضاً تكلّم مع مجلة *إنترناشيونال جيوغرافيك* في واشنطن. وبينما راح ينتظر وضعَ لائحةً بكلّ المعلومات المتوافرة، حتى التافه منها، التي يمكن أن تقوده إلى أثر.

حين فكّر بنسر ارتعشت يداه. لماذا اختارتها طائفةُ العقرب بالذات؟ لماذا غامروا واختطفوا أجنبية، الأمر الذي سيثير حادثاً دولياً؟ ماذا يعني وجود تِكس أرماديّو وسط الاحتفال؟ ولماذا كان الأمريكي مقنّعاً؟ هل كان الرجال الذين يضعون أقنعة ملتحية محاربين زرقاً كما اعتقدت نسر؟ هذه الأسئلة وألف سؤال غيرها تزاحمت في عقله، زائدة من خيبته.

خطر له أنّه قد يستطيع، إن هو عثر على تِكسْ أرماديّو، أن يمسك برأس خيطٍ يقوده إلى ناديا، لكنّه لم يكن يعرف من أين يبدأ. راجعَ، باحثاً عن مفتاحٍ ما، بحذرٍ كلّ كلمة تبادلها مع ذلك الرجل، أو تمكنّ من سماعها حين تبعه إلى أقبية الحصن الأحمر في الهند. سجّل في دفتر ملاحظاته استنتاجاته:

ـ تكسُ أرماديّو وطائفة العقرب على علاقة فيما بينهم.

ـ تِكسُ أرماديّو لا يكسب شيئاً من اختطاف الفتيات. ليست هذه مهمّته.

ـ ربّما تعلّق الأمر بتجارة المخدرات.

ـ اختطاف الفتيات لا ينسجم مع عملية تجارة مخدِّرات لأنّها تلفت الانتباه أكثر من اللازم.

ـ لم يختطف المحاربون الزرق حتى تلك اللحظة فتيات أحد من المملكة الممنوعة. لا بدّ أنّ هناك سبباً قاهراً دفعهم لذلك.

ـ والسبب يمكن أن يكون تماماً أنّهم يرغبون بلفت انتباه الشرطة والقوات المسلحة ويلهونهم.

ـ إذا كانت هذه هي المسألة فإنّ هدفهم سيكون آخر. ما هو؟ من أين سيهجمون؟

خلص ألِكساندر إلى أنّ ملاحظاته لا توضّح الأمرَ كثيراً: كان يدور في حلقات مفرغة.

تلقّى عند الساعة الثانية ظهراً مكالمةً هاتفيةً من جدَّته كاتْ، التي كانت في ضيعة على بعد ساعتين من العاصمة. كان جنود الجنرال ميار كونغلونغ قد احتلوا كلّ القرى وفتشوا المعابد والأديرة والبيوت بحثاً عن الجناة. لم تكن هناك أخبار جديدة، لكن مما لم يعد يقبل الشكّ أنّ الرجال الزرق موجودون في البلد. عدّة فلاحين رأوا عن بعد فرساناً يرتدون السواد.

ـ لماذا يبحثون هناك؟ من المفروغ منه أنّهم لا يختبئون في تلك الأماكن! ـ هتف ألِكساندر.

ـ نحن نجري وراء أيّ أثر يا بُني. هناك أيضاً جنود يقتفون الآثار في الهضاب ـ وضّحت كات.

تذكّر الشابّ أنّه سمع أنّ طائفة العقرب تعرف كلّ دروب الهيمالايا. من المنطقيّ أن يختبئ الرجال في أعصى المناطق.

قرَّر الفتى أنَّه لا يستطيع أن يبقى منتظراً في الفندق. «لأمرٍ ما أُدعى أَلِكساندر، الذي يعني حامي الرجال»، تمتم متأكِّداً من أنَّ اسمه يتضمن حماية النساء أيضاً. ارتدى البَركة وجزمته الخاصّة بالجبال العالية، ذاتها التي كان يستخدمها لتسلّق الصخور مع أبيه في كاليفورنيا؛ عدَّ نقوده وانطلق يبحث عن جواد.

كان يخرج من الفندق حين رأى بوروبا مستلقياً على الأرض بالقرب من الباب، انحنى ليأخذه بصرخة اخترقت صدره لأنّه ظنَّه ميتاً، لكنّه ما إن لمسه حتى فتح الحيوانُ عينيه. حمله بين ذراعيه، مداعباً وناطقاً باسمه، إلى المطبخ، حيث حصل على فاكهة لإطعامه. كان على فمه زبد وعيناه حمراوين، وهناك خدوش تغطيّ جسده، وجروح دامية في يديه وساقيه. بدا مُنهكاً لكنّه لم يكد يأكل موزةً ويشرب ماءً حتى استعاد حيويته.

- هل تعلم أين ناديا؟ - سأله بينما راح ينظّف له جروحه لكنّه لم يستطع أن يفكّ رموز حركات القرد.

حزن أَلِكس لأنّه لم يتعلّم التواصل مع بوروبا. مَلَك فرصة لذلك، حين قضى ثلاثة أسابيع في الأمازون، وعرضت عليه ناديا مرّات كثيرة أن تعلّمه لغة القرود، التي تتألّف من عدد قليلٍ جدّاً من الأصوات ويستطيع أيّ شخص أن يتعلّمها. ومع ذلك لم يبدُ له ذلك ضرورياً، فكّر أنّه في جميع الأحوال لم يكن عنده الكثير مما يتبادله مع بوروبا، ثمَّ إنّ ناديا موجودة دائماً كي تترجم له. المسألة الآن هي أنّ الحيوان يملك دون شكّ أهمَّ أخبار العالم بالنسبة إليه.

بدّل مدَخِرةَ المصباح ووضعه في حقيبة ظهره بجانب معدات التسلق. كانت المعدات ثقيلة، لكنّ نظرة واحدة إلى الجبال المحيطة بالمدينة كانت تكفي كي يدرك ضرورتها. حضّر عصرونيةً من الفاكهة والخبز والجبن، ثمّ طلب حصاناً استعاره من الفندق ذاته، حيث كان فيه عدد منها جاهزاً، بصفته الوسيلة الأكثر استخداماً في

البلد. لقد ركب الحصان حين كان يذهب مع أسرته إلى مزرعة جدّيه لأمّه في الصيف، لكنّ الأرض هناك منبسطة. وافترض أنّ الجواد يملك الخبرة التي تنقصه لصعود التلال شديدة الانحدار. وضع بوروبا بشكل مريح في سترته، تاركاً رأسه وذراعيه فقط في الخارج وانطلق يخبّ بالاتجاه الذي أشار إليه هذا.

حين بدأ النورُ يخفّ ودرجةُ الحرارة تهبطُ أدركت ناديا أنّ وضعها أصبح حرجاً. بعد أن أرسلت بوروبا ليبحث لها عن نجدة، بقيت تراقب من فوق السفح الوعر الممتدّ في الأسفل. كان الغطاء النباتي الوارف الذي ينمو في وديان المملكة الممنوعة وتلالها تخفّ كثافته كلّما صعد المرء حتى يختفي تماماً في قمم الجبال. وهذا ما سمح لها بأن ترى، وإن لم يكن بوضوح، حركةَ الرجال الزرق الذين خرجوا للبحث عنها ما إن تأكّدوا من أنّها هربت. هبط واحدٌ منهم إلى حيث تركوا الخيول، لا شكّ كي يعلم بقيّة المجموعة بالأمر. لم تشكّ ناديا بأنّ هناك عدداً آخر منهم وذلك بالحكم من كمية المؤن والخيول التي رأتها، وإن كان من المحال تقدير عددهم.

طاف بقية المحاربين في محيط الكهف، حيث الفتيات المخطوفات تحت حماية المرأة ذات الندبة. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى خطر لهم أن يفتشوا القمّة. انتبهت ناديا إلى أنّها لا تستطيع أن تبقى في ذلك المكان، لأنّ ملاحقيها لن يتأخّروا في تعقّب آثارها. ألقت نظرة حولها ولم تستطع أن تكبح صيحة ضيق. صحيح أنّ هناك أماكن كثيرة يمكن أن تختبئ فيها، لكن من الصحيح أيضاً ومن السهل جدّاً أن تضيع، أخيراً اختارت هوّة سحيقة مثل جرف في الجبل إلى الغرب من المكان الذي كانت فيه. بدا واضحاً أنها تستطيع أن تختبئ في تعرجَات الأرض وإن لم تكن واثقة من أنّها تستطيع أن تخرج بعد ذلك.

إذا لم يعثر عليها الرجال الزرق فكذلك حال جغوار. توسّلت لله ألاّ يأتي وحده، لأنّه لن يستطيع أبداً أن يُواجه محاربي العقرب دون مساعدة. ونظراً لمعرفتها بطبيعة صديقها المستقلّة، وكيف يضطرب من الطريقة المتردّدة في كلام وسلوك سكّان المملكة الممنوعة، خافت ألاّ يطلب مساعدة.

حين رأت عدّة رجال يصعدون اضطرّت لأن تتخذ حلاً. بدا منظر الجرف المقطوع في الجبل، الذي اختارته كي تختبئ، من الأعلى، أقلّ عمقاً مما هو في الواقع، كما استطاعت أن تتأكّد ما إن بدأت تهبط. لم تكن تملك تجربة في هذه الأرض وتخاف المرتفعات، لكنّها تذكّرت كيف اضطرت لأن تتسلّق السفوح شديدة الانحدار في الأمازون، متبعة الهنود، فتشجّعت. طبعاً في تلك المناسبة كانت مع ألِكساندر بينما هي الآن وحيدة.

لم تكد تهبط مترين أو ثلاثة أمتار، ملتصقةً مثل ذبابة بالجدار الصخري الشاقولي، حتى انخلع الجذر الذي تمسك به بينما هي تبحث بقدمها عن موضع له. فقدت توازنها، حاولت أن تمسك بشيء، لكن كانت هناك بقع من جليد. انزلقت وتدحرجت إلى القاع دون حيلة منها. سيطر عليها الرعب لثوانٍ، واثقةً من أنّها ستموت، لذلك جاءت مفاجأة لا تصدّق حين سقطت فوق دغل، امتصّ ارتطام جسدها بمعجزة. أرادت أن تتحرّك مرضوضة ومليئة بالجراح والخدوش، لكنّ ألماً حادّاً انتزع منها صرخة. رأت مذعورةً ذراعها اليسرى متدلية بزاوية غير طبيعية. لقد انخلع كتفها.

لم تشعر في الدقائق الأولى بشيء. كان جسدها فاقد الحس، لكن سرعان ما زادت حدّة الألم وظنّت أنّه سيُغشى عليها. كان الألم يزداد سوءاً عندما تتحرّك. بذلت جهداً عقلياً كي تبقى مستنفرة وتقيّم الوضع فقرّرت: لا تستطيع السماح لنفسها بأن تفقد وعيها.

ما إن استطاعت أن تهدأ قليلاً حتى رفعت عينيها فوجدت

نفسها محاطة بالصخور المقطوعة كما لو بالمعاول، لكن فوقها كان السلامُ المطلق لسماء زرقاء صافية؛ بدت كأنها مرسومة. استدعت لمساعدتها حيوانها الطوطمي، وتمكّنت بجهد نفسيّ كبير من التحولِ إلى النسر الجبّار والطيرانِ خارج الفجّ حيث هي محاصرة، وفوق الجبال. كان الهواء يحمل جناحيها الكبيرين بينما هي تنتقل بصمت في الأعالي، تُراقبُ من الأعلى مشهد القمم المغطاة بالثلوج وفي الأسفل السحيق الخضرة الكثيفة لذلك البلد الجميل.

راحت ناديا تستحضرُ في الساعات التالية النسرَ كلّما شعرت بالقنوط يهزمها. وفي كلّ مرّة كان الطائرُ الكبير يحمل الراحة إلى روحها.

استطاعت أن تتحرّك شيئاً فشيئاً، ساندة ذراعها المخلوعة باليد الأخرى حتى تمكّنت من أن تقف تحت الدغل. حسناً فعلت فقد وصل المحاربون الزرقُ إلى القمّة، التي كانت فوقها من قبل، وفتّشوا محيطها. حاول واحد منهم أن يهبط إلى الهوّة، لكنّها كانت شديدة الانحدار، وافترض أنه إذا كان هو نفسه لا يستطيع ذلك فلن تستطيعه الهاربة.

سمعت ناديا من مخبئها اللصوصَ ينادي بعضهم بعضاً بلغة لم تُحاوِل فهمها. وحين ذهبوا أخيراً ساد الصمت الأكثر إطباقاً في القمم واستطاعت أن تُقدِّر وحشتها الهائلة.

وعلى الرغم من بَرْكَتها كانت ناديا تتجمد من الصقيع. فراح البرد يُخفّف من ألم الجرح ويُدخلها في نعاس قاهر. لم تأكل منذ الليلة السابقة، لكنّها لم تشعر بالجوع، وشعرت فقط بعطش رهيب. راحت تقشط أغمار الجليد الوسخ الذي يتشكل بين الحجارة وتمصّه بلهفة، لكنّه كان يترك في فمها طعم طين حين يذوب. لاحظت أنّ الليل يهبط عليها ودرجة الحرارة تهبط إلى ما تحت الصفر. بدأت عيناها تُغمضان. صارعت التعب برهةً، لكنّها قرّرت في النهاية أنّ النوم سيجعل الزمن أقصر.

ـ ربّما لن أرى فجراً آخر أبداً ـ تمتمت مستسلمة للنعاس.

انسحب تِنسينغ وديل باهادور إلى صومعتهما في الجبل. فتلك الساعات تُكرَّس للدراسة، لكن ما من أحد منهما قام بحركة لإخراج الرقاق من الصندوق الذي تُحفظ فيه، كلاهما كان عقله يفكّر بشيء آخر. أشعلا جمراً وسخّنا شاياً. وقبل أن يغرقا في التأمّل راحا يرتلان *أومْ ماني بَادْمِ هوم* قرابة الخمس عشرة دقيقة، ثمّ صلّيا طالبين جلاءً عقلياً لفهم العلامة الغريبة التي شاهداها في السماء. دخلا في غيبوبة وغادرت روحاهما جسديهما كي تشرعا برحلة.

كان ما يزال هناك ثلاث ساعات كي تغرب الشمس حين فتح المعلِّم وتلميذه عيونهما. بقيا لثوان بلا حراك، مانحَيْن وقتاً للروح، التي كانت بعيدة، كي تأخذ مكانها في واقع الصومعة التي يعيشان فيها. خلال غيبوبتهما رأيا رؤى متشابهة ولم يكن هناك ضرورة لأيّ توضيح.

ـ أفترض، يا معلّمي، أنّنا سنذهب لمساعدة الشخص الذي أرسل النسرَ الأبيض ـ قال الأميرُ، واثقاً من أنّ ذلك هو قرار تِنسينغ، لأنّ هذا هو الطريق الذي رسمه بوذا: طريق الرحمة.

ـ ربّما ـ ردّ اللاما، بمحض العادة، لأنّ قراره كان بثباتِ قرارِ تلميذه.

ـ وكيف نعثر عليه؟

ـ ربّما قادنا النسر إليه.

ارتديا غفّارتيهما الصوفيتين، وضعا على أكتافهما جلد ياك، وانتعلا جزمتيهما الجلديتين، اللتين لا يستخدمانها إلا في السفر الطويل والشتاء القاسي، وأخذا عصويهما الطويلتين وفانوس زيت. ثبّتا كيسَ طحينِ *التسامبّا* والزبدةِ، أساسِ غذائهما. كان تِنسينغ يحمل في كيسٍ آخر مطرباناً فيه كحول الرزِّ وعلبة خشبية فيها إبر

العلاج ومجموعة من أدويته. ووضع ديل باهادور على كتفه أحد أقصر أقواسه وجعبة سهامه. وشرع الاثنان مسيرتهما بالاتجاه الذي رأيا الطائر الأبيض الكبير يبتعد فيه، دون تعليق.

استسلمت ناديا سانتوس للموت. ما عاد يعذّبها الألم والبرد والجوع والعطش. راحت تطفو في حالة من الإغفاء، حالمة بالنسر. كانت تستيقظ لحظاتٍ فيملك عقلها شراراتِ وعي، تعرف أين وكيف هي، تُدرك أنه لم يبق إلا القليل من الأمل، لكن حين لفّها الليلُ صارت روحها خالية من أيّ خوف.

كانت الساعات السابقة ساعات ضيق شديد. وما إن ابتعد الرجال الزرقُ ولم تعد تسمعهم حتى حاولت أن تُجرجر نفسها، لكن سرعان ما انتبهت إلى أنّ صعودها بذراع مُعطّلة مستحيل عبر الهوّة شديدة الانحدار دون مساعدة. لم تُحاول نزع البَرْكة لتفحص كتفها، لأنّ كلّ حركة استغاثةً بدت لامجدية، لكنّها تأكّدت من أنّ يدها متورّمة جدّاً. صقعها الألمُ للحظاتٍ ولو أولته انتباهها لساء الأمر أكثر، فحاولت أن تتسلّى بالتفكير بأشياء أخرى.

مرّت بعدّة أزمات يأس خلال اليوم. بكت وهي تُفكّر بوالدها، الذي ربّما لن تراه ثانية. نادت بفكرها جغوار. أين صديقها؟ ترى هل عثر عليه بوروبا؟ لماذا لا يأتي. صرخت في مناسبتين، صرخت حتى بُحّ صوتها، دون أن يهمّها أن تسمعها طائفة العقرب لأنّها فضّلت أن تواجهها على أن تبقى هناك وحيدة، لكنّ أحداً لم يأتِ. بعد وقت قصير سمعت وقع خطواتٍ فاضطرب قلبها فرحاً، حتى رأت أنّ الأمر يتعلّق بعنزتين برّيّتين. نادتهما بلغة الماعز لكنّها لم تتمكّن من جعلِهما تقتربان.

كانت حياتُها قد جرت في طقس الأمازون الحار والرطب. لم تعرف البرد. في تونخالا حيث يرتدي الناسُ القطنَ والحرير لم يكن

باستطاعتها أن تخلع البَرْكَة. لم تكن قد رأت الثلج من قبل ولا عرفت ما هو الجليد حتى رأته في ملعب التزلّج على الجليد الصناعي في نيويورك. هي الآن ترتعد. الفجوة التي هي فيها سجينة تحميها من الريح والدغل يُخفّف البرد قليلاً، لكنّه في جميع الأحوال لا يُطاق بالنسبة إليها. بقيت منكمشة لساعات، حتى فقد جسدُها المنمَّل الحسَّ. أخيراً راحت السماءُ تُظلِم. شعرت بحضور الموت واضحاً تماماً. عرفته لأنّها لمحته من قبل. ففي الأمازون رأت أشخاصاً وحيواناتٍ يموتون، كانت تعلم أنّ كلّ كائن يُتمّ الدورة ذاتها. كلُّ شيءٍ يتجدَّدُ في الطبيعة. فتحت عينيها باحثةً عن النجوم، لكنّها لم تعد ترى شيئاً، فقد كانت في ظلمة مُطبقة، لأنّ ضوء القمر الخفيف الذي يضيء باهتاً قممَ الهيمالايا لم يكن يصل إلى الشقّ. عادت وأغمضت عينيها وتصوَّرت أنّ والدها معها، يسندها. مرّت في مخيّلتها زوجةُ الساحر والدِّيماي، تلك الروح الشفافة التي كانت تُرافقه دائماً؛ وتساءلت عمّا إذا كانت أرواح الهنود الحمر وحدها التي تستطيع أن تروح وتغدو بإرادتها من السماء إلى الأرض. افترضت أنّها هي أيضاً تستطيع ذلك وقرَّرت أنّها في تلك الحالة تودّ أن تصبح روحاً كي تواسي أباها وجغوارَ، لكن كلّ فكرة تُكلّفها جهداً هائلاً وهي لا ترغب إلاّ بالنوم.

حلّت ناديا الأربطة التي تربطها إلى العالم ومضت بنعومة ودون أيّ جهد أو ألم بالرشاقة ذاتها التي كانت تتحوّل فيها إلى نسر، يحملها جناحاه فوق الغيوم باتجاه القمر في علوٍّ هو في كلّ مرّة أكبر.

قاد بوروبا ألِكساندِر إلى المكان الذي ترك فيه ناديا. كان منهكاً تماماً من الجهد المبذول في قطع الطريق ثلاث مرّاتٍ دون راحة، ضاع عدّة مرّاتٍ، لكنّه استطاع دائماً أن يعود إلى الطريق الصحيح. وصلوا إلى المنحدر الذي يقود إلى كهف الرجال الزرق

عند الساعة السادسة مساءً تقريباً. كان هؤلاء قد تعبوا من البحث عن ناديا وعادوا إلى أعمالهم. قرَّر العنصر النتن الذي يبدو أنّه يقودهم أنّهم لا يستطيعون الاستمرار بإضاعة الوقت في البحث عن الفتاة التي هربت من بين براثنهم، فعليهم متابعة خطّتهم والاجتماع ببقيّة المجموعة، حسب التعليمات المُتلقاة من الأمريكيّ الذي تعاقدوا معه. تأكّد ألِكس أنّ الأرض موطوءة ويوجد روث خيول في كلّ مكان. كان واضحاً أنّ اللصوص كانوا هناك رغم أنّه لم يرَ أحداً منهم حوله. أدرك أنّه لا يستطيع أن يستمرّ على ظهر الجواد، فقد بدا له أنّ خطوات الجواد تدوّي مثل ناقوس استنفار، مما يجعل من المحال ألا يسمعه من يقومون بالحراسة إن وُجِدوا. ترجّل وتركه يمضي كيلا يكشف عن وجوده في المكان. كان من ناحية أخرى واثقاً من أنّه لا يستطيع أن يعود ليستعيده عبر ذلك الطريق.

شرع يصعد الجبل مختبئاً بين الصخور والحجارة متبعاً يد بوروبا المرتجفة الصغيرة. انتقل متجرجراً حتى وصل على بعد سبعين متراً من مدخل الكهف، حيث رأى ثلاثة رجال مسلّحين بالبنادق. استنتج أنّ الآخرين في الداخل أو ذهبوا إلى مكان آخر، لأنّه لم ير غيرهم في سفح الجبل. افترض أنّ ناديا مع بمّا وبقيّة الفتيات المختفيات. لكنّه وحيد وغير مسلح ولا يستطيع أن يواجه محاربي العقرب. تردّد، لا يعرف ماذا يفعل، إلى أن جعلته إشارات بوروبا الملحّة يشكّ بوجود صديقته هناك.

راح القردُ يشدّه من كمّه ويشير إلى رأس الجبل. نظرة سريعة جعلته يُدرك أنّه يحتاج إلى عدّة ساعات كي يصل إلى القمّة. يستطيع أن يذهب بسرعة أكبر لولا الحقيبة التي على ظهره، لكنّه لم يبغ التخلّي عن معدّات التسلّق.

تردَّد بين الرجوع إلى تونخالا لطلب المساعدة وهو ما سيستغرق وقتاً أو الاستمرار بالبحث عن ناديا. الخيار الأول قد ينقذ المخطوفات، لكنّه يمكن أن يكون شؤماً على ناديا، إذا كانت،

كما يبدو أنّ بوروبا يخبره، في وضع حرج. والخيار الثاني يمكن أن يساعد ناديا، لكنّه يمكن أن يكون خطراً على الفتيات الأخريات. قرَّر أنّه ليس من صالح الرجال الزرق أن يؤذوا الفتيات. فإذا كانوا قد تحمّلوا عناء اختطافهنّ فلأنّهم بحاجة إليهنّ.

تابع تسلّقه ووصل إلى القمّة وقد خيّم الليل، لكنّ القمر الهائل كان يتلألأ في السماء، مثل عينٍ فضّيةٍ كبيرة. كان بوروبا ينظر حوله مشوَّشاً. قفز خارج البَرْكَة، حيث كان مختبئاً وراح يبحث بعصبية مطلقاً زعقةَ ضيقٍ. انتبه ألِكساندر إلى أنّ بوروبا يأمل بالعثور على صاحبته هناك. راح ينادي ناديا مجنوناً بالأمل، لكن بحذر، لأنّه خاف أن يجرجر الصدى صوته إلى أسفل الجبل فيصل في ذلك الصمت المطلق واضحاً إلى مسمع اللصوص. وسرعان ما أدرك عبثيّة الاستمرار بالبحث دون أيّ نور آخر غير ضوء القمر في تلك الأرض الوعرة؛ وخلص إلى أنّ من الأفضل له أن ينتظر حتى الفجر.

اتخذ وضعية مريحة بين الصخور، مستخدماً حقيبة ظهره وسادةً. تقاسم عصرونيته مع بوروبا. ومكث بعدها ساكناً على أمل أنّه إذا ما «سمع بقلبه» يمكن لناديا أن تقول له أين هي، لكن ما من صوتٍ داخليّ جاء لينير عقله.

ـ عليّ أن أنام قليلاً لأستعيد قوايَ ـ تمتم منهكاً، لكنّه لم يتمكّن من إغماض عينيه.

عند منتصف الليل عثر تِنسينغ وديل باهادور على ناديا. كانا قد لاحقا النسر الأبيض لساعاتٍ. كان الطائر الجبّار يحلّق بصمت فوق رأسيهما على ارتفاع منخفِضٍ جدّاً، يشعران به حتى في الليل. ما من أحدٍ منهما كان متأكّداً من أنّ باستطاعته أن يراه حقيقة، لكنّ حضوره كان من القوّة بحيث لا يحتاج لأن يستشير أحدهما الآخر

كي يعرف ما يجب عليه فعله. إذا انحرفا أو توقّفا يبدأ الطائر يرسم دوائر ويدلّهما على الطريق الصحيح. وهكذا قادهما إلى المكان الذي كانت فيه ناديا. وما إن أصبحا هناك حتى اختفى.

زمجرة رهيبة جمّدت اللاما وتلميذه، كانا على بعد أمتار قليلةٍ من الهوّة التي تدحرجت إليها ناديا، لكن لم يكن باستطاعتهما التقدّم، لأنّ حيواناً لم يرياه قط، نمر ضخم أسود كالليل قطع عليهما الطريق. كان جاهزاً للقفز، فقد استجمع ظهره ونشر براثنه. فكّاه المفتوحان ينكشفان عن أنياب حادّة، وبؤبؤاه ملتهبان أصفران يلمعان ضاريين تحت ضوء قنديل الزيت.

أوّل ردّ فعل من تِنسينغ وديل باهادور جاءَ دفاعياً. كان عليهما أن يتحكّما بنفسيهما كيلا يلجآ إلى التاو ـ شو، الذي يثقان به أكثر من سهام ديل باهادور. وبجهد إراديّ هائل بقيا بلا حراك. متنفّسين بهدوء، كيلا يسمحا للخوف بالتسرّب إليهما فيتلقّى الحيوان رائحة الخوف التي لا تُخطئ. ركّزا على إرسال شحنات طاقة إيجابية تماماً كما فعلا في مناسبات أخرى مع نمر أبيض ومع أهل الثلج الضارين. كانا يعرفان أن العدوّ الأسوأ، وكذلك المساعدة الكبرى، هما في العادة الأفكار ذاتها.

تواجه الرجلان والبهيمة للحظة قصيرة جدّاً، ومع ذلك بدت أبديّة إلى أن رتّل صوت تِنسينغ الرزين المانترا الجوهرية همساً. وعندئذٍ تذبذب نور الزيت كما لو أنّه سينطفئ وبدَلَ النمر ظهرت فتاة غريبة المظهر جدّاً. لم يريا قط أحداً له ذلك اللون الشاحب جدّاً أو مثل تلك الملابس.

رأى ألِكساندر من ناحيته نوراً خفيفاً، بدا في البداية وهماً، لكنّه صار شيئاً فشيئاً أكثر واقعية. ثم رأى خلف ذلك النور طيفين بشريين يتقدّمان. ظنّ أنهما من رجال طائفة العقرب فقفز مستنفراً، مستعدّاً للموت مقاتلاً. أحسّ بروح الجغوار الأسود تأتي لمساعدته، فتح فمه فهزّ زئير مريع هواء الليل الساكن، فقط حين أصبح على

بعد مترين واستطاع أن يميّز حوله أفضل انتبه ألِكس إلى أنّهما لم يكونا من اللصوص الملتحين المشؤومين.

تبادلوا النظرات بفضول مماثل، في جانب راهبان بوذيان مغطيان بجلود الياك وفي جانب آخر فتى أمريكيّ ببنطلون جينز وجزمة وقرد متعلّق برقبته. وحين وعوا جمع الثلاثة أيديهم وانحنوا في الوقت ذاته بالتحية التقليدية في المملكة الممنوعة.

- *تامبّو كاتشي*، حالفتك السعادة - قال تِنسينغ.

- هي - ردّ ألِكساندر.

أطلق بوروبا زعقة وغطّى عينيه بيديه، كما كان يفعل حين يخاف أو يتشوّش.

كانت الحالة من الغرابة بحيث أنّ الثلاثة ابتسموا. بحث ألِكساندر يائساً عن كلمة بلغة ذلك البلد؛ لكنّه لم يستطع أن يتذكّر أيّاً منها. ومع ذلك راوده إحساس بأنّ عقله كتاب مفتوح على هذين الرجلين. ومع أنّه لم يسمعهما يقولان أيّة كلمة، فالصور التي راحت تتشكّل في دماغه كشفت له عن نواياهما، وانتبه إلى أنّهما هناك للسبب ذاته.

عرف تِنسينغ وديل باهادور بالتخاطر أنّ ذلك الأجنبي يبحث عن فتاة ضائعة اسمها نسر. واستنتجا طبعاً أنّها الشخص ذاته الذي أرسل إليهما الطائر الأبيض. لم يبدُ مفاجئاً لهما أن تملك تلك الفتاة القدرة على التحوّل إلى طائر، كما لم يفاجئهما أنّ الفتى مَثُل أمامهما بمظهر هرٍّ أسودَ كبير. كانا يعتقدان أنه ما من شيء محال. في غيبوبتهما وأسفارهما النجمية هما نفساهما اتخذا أشكال حيوانات مختلفة أو كائنات من عوالم أخرى. كما قرآ في عقل ألِكساندر شكّه بلصوص طائفة العقرب الذين سمع بهم تِنسينغ في أسفاره في شمال الهند ونيبال.

في تلك اللحظة قطع دويّ في السماء تيار الأفكار التي كانت

تجري بين الرجال الثلاثة. رفعوا عيونهم فكان الطائر الكبير من جديد فوق رؤوسهم. رأوه يرسم دائرة صغيرة ثم يهبط باتجاه هوّة مظلمة تنفتح إلى الأمام قليلاً منهم.

ـ نسر! ناديا ـ صاح ألِكساندر، في البداية بفرح مجنون ثمّ بغمّ رهيب.

كان الوضع مقنطاً لأنّ الهبوط ليلاً إلى قاع ذلك الفجّ كاد يكون محالاً. ومع ذلك فعليه أن يُحاول، فعدم ردِّ ناديا على ندائه المتكرّر وعلى زعيق بوروبا يعني أنّ شيئاً خطيراً يحدث لها. لا شكّ أنها حيّة، لأنّ الإسقاط العقلي للطائر يدّل على ذلك، لكنّها يمكن أن تكون مصابة بجرح بليغ. ولم يكن هناك وقت يضيعه.

ـ سأهبط ـ قال ألِكساندِر بالإنكليزية.

لم يحتَجْ تِنسينغ وديل باهادور للترجمة كي يفهما قراره واستعدّا لمساعدته.

هنّأ الشابّ نفسه لأنّه حمل معه معدات تسلقه ومصباحه الكهربائي، كما حمد الله على الخبرة التي اكتسبها مع والده بتسلّق الجبال والهبوط بالحبل المزدوج. وضع العدّة وأدخل كلاّباً معدنياً بين الصخور، تأكّد من ثباته، ربط به الحبل وهبط الهوّة مثل عنكبوت أمام عيون تِنسينغ وديل باهادور، اللذين لم يريا قط شيئاً مشابهاً على الرغم من أنّهما عاشا دائماً بين قمم هذه الجبال.

12

دواء العقل

أوّل ما أحسّت به ناديا حين عادت إلى وعيها هو الرائحة الزنخة لجلد الياك الثقيل الذي يلفّها. فتحت عينيها ولم تستطع أن ترى شيئاً. أرادت أن تتحرّك، لكنّها كانت متجمّدة؛ حاولت الكلام لكنّ صوتها لم يخرج. فجأة هاجمها ألم لا يُطاق في كتفها، سرعان ما انتشر إلى بقيّة الجسد. وغرقت من جديد في الظلمة بإحساس أنّها تسقط في فراغ لا نهاية له، وتضيع فيه تماماً. كانت تطفو في هذه الحالة هادئةً، لكنّها ما إن تملك ذرّة من وعي حتى تشعر بالألم يخترقها مثل سهام. حتى وهي غائبة عن الوعي كانت تئنّ.

أخيراً بدأت تستيقظ، لكنّ دماغها بدا ملفوفاً بمادة ضاربة للبياض وقطنية، لا تتمكن من الإفلات منها. عندما فتحت عينيها رأت وجه جغوار منحنياً فوقها، فافترضت أنّها ماتت، إلاّ أنّها شعرت بعد ذلك بصوته يناديها. تمكّنت من تركيز نظرها وحين شعرت بالوخزة الحارقة في كتفها انتبهت إلى أنّها ما زالت حيّة.

ـ يا نسر، أنا... ـ قال ألِكساندر وهو في غاية الخوف والتأثّر أمام صديقته، التي لم تكد تستطيع أن تكبح دموعها.

ـ أين نحن؟ ـ تمتمت.

وانبثق أمام ناظرها وجهٌ برونزي بعينين لوزيتين وتعبير رصين.

- *تامبّو كاتشي*، يا صغيرتي الشجاعة - حيّاها تِنسينغ. كان يمسك في يده قصعة خشبية ويشير أنّ عليها أن تشرب.

ابتلعت ناديا بصعوبة سائلاً فاتراً ومرّاً، نزل مثل رجمٍ من حجارة في معدتها الفارغة. شعرت بالغثيان، لكنّ يدَ اللاما ضغطت بثباتٍ على صدرها فزال الضيق عنها فوراً. شربت جرعة صغيرةً أخرى فاختفى على الفور جغوار وتِنسينغ وغابت هي في حلمٍ هادئ وعميق.

كان ألِكساندر قد هبط مستفيداً من الحبل والمصباح الكهربائي إلى الهوّة خلال ثوان قليلة، حيث وجد ناديا وقد تكوّمت مثل كبّة غزلٍ في الدغل، مثلجة ومتخشّبة، كأنّها ميتة. الراحة التي شعر بها حين تأكّد من أنّها تتنفّسُ جعلته يطلق صيحة. وحين حاول أن يُحرّكها رأى ذراعها متدلّية فاعتقد أنّ عظماً من عظامها مكسور، لكنّه لم يتوقّف ليتأكّد من ذلك. فالأساسي هو إخراجها من تلك الحفرة، لكنّه قدّر أنّ الصعود بها مغشيّاً عليها لن يكون أمراً سهلاً.

خلع كرسيّ التسلق ووضعه لناديا؛ واستخدم على الفور حزامه كي يُثبّت ذراعها إلى صدرها. رفع ديل باهادور وتِنسينغ الفتاةَ بكثير من الحذر، كي يتفاديا ارتطامها بالصخور، ثمّ رميا بالحبل إلى ألِكساندِر كي يتمكّن من التسلّق.

فحص تِنسينغ ناديا وقرّر أنّ عليهم أن يُدخلوها، قبلَ أيّ شيء، في الدفء. بعد ذلك سيهتمّ بالذراع. أعطاها قليلاً من كحول الرز، لكنّها كانت فاقدةً للوعي ولم تبلعه. دلكها الثلاثةُ فيما بينهم من الأعلى إلى الأسفل دقائقَ طويلة، إلى أن تمكّنوا من تنشيط الدورة الدموية وسرعان ما أعادوا إليها قليلاً من الدفء ولفوها مثل صرّة بواحد من الجلود، غطوها حتى رأسها. ارتجلوا بعصويهما وحبل ألِكساندِر وجلد الياك الآخر محفةً ونقلوها إلى ملاذٍ صغير قريب، إلى أحدِ شقوق وكهوف الجبال الطبيعية الكثيرة. جاءت رحلة العودة

إلى صومعة تِنسينغ وديل باهادور في غاية المشقّة والطول وهم يحملون ناديا، لهذا قرّر اللاما أنّهم سيكونون هناك بمنأى عن اللصوص ويستطيعون أن يرتاحوا بقية الليل.

عثر ديل باهادور على بعض الجذور الجافّة، ارتجل بها ناراً منحتهم الحرارة والنور. نزعوا البَرْكة عن ناديا بحذرٍ شديد ولم يستطع أَلِكساندر أن يكبت صيحة خوف حين رأى ذراع صديقته متدلّية ومتورِّمة ضِعْفَ حجمها العادي، وعظم كتفها خارج موضعه. بالمقابل تِنسينغ لم يتبدّل.

فتح اللاما علبة خشبه الصغيرة، وشرع يضع الإبر في بعض نقاطٍ من رأس ناديا كي يلغي الألم. وأخرج على الفور أدوية نباتية من كيسه وسحقها بين حجرين، بينما راح ديل باهادور يذيب زبدة في قصعة. خلط اللاما الدهنَ بالمسحوق مشكّلاً عجينة داكنة وفوّاحة. ووضعت يداه الخبيرتان عظمَ ناديا في مكانه ثمّ غطّتا المنطقة بالعجينة، دون أن تقوم الفتاة، المسكّنة تماماً بالإبر، بأيّة حركة. شرح تِنسينغ لألِكساندِر بالتخاطر والإشارات أنّ الألم يُحدِثُ عندها توتُّراً ومقاومة، وهو ما يُحاصر العقل ويقلّص القدرة الطبيعية على الشفاء. والمعالجة بالإبر تقوم بالإضافة إلى التخدير بتنشيط نظام المناعة في الجسم. أكَّد له أنّ ناديا لا تتألّم.

مزّق ديل باهادور طرفاً من غفّارته ليحصل على ضمادٍ، وراح يغلي ماءً مع قليل من رماد النار. بلّل اللاما شرائط القماش التي استخدمها للفّ الكتف الجريح في ذلك السائل. وعلى الفور ثبّت تِنسينغ الذراعَ بلفاع، سحب إبرَ المعالجة وأشار إلى أَلِكساندر بأن يُرطِّب جبين ناديا بالصقيع والثلج الموجودين في الشقّ بين الصخور لخفض حرارتها.

ركّز تِنسينغ وديل باهادور في الساعات التالية على شفاء

نادیا بالقوة العقلية. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يمارس فيها الأمير هذه المأثرة على كائن بشريّ. فقد درّبه معلّمه خلال سنواتٍ على هذه الطريقة بالعلاج، لكنّه لم يطبّقها إلاّ على حيواناتٍ جريحة.

أدرك ألِكساندِر أنّ صديقيه الجديدين يُحاولان أن يستحضرا طاقة من الكون ويوجهاها لتقوية ناديا. نقل ديل باهادور إليها عقلياً فكرةَ أنّ مُعلِّمه طبيب، وتولكو أيضاً، يملك حكمة التقمصات العظيمة السابقة. وعلى الرغم من أنّ ألِكساندِر لم يكن واثقاً من أنّه فهم جيّداً الرسائل التخاطرية، إلاّ أنّه كان من الرصانة بحيث لم يُقاطعهما أو يسألهما. بقي بجانب ناديا يرطّب لها جبينها بالثلج ويسقيها ماءً في اللحظات التي تستيقظ فيها. حافظ على النار مشتعلةً إلى أن انتهت الجذور التي استخدمها وقوداً. وسرعان ما مزّق الفجر ستارَ الليل، بينما الراهبان الجالسان في وضعية زهرة اللوتس، كانا مغمضي العيون يضعان اليد اليمنى على جسد صديقته، يرتلان مانترا.

بعد زمن وحين استطاع ألِكساندِر تحليل ما اختبره في تلك الليلة الغريبة كانت الكلمة الوحيدة التي خطرت له لتعريف ما فعله هذان الرجلان الغامضان هي «السحر». لم يكن عنده تفسير آخر للطريقة التي عالجا بها ناديا. افترض أنّ المسحوق الذي صنعا منه المعجون كان علاجاً جبّاراً مجهولاً في بقيّة العالم، لكنّه كان واثقاً من أنّ قوّة تِنسينغ وديل باهادور العقلية هي التي أحدثت تلك المعجزة.

بينما كان اللاما والأمير يستخدمان قواهما النفسية لعلاج ناديا راح ألِكساندِر يُفكِّر بأمِّه، هناك بعيدة في كاليفورنيا. كان يتصوّر السرطان مثل إرهابيّ مختبئ في جهازها، مستعدّاً للانقضاض بتلذّذٍ في كلّ لحظة. كانت أسرته قد احتفلت باستعادة ليزا كولْدْ لعافيتها، لكنّ الجميع يعرفون أنّ الخطر لم ينتهِ. إنّ مركّب

العلاج الكيميائي وماء الصحة الذي حصل عليه من مدينة البهائم، وأعشاب الساحر واليماي حقّقت القفزة الأولى، لكنّ المعركة لم تنتهِ. قرّر ألِكساندِر حين رأى كيف راحت ناديا تتعافى بسرعة مذهلة ليلاً، بينما الراهبان يصليان بصمت، أن يُحضِر أمَّه إلى مملكة التنين الذهبي، أو أن يدرس بنفسِهِ هذه الطريقة العجيبة في العلاج.

استيقظت ناديا عند الفجر دون حرارة، بألوان حسنة في وجهها وإحساس بجوع شديد. بوروبا المتقوقع بجانبها كان أوّل من حيّاها. حضَّر تِنسينغ تسامبًا فالتهمته كما لو أنّه المن والسلوى، رغمّ أنّه نوعٌ من الفتّة الرمادية بطعم الشوفان المُدخَّن. كما شربت بنهم جرعة علاجية أعطاها لها اللاما.

حكت لهم ناديا بالإنكليزية عن مغامرتها مع المحاربين الزرق، واختطاف بِّما والفتيات الأخريات وموقع الكهف. لاحظت أنّ الرجلَ والشابَّ اللذين أنقذاها كانا يلتقطان الصور التي تُكَوّنها في عقلها. كان تِنسينغ يُقاطِعها من حين لآخر كي يستوضح بعضَ التفاصيل، وإذا ما «أصغت هي بالقلب»، استطاعت أن تفهم عليه. من لاقى مشاكل أكثر في الفهم هو ألِكساندِر، مع أنّ الراهبين كانا يُخمّنان أيضاً أفكاره. كان منهكاً وعيناه تُغمضان تلقائياً من النعاس ولم يفهم كيف كان اللاما والتلميذ يحافظان على يقظتهما، بعد أن قضيا جزءاً من الليل مشغولين بإنقاذ ناديا وبقيته في الصلاة.

- يجب إنقاذ هؤلاء الفتيات المسكينات، قبل أن يحدث لهنّ مكروه لا يمكن علاجه - قال ديل باهادور بعد أن سمع قصّة ناديا.

لكنّ تِنسينغ لم يُظهر عجلة الأمير ذاتها. استفسر من الشابّة كي يعرف بالضبط ما الذي سمعته في الكهف وهي كرّرت الكلمات القليلة التي فهمتها بِّما. سأل تِنسينغ عما إذا كانت واثقة من أنّهم ذكروا التنين الذهبي والملك.

ـ أبي يمكن أن يكون في خطر! ـ صاح الأمير.

ـ أبوك؟ ـ سأل ألِكساندِر مُستغرِباً.

ـ الملك أبي ـ وضّح ديل باهادور.

ـ كنتُ أفكِّرُ بكلِّ هذا وأنا واثق من أنّ المجرمين لم يصلوا إلى المملكة الممنوعة كي يسرقوا بعض الفتيات فقط. فهذا ما يستطيعون القيام به بسهولة أكبر في الهند... ـ علَّق ألِكساندر.

ـ هل تعني أنّهم جاؤوا لسببٍ آخر؟ ـ سألت ناديا.

ـ أظنّ أنّهم خطفوا الفتيات إلهاءً، لكنّ هدفهم الحقيقيّ له علاقة بالملك وبالتنين الذهبي.

ـ سرقة التمثال، مثلاً؟ ـ ألمحت ناديا.

ـ أفهم أنّه ثمين جدّاً. لا أدري لماذا ذكروا الملك، لكنه لا يمكن أن يكون لأمرٍ حسن. ـ خلص ألِكسْ.

لم يستطع تِنسينغ وديل باهادور، اللذان لا يتأثّران عادة، أن يتفاديا إطلاق صيحة. تناقشا بلغتهما لدقائق أعلن اللاما على أثرها أنّ عليهم أن يرتاحوا ثلاث أو أربع ساعات قبل أن يشرعوا بالعمل.

حين استيقظ الأصدقاء كان منزلُ الشمس يدلّ على أنّ الساعة تُقارب التاسعةَ صباحاً. ألقى ألِكساندر نظرةً حوله فلم يرَ غير جبال وجبال، كما لو أنّه في نهاية العالم، إلا أنّه أدرك أنّهم غير بعيدين عن الحضارة، لكنّهم مختبئون جيّداً. كان المكان الذي اختاره اللاما وتلميذه محميّاً بصخور كبيرة، من الصعب الوصول إليه ما لم يُعرف موقعهما. كان واضحاً أنّهما استخدماه من قبل، لأنّ هناك بقايا شموع في الزوايا. وضّح تِنسنيغ أنّ النزول إلى الوادي يتطلّب القيام بدورة طويلة، رغم أنّه ليس بعيداً، لأن جرفاً عالياً كان يفصلهم عنه

والمحاربون الزرق يحاصرون الطريق الوحيد السالك الذي يقود إلى العاصمة.

كانت حرارةُ ناديا عادية، لا تشعر بالألم بعد أن زال الورم من ذراعها. شعرت من جديد أنّها ميتة جوعاً، وأكلت كلّ الذي قدّموه لها، بما في ذلك قطعة جبنٍ أخضر، أخرجها تِنسنيغ من كيسه، لا تثير رائحتها أيّة شهية. جدّد اللاما المعجون الذي يغطّي كتف الفتاة ولفّه بالخرق ذاتها لأنّهم لا يملكون غيرها وساعدها على الفور كي تخطو عدّة خطوات.

ـ انظر، يا جغوار، أنا معافاة تماماً! أستطيع أن أقودكم إلى الكهف الذي يحجزون فيه بِّما والفتيات الأخريات ـ صاحت ناديا قافزة عدّة قفزات كي تبرهن على ما تقول.

لكنّ تِنسينغ أمرها أن تعود وتستلقي على فراشها المرتجل، لأنّها، كما قالَ، لم تُشْفَ بعد تماماً، وتحتاج للراحة؛ فجسدها معبدُ روحها وعليها أن تُعامله باحترام وعناية. وأعطاها مهمّة أن تتخيّل عظامَها في مكانها وكتفَها وقد ذهب التهابه وجلدها وقد تخلّص من الكدمات والخدوش التي عانت منها في الأيام الأخيرة.

ـ نحنُ ما نُفكِّر. كلُّ ما نحنُ هُوَ ينبثق من أفكارنا. فأفكارُنا تبني العالم ـ قال الراهبُ بالتخاطر.

التقطت ناديا الفكرة في خطوطها العريضة: تستطيع أن تشْفَى بأفكارها. هذا ما فعله لها تِنسينغ وديل باهادور في الليل.

ـ بِّما وبقية الفتيات في خطر كبير. يمكن أن يكنّ حتى الآن في الكهف الذي هربتُ منه، لكن يمكن أيضاً أن يكونوا قد أخذوهنّ... ـ وضّحت ناديا لألِكساندر.

ـ قلتِ إنّ لهم معسكراً وأسلحة وخيولاً ومؤناً هناك. لا أظنّ أنّ من السهل أن يحرّكوا كلّ هذا في ساعاتٍ قليلة ـ علّق هو.

ـ في جميع الأحوال يجب أن نستعجل، يا جغوار.

أشار تِنسينغ إلى أنّها ستبقى هي لترتاح، بينما هو والشابان سيذهبان لإنقاذ المخطوفات. فهم ليسوا بعيدين ويستطيع بوروبا أن يدلّهم. حاولت ناديا أن توضّح لهم أنّهم سيواجهون رجالَ طائفة العقرب الشرسين، لكن بدا لها أنَّ اللاما لم يفهم جيّداً، لأنّ جوابه الوحيد كان ابتسامة رضا.

لم يكن تِنسينغ وديل باهادور يحملان أسلحتهما، باستثناء القوس وجعبة السهام التي يحملانها معهما دائماً؛ ما عداهما بقي في الصومعة. الشيء الوحيد الذي كان يحمله الأمير كدرع على صدره هي قطعة روث التنين السحريّة المتحجّرة، التي عثرا عليها في وادي أهل الثلج. حين كانا يتنافسان جدّياً، كما كانا يفعلان في بعض المناسبات في الأديرة، التي كان يتلقّى فيها الأمير تعليماته، كانا يستخدمان تنويعةً من الأسلحة. كانت منافسات ودّية ونادراً ما خرج أحد منهما مخدوشاً، لأنّ المحاربين خبيران وحذران جدّاً. كان تِنسينغ النبيل يضع درعاً جلديّاً مجدولاً يُغطّي صدره وظهره، إضافة إلى واقيات معدنية على الساقين والساعدين. يتضاعف حجمه الضخم بحدّ ذاته، متحوّلاً إلى عملاق حقيقيّ، فيبدو رأسه صغيراً جدّاً، وحلاوة وجهه في غير مكانها أبداً. سلاحه المفضّل كان الأقراص المعدنية ذات المسنّنات المشحوذة كالسكين التي يرميها بدقّة وسرعة لا تُصدّق، وسيفه الثقيل الذي ما من رجلٍ آخر يستطيع حمله بذراعيه معاً، بينما هو يحرّكه في الهواء بيدٍ واحدة ودون جهدٍ. كان باستطاعته أن ينزع سلاح الآخر بحركة واحدة من ذراعيه، ويقصم بسيفه درعاً نصفين، أو أن يرمي الأقراص التي تلامس وجه خصومه دون أن تجرحهم.

لم يكن ديل باهادور يملك قوّة معلّمه ولا مهارته، لكنّه كان برشاقة الهرّ. لا يستخدم درعاً ولا حاميات أخرى، لأنّها تربك حركاته وسرعته أفضل دفاع له؛ ويستطيع في منافساته أن يتفادى

السكاكينَ والسهامَ والرماحَ بخفّة ابن عرس. رؤيته في الفعل تشكّل مشهداً خطيراً، إذ يبدو كأنّه يرقص. سلاحه المفضّل هو القوس لأنّ تسديده لا يُخطئ: فحيث يضع عينه يضع السهم. علّمه معلّمه أنّ القوسَ جزءٌ من جسده، والسهمَ امتدادٌ لذراعه؛ وعليه أن يرمي بالغريزة، مصوِّباً بالعين الثالثة. وقد أصرّ تِنسينغ على تحويله إلى رامي قوسٍ كامل المهارة، لأنّه كان يؤكّد أنّه يُنظّف القلب. فالقلب النقي وحده، حسب قوله، يستطيع أن يسيطر على السلاح تماماً. لم يخطئ الأميرُ برمية قط، وكان يعاكسه مازحاً بقوله إنّ ذراعه لا تعرف شيئاً عن دنس قلبه.

وككلّ الخبراء بالتاو ـ شو كانا يستخدمان قوّتهما الجسدية كشكلٍ من أشكال التمرين لتعديل المزاج والروح، وليس أبداً لإيذاء أيِّ كائنٍ حيٍّ آخر. شعارهما احترامُ كلّ أشكال الحياة الذي هو أساسُ البوذية. فهما يؤمنان أنّ من الممكن أن أيّ مخلوق من المخلوقات كان أمّهما في حياة سابقة، لذلك عليهما أن يعاملاها جميعاً بطيبة. في جميع الأحوال لا يهمّ، كما كان يقول اللاما، ما يعتقد به أو لا يعتقد المرء، بل ما يفعله. لم يكن باستطاعتهما أن يصيدا عصفوراً ليأكلاه، وأقل من ذلك أن يقتلا إنساناً. كان عليهما أن يريا عدوّهما مُعلِّماً يمنحهما الفرصةَ للتحكّم بعواطفهما ويتعلّما شيئاً عن نفسيهما. فمنظور الاعتداء لم يحصل أن واجهاه من قبل قط.

ـ كيف يمكنني أن أرمي على رجال آخرين بقلبٍ صافٍ، يامعلّمي؟

ـ لا يُسمح بذلك إلاّ إذا لم يبق هناك خيار آخر وتيقّنت بأنّ القضيّة عادلة، يا ديل باهادور.

ـ يبدو لي أنّ في هذا يكمن هذا اليقين، يا معلّم.

ـ أن تملك جميع الكائنات الحيّة حظّها الحسن ولا يمرّ أحد

منها بمعاناة ـ رتّلا معاً، معلّماً وتلميذاً، متمنيين من روحيهما ألاّ يجدا نفسيهما مجبرين على استخدام معارفهما العسكرية القاتلة.

بالمقابل كان ألِكساندر يُمثّل الطبيعة المُصالحة. فهو لم يجد نفسه في سنواته الست عشرة مجبراً على استخدامها. ثمّ إنّه لا يملك شيئاً يدافع به عن نفسه أو يُهاجم، باستثناء سكينِ جيب أهدتها إليه جدَّته، بدلَ أخرى منحها هو إلى الساحر واليماي في الأمازون. كانت أداة جيّدة لكنّها سلاح يُثير السخرية.

أطلقت ناديا زفرة. لم تكن تفهم بالأسلحة، لكنّها تعرف أعضاء طائفة العقرب المشهورين بوحشيّتهم وبمهارتهم في استخدام الخناجر. فهؤلاء الرجال يُرَبّون على العنف، يعيشون للجريمة والحرب، ومتدرّبون على القتل. ماذا باستطاعة زوجين من الرهبان البوذيين المسالمين وسائح أمريكي شابّ أن يفعلوا ضدّ مثل تلك العصابة من قطّاع الطرق؟ قالت لهم متضايقة وداعاً ورأتهم يبتعدون. كان صديقها جغوار يمضي في المقدّمة مع بوروبا الجالس مثل خيّالٍ على رقبة الشاب، ممسكاً بأذنيه؛ يتبعه الأميرُ ويختم الصفّ اللاما الضخم.

ـ آمل أن أعودَ وأراكم أحياء ـ تمتمت ناديا بعد أن ضاعوا عن ناظرها خلف الصخور العالية التي تحمي الكهف الصغير.

ما إن راح الرجالُ الثلاثة يهبطون باتجاه كهفِ المحاربين الزرق حتى استطاعوا أن يمضوا بسرعة أكبر، شبه راضين. ومع أنّ الشمس كانت تلمع إلاّ أنّ الطقس بارد؛ والجوّ من الصفاء، بحيث أنّ النظر يُدرك حتى الوديان؛ والمنظر من فوق تلك القمم ساحر أخّاذ وهم محاطون بقمم الجبال الشاهقة المثلجة بينما في الأسفل تنتشر هضاب مغطاة بالنباتات البهيّة وحقول الرز الخضراء في المصاطب المقطوعة في التلال. كانت تُلمَحُ قمم الأديرة الهرمية والقرى الصغيرة ببيوتها المبنية من الطين والخشب والحجر والتبن، بسقوفها، سقوفِ الباغودا، وشوارعها الملتوية متناثرة في البعيد؛

كلّ شيء كان مستسلماً للطبيعة كأنّه امتداد للأرض. كان الزمن يُقاس هناك بالفصولِ وإيقاعُ الحياة بطيئاً لا يتبدّل.

لو كان معهم منظار لرأوا راياتِ الصلاة ترفرفُ في كلّ مكان، وصورَ بوذا الكبيرة المرسومة على الصخور، صفوفَ الرهبان تخبّ باتجاه المعابد، الجواميسَ تجرّ المحاريث، النساءَ بأطواق الفيروز والفضّة في طريقهنَّ إلى السوق، والأطفال يلعبون بكرات الخرق. كان من شبه المحال تصوّر أنّ هذه الأمّة الصغيرة، الوديعة والجميلة، إلى ذلك الحد قد حافظت على نفسها دون مساس قروناً، وتصبح الآن تحت رحمةِ عصابةٍ من القتلة.

كان أَلِكساندر وديل باهادور يسرعان الخطوَ مفكّرَين بالفتيات اللواتي عليهم أن ينقذوهنّ قبل أن يطبعوا جباههنّ بالحديد المحمّى، أو يفعلوا بهنَّ ما هو أسوأ. لم يكونا يعرفان الأخطار التي تنتظرهم في مأثرة إنقاذهنّ، لكنهما كانا واثقَيْن من أنّها لن تكون قليلة. بالمقابل لم تكن هذه الشكوك تُعذّب تِنسينغ كثيراً. فالمخطوفات لم يكنّ إلاّ الجزء الأوّل من مهمّته؛ فالمهمة الثانية كانت تشغله أكثر بكثير: إنقاذ الملك.

انتشر في هذه الأثناء في تونخالا خبرُ أنّ الملك قد اختفى. كانوا ينتظرونه في التلفزيون لأنّه سيتوجّه بكلمة إلى الشعب، لكنّه لم يحضر. لا أحد علم أين هو، على الرغم من أنّ الجنرال ميار كونغلونغ حاول بكلّ الوسائل الإبقاء على اختفائه قيد الكتمان. تلك هي المرّة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا في تاريخ المملكة. الابن الأكبر، الذي كسب مباريات القوس والسهم في الاحتفال شغلَ مؤقّتاً مكان والده. إذا لم يظهر الأبُ خلال الأيام القادمة فإنّ على الجنرال وكبار اللامات الذهاب للبحث عن ديل باهادور، كي يتابع القدر الذي دُرّب لأجله خلال أكثر من اثني عشر عاماً. ومع ذلك فالجميع أملَ ألاّ يكون ذلك ضرورياً.

جرت شائعات بأنّ الملك موجود في أحد أديرةِ الجبال، حيث انقطع للتأمّل؛ وأنّه سافر إلى أوروبا مع المرأة الأجنبية، جوديت كينسكي؛ وأنّه في نيبال مع الدالاي لاما وألف افتراضٍ وافتراض آخر. لكن ما من شيءٍ من هذا كان يتفق مع طبيعة العاهل البراغماتية والرصينة. كما لم يكن من الممكن أن يُسافِر متخفّياً؛ في جميع الأحوال فإنّ الطائرة الأسبوعية لن تخرج حتى يوم الجمعة. والملك لن يتخلّى أبداً عن مسؤولياته، خاصّة وأنّ البلد في أزمة بسبب الفتيات المخطوفات. خلاصة ما توصّل إليه الجنرال وبقيّة سكّان المملكة الممنوعة هو أنّه لا بدّ أنّ شيئاً في غاية الخطورة قد حدث.

قطع ميار كونغلونغ عمليّة البحث عن الفتيات وعاد إلى العاصمة. لم تنفصل كاث كولْدْ عنه، وهكذا علمت ببعض التفاصيل السرّية. في باب القصر وجدت الدليلَ واندجي متقوقعاً بجانب عمود المدخل، ينتظر أخباراً عن ابنته بِمَا. عانقها الرجلُ باكياً. بدا شخصاً آخر كأنّه شاخ عشرين سنة في هذين اليومين. أُفلتت كاثْ منه بفظاظة لأنّها لم تكن تُحبّ إظهار المشاعر، وقدّمت لها جرعة شاي بالفودكا من المطرة على سبيل المواساة. دلقها واندجي في فمه أدباً واضطر لأنّ يبصق هذا المشروب المقزّز بعيداً. أمسكته كاث من ذراعه وأجبرته على اللحاق بالجنرال لأنّها تحتاجه للترجمة؛ فإنكليزية ميار كونغلونغ أشبه ما تكون بإنكليزية طرزان.

علموا أنّ الملكَ أمضى المساءَ وجزءاً من الليل في قاعةِ بوذا العظيم وسط القصر لا يرافقه غير فهده تسشوانغ. ولم يقطع تأمّله غير مرّة واحدة، خرج فيها ليسير قليلاً في الحديقة ويشرب فنجان شاي بالياسمين حمله إليه أحد الرهبان؛ الذي أبلغ الجنرالَ أنّ جلالته كان يصلي دائماً قبل ساعاتٍ عديدة من استشارة تنين الذهب. وعند منتصف الليل حمل إليه فنجاناً آخر من الشاي؛ فوجدَ معظم الشموع قد انطفأت ورأى في عتمة القاعة أنَّ الملك ليس هناك.

ـ ألم تتحقّق أين كان؟ ـ سألت كاث معتمدة على واندجي.

ـ افترضتُ أنّه ذهب ليستشير التنين الذهبي ـ ردّ الراهب.

ـ والفهد؟

ـ كان مربوطاً بسلسلة في زاوية. صاحبُ الجلالة لا يستطيع أن يحمله معه إلى حيث التنين الذهبي. فيتركه أحياناً في قاعة بوذا وأحياناً أخرى يسلّمه إلى الحرّاس الذين يحرسون الباب الأخير.

ـ وأين هذا؟ ـ أرادت كاث أن تعرف، لكنّ الجوابَ الوحيدَ الذي تلقته كان نظرة مذعورة من الراهب وأخرى حانقة من الجنرال: من الواضح أنّ تلك المعلومة غير متوافرة، لكنّ كاث لم تقبل أن تُهْزَم بسهولةٍ.

وضّح الجنرال أنّ من يعرفون موقع الباب الأخير قليلون. والحراس الذين يحرسونه يُقادون إليه معصوبي العيون من قِبل إحدى الراهبات العجائز، اللواتي يخدمن في القصر ويعرفن السرّ. هذا الباب هو الحدّ الذي يقود إلى القسم المقدّس من القصر، الذي لا أحد غير الملك يستطيع أن يعبره. وما إن يُعبر الباب حتى تبدأ العوائق والكمائن القاتلة التي تحمي الحظار المقدّس. فأيّ شخص لا يعرف أين يضع قدميه يموت بطريقة رهيبة.

ـ هل نستطيع أن نتكلّم مع جوديت كينسكي، الأوروبية الموجودة ضيفةً في القصر؟ ـ ألحّت الكاتبة.

ذهبوا يبحثون عنها لكنّهم انتبهوا إلى أنّ المرأة اختفت أيضاً. كان فراشها مخرباً وثيابها وأشياؤها الشخصية في الغرفة، ما عدا الحقيبة التي تحملها دائماً على كتفها. ومرّت في ذهن كاث سريعاً فكرةُ أنّ الملك وخبيرة التوليب قد هربا في موعدٍ غرامي، لكنّها استبعدتها على الفور لأنّها فكرة غير معقولة. وقرّرت أنّ مثل هذا لا ينسجم مع طبيعة أيّ منهما، ثمّ ما حاجتهما كي يختبئا؟

ـ علينا أن نبحث عن الملك ـ قالت كاث.

ـ ربما لم تكن هذه الفكرة قد خطرت ببالنا، أيّتها الجُدَيِّدَة ـ ردّ الجنرال كونغلونغ.

أمر الجنرال باستدعاء راهبة تقودهم إلى الطابق السفلي من القصر ووجد نفسه مضطرّاً لأن يقبل أن ترافقهم كات والمترجم، لأنّ الكاتبة تعلّقت بذراعه مثل قرّادة، ولم تُفلِته. فكرّ العسكري: لا شكّ أبداً أنّ قلّة أدب هذه المرأة لم يعرف لها مثيل من قبل.

تبعوا الراهبة إلى طابقين تحت الأرض، مارّين بمئة غرفة، متصل بعضها ببعض، ووصلوا أخيراً إلى القاعة التي يوجد فيها الباب الكبير الأخير. لم يتوقّفوا لتأمله لأنّهم وجدوا مرعوبين الحارسَين بلباس البيت الملكي مرميين بوجوههم على الأرض، كلّ منهما في بركة دم. واحد ميت لكنّ الآخر ما يزال حيّاً، أعلمهم وهو في النزع الأخير أن بعض الرجال الزرق يقودهم رجلٌ أبيض توغّلوا في الحظار المقدّس، وهم لم ينجوا ويتمكّنوا من الخروج وحسب بل وخطفوا الملك وسرقوا التنين الذهبي أيضاً.

كان ميار كونغلونغ قد أمضى أربعين سنة في القوات المُسلّحة، لكنَّه لم يواجه قط وضعاً بمثل تلك الخطورة. كان جنوده يتسلون بلعبة الحرب وبالاستعراض، فالعنف حتى تلك اللحظة كان مجهولاً في بلده. لم يجد نفسه قط بحاجة لاستخدام أسلحته، وما من واحد من جنوده عرف الخطر الحقيقيّ. ففكرة أن يكون الملك قد اختطف من قصره بالذات، بدت له أمراً لا يمكن تصوّره. شعور الجنرال الهائل في تلك اللحظة كان الشعور بالعار أكثر منه بالرعب أو الغضب: لقد فشل في واجبه، لم يقدر على حماية ملكه المحبوب.

لم يعد هناك ما تفعله كاتْ في القصر؛ ودّعت الجنرال المرتبك وانطلقت بخطوات واسعة إلى الفندق، جارّةً واندجي معها جرّاً. عليها أن تضع خططها مع حفيدها.

ـ ربّما استأجر الفتى حصاناً وربّما ذهب. يبدو لي أنّه لم يعد ـ أخبرها صاحب الفندق باحترام وابتسامات عريضة.

- متى حدث هذا؟ هل ذهب وحيداً؟ - سألتْ قلقةً.

- ربّما ذهب البارحة وربّما حمل معه قرداً - قال الرجلُ محاولاً أن يكون في ألطف حالة ممكنة مع تلك الجدّة الغريبة.

- بوروبا! - هتفت كات مخمِّنة على الفور أنّ ألِكساندر قد ذهب بحثاً عن ناديا.

- كان عليّ ألاّ آتي بهذين الصبيين إلى هذا البلد أبداً! - أضافت مشغولةً، هابطةً على كرسيّ وسط نوبة سعال.

قدّم لها صاحب الفندق كأس فودكا، وضعه في يدها دون أن ينطق بكلمة.

13

التنين الذهبي

تأمّل الملك في تلك الليلة لساعاتٍ أمام بوذا العظيم، كما كان يفعل دائماً قبل أن يهبط إلى الجِظار المقدَّس. فقدرته على فهم المعلومات التي يتلقاها من التمثال تعتمد على حالته الروحية. كان عليه أن يكون نظيف القلب نقيّ من الرغبات، والمخاوف، والتوقّعات والذكريات والنوايا السلبية، منفتحاً مثل زهرة لوتس. صلّى بحرارة، لأنّه يعلم أنّ عقله وقلبه قابلان للعطب. شعر أنّه لا يكاد يستطيع أن يسيطر على خيوط مملكته ونفسه.

كان الملك قد صعد إلى العرش في عزّ الشباب إثر وفاة والده المُبكّرة، دون أن يكون قد أنهى تدريباته مع اللامات. كانت ما تزال تنقصه معارف ولم يُطوِّر مهاراتِهِ الخارقة، كما عليه أن يفعل. لم يكن باستطاعته أن يرى هالة الأشخاص ولا أن يقرأ أفكارهم، كما لم يكن يقوم بأسفار نجمية، أو يشفي بقوّة عقله، وإن كان هناك أشياء أخرى يستطيع القيام بها، كأن يتوقّف عن التنفّس ويموت بإرادته.

كان قد عوّض النقصَ في إعداده والعوزَ النفسي بشعور عامٍّ عظيم وممارسة روحية متواصلة. كان رجلاً طموحاً، مكرَّساً بالكامل لرغد مملكته؛ محاطاً بالمعاونين الأوفياء، الذين يُساعِدونه على اتخاذ القرارات العادلة؛ وأقام شبكة فعالة من المعلومات

لمعرفة ما يجري في بلده والعالم. كان يحكم بتواضعٍ، لأنّه لا يشعر بالقدرة على القيام بدور الملك؛ ويأمل أن ينسحب إلى ديرٍ حين يعتلي ابنه ديل باهادور العرش، لكنّه صار، بعد أن تعرّف على جوديت كينسكي، يشكّ بميوله الدينية. تلك المرأة الأجنبية هي الوحيدة التي استطاعت أن تُقلقه بعد موت زوجته. صار يشعر بنفسه مشوّشاً جدّاً، فيدعو في صلواته دائماً أن يلقى مصيره، مهما كان، دون أن يضرّ بالآخرين.

كان الملكُ يعرف رموزَ رسائل التنين الذهبي لأنّه تعلّمها في شبابه، لكنّ حدس العين الثالثة، الضرورية بدورها، تنقصه. فقط كان يستطيع أن يترجم جزءاً مما ينقله إليه التمثال. في كلّ مرّة كان يمثل أمامه يحزنُ لمحدوديته. عزاؤه أنّ ابنه ديل باهادور سيكون أكثر إعداداً منه لحكم الأمّة.

- تلك هي *كارماي* في هذا الجيل: أن أكون ملكاً دون استحقاق
- كان يهمس عادة بحزن.

شعر في تلك الليلة، بعد عدّة ساعات من التأمل المكثّف، بذهنه نظيفاً وقلبه مفتوحاً. انحنى بعمقٍ أمام بوذا العظيم، ملامساً الأرض بجبينه. طلب الإلهام وانتصب. كانت ركبتاه وظهره تؤلمه بعد كلّ تلك الساعات من اللاحراك. ربط تسشوانغ الوفي بسلسلة إلى حلقة مثبتة في الجدار، شرب آخر جرعة شاي بالياسمين، باردة، أخذ شمعة وخرج إلى القاعة. قدماه الحافيتان راحتا تنسابان بلا ضجيج على الأرض الحجرية المصقولة. وصادف في طريقه بعض الخدم الذين ينظّفون القصر في مثل تلك الساعة.

كان معظم الجنود قد انطلق بأمرٍ من الجنرال ميار كونغلونغ لتعزيز الجنود ورجال الشرطة القليلين الذين راحوا يبحثون عن الفتيات المختفيات. لم يكد الملكُ يلحظُ غيابهم، لأنّ القصر كان أميناً جدّاً. فالحراس يقومون بوظيفتهم الزخرفية خلال النهار، أما ليلاً

فلا يبقى منهم إلاّ حفنة تراقب، إذ في الحقيقة لا حاجة إليهم. فأمن الأسرة الملكية لم يُهَدّد قط.

كانت غرف القصر الألف متصلة بعضها ببعض عبر خليَّةٍ حقيقيّة من الأبواب. بعضها مجهّز بأربعة مخارج، وبعضها سداسيّ الشكل، بستّة مخارج. كان من السهل الضياع هناك، لذلك نقش المعماريون القدماء علامات على الأبواب، للدلالة عليها في الطوابق العليا، لكن في الطابق الأسفل، الذي لا يدخله إلاّ بعض الرهبان والراهبات، والحرّاس المختارون والأسرة الملكية، الذين تعتبر هذه العلامات بالنسبة إليهم كأنّها غير موجودة. كما لم يكن هناك نوافذ لأنّه على عمق عشرة أمتار تحت الأرض لم تكن هناك نقاط علاّم.

تشرّبت غرفُ القبو التي تتلقى التهوية عبر نظام عبقري من المواسير على امتداد القرون رائحةَ رطوبةٍ وزبدةٍ مصابيح ومختلف أنواع البخور التي يشعلها الرهبانُ لإبعاد الجرذان والأرواح الشريرة. كانت بعض الحجرات تستخدم لتخزين رقاق الإدارة العامة والتماثيل والأثاث؛ وبعضها الآخر لمستودعات أدويةٍ ومؤنٍ أو أسلحةٍ قديمة ما عاد يستخدمها أحد، لكنّ معظمها كان فارغاً. كانت الجدران تزدان بمشاهد دينية وتنينات وشياطين، ونصوص سنسكريتية طويلة، ووصف رهيب للعقوبات التي تلقاها الأرواح الشريرة في الماوراء. كذلك كانت السقوف مصوّرة، لكنّ هباب المصابيح سوّدَها.

ومع توغّل الملك في أحشاء القصر يمضي مشعلاً المصابيحَ من لهب شمعته. كان يُفكّر بأنّه آن الأوان كي يمدّ البناء كلّه بنور الكهرباء؛ التي لم تكن حتى الآن موجودة إلاّ في جناحٍ واحد من الطابق العلوي، حيث تُقيمُ الأسرة المالكة. كان يفتح أبواباً ويتقدّم دون تردّد لأنّه يعرف الطريقَ عن ظهر قلب.

سرعان ما وصل إلى غرفة مستطيلة أكبر وأعلى، ينتصب في طرفها باب كبير، من البرونز والفضّة، مطعَّم باليشب. حارسان

شابّان مزدهيان باللباس الموحّد القديم للمبشرين الملكيين، وقنزعتين من الريش في قبعتي الحرير الأزرق، ورمحين مزدانين بالشرائط الملوّنة، يحرسان جانبي الباب. لاحظ أنّهما منهكان لأنّه مضى على مناوبتهما عدّة ساعات في وحشة وصمت القبور في تلك الغرفة. وحين رأيا ملكهما يصل خرّا على ركبهما، لامسا الأرض بجبينيهما، واستمرّا على هذه الحال حتى باركهما وأشار إليهما بالنهوض. ثم أدارا وجهيهما إلى الجدار كما يقتضي البروتوكول، كيلا يريا كيف يفتح العاهل الباب.

أدار الملك عدداً من حجارة اليشب التي تزّين البابَ ودفعه فدار هذا بصعوبة على محوره. عبر العتبةَ فعاد البابُ المُصمت لينغلق. منذ تلك اللحظة يُصبح عملُ نظام الأمن، الذي يحرس التنين الذهبيَّ منذ ألف وثمانمئة عام، تلقائياً.

تابع تِكس أرماديّو، متخفّياً بين نباتات السرخس العملاقة في الحديقة، كلَّ خطوةٍ من خطوات الملك في أقبية القصر، كما لو أنّه يدوس على كعبه. كان باستطاعته أن يراه تماماً على شاشته الصغيرة بفضل التكنولوجيا الحديثة. لم يخطر ببال الملك أنّه يحمل كاميرا دقيقة، عالية الدقّة على صدره، رآه الأمريكيُّ بوساطتها يجتازُ كلّ عائق ويُدمّر آليّات الأمن التي تحمي التنين الذهبي، وفي ذات اللحظة تسجّل إحداثيات مسيره، مثل خارطة دقيقة على Global Positioning System (GPS)، وهو ما يسمح له بأن يتبعه فيما بعد. لم يستطع تِكس أن يتفادى ابتسامةً، مفكّراً بعبقرية المُتخصّص، الذي لم يكن يترك شيئاً للمصادفة. فهذا الجهاز الأكثر حساسية ودقة وبُعد مدى من الأجهزة ذات الاستخدام العادي، طوِّر للتو في الولايات المتحدة لأهداف عسكرية، ولم يكن مُتاحاً للجمهور. لكنّ المُتخصّص كان باستطاعته الحصول على أيّ شيء، لهذا كانت له اتصالاته ويملك المالَ الضروريّ.

كان أفضل اثني عشر محارباً أزرق، من طائفة العقرب، قابعين بين نباتات وتماثيل الحديقة بقيادة تِكس أرماديّو، بينما الآخرون ينفِّذون بقيّةَ المخطط في الجبل، حيث يُحضّرون للهرب بالتمثال ومعهم الفتيات المخطوفات. هذا الإلهاء أيضاً من إنتاج عقل المُتخصِّص المكيافيللي. ونظراً إلى أنّ الشرطة والجنود مشغولون بالبحث عنهنّ، فإنّ باستطاعتهم الدخول إلى القصر دون مقاومة.

وعلى الرغم من أنّ المُجرمين كانوا يشعرون بأمان تام إلاّ أنهم راحوا يتحرّكون بحذرٍ، لأنّ تعليمات المُتخصِّص دقيقة جدّاً: يجب ألاّ يلفتوا الانتباه. وهم بحاجة إلى عدّة ساعات ليصلوا بالتمثال إلى مكانٍ آمن ويحصلوا على رموز الشيفرة من فم الملك. كانوا يعرفون العدد الدقيق للحرّاس الذين سيبقون وأين يقفون. تخلّصوا من الحراس الأربعة الذين يحرسون الحديقة ويأملون ألاّ تُكتشف جثثهم حتى صباح اليوم التالي. كانوا مسلحين، كما هي العادة بترسانة من الخناجر، التي يثقون بها أكثر من الأسلحة النارية. بينما الأمريكيّ يحمل مسدس ماغنوم مزوّداً بكاتم للصوت، لكن إذا ما خرج كلّ شيء كما خُطّط له فلن يُضطرَّ لاستخدامه.

لم يكن تِكس أرماديّو عنيفاً تماماً، رغم أنّه لا مفرَّ من العنف في مجال عمله. فهو يعتبر العنفَ لنقتلة أما هو فمثقف ورجلَ أفكار. كان يطمح في سرِّهِ للحلول محلّ المُتخصِّص أو لتشكيل منظّمته الخاصّة. لم تكن تعجبه رفقة هؤلاء الرجال الزرق، فهم مرتزقة وحشيون وغدّارون، لا يكاد يستطيع التواصل معهم، ولا يدري ما إذا كان باستطاعته، حين يحين الوقت، أن يتحكّم بهم. أكّد للمُتخصِّص أنّه لن يحتاج إلاّ إلى اثنين من أفضل رجاله للقيام بالمهمّة، لكنَّ الجواب الوحيد القطعيّ الذي تلقاه هو الالتزام بالخطّة. كان أرماديّو يعرف أن أيّ خروج أو انحراف عن التعليمات يمكن أن يُكلِّفه حياته. والشخص الوحيد الذي كان يخافه في هذا العالم هو المُتخصِّص.

كانت تعليماته واضحة: عليه أن يراقبَ كلّ حركة من حركات الملك بوساطة كاميرا خفيّة، أن يترقّبَ وصوله إلى قاعة التنين الذهبي ويُفعِّل التمثال، ليتأكّد من أنه يعمل، بعدها يتوغّل في القصر ويصل بوساطة جهاز الـ(GPS)، إلى الباب الأخير. عليه أن يأخذ معه ستّة رجال، اثنين لحمل الكنز، اثنين لخطف الملك واثنين للحماية. كان عليهم أن يدخلوا إلى الحظار المقدّس متفادين الأفخاخ، لهذا فهو يملك شاشة الفيديو.

فكرة اختطاف زعيم أمّة وسرقة أغلى ما عنده كان سيبدو أمراً غير معقول في أيّ مكان من العالم إلاّ في المملكة الممنوعة، حيث تكادُ تكونُ الجريمة مجهولةً وبالتالي لم يكن هناك دفاعات. كان الهجوم على بلدٍ ما يزالُ سكّانه يستضيئون بالشموع، ويعتقدون أنّ الهاتف عمل سحري، بالنسبة إلى تِكس أرماديّو مثل لعب الأطفال. إيماءة الاحتقار امّحت عن وجهه حين رأى على شاشته الطرقَ الذكية التي يُحمى بها التنين الذهبي. لم تكن المهمة بالسهولة التي تصوّرها. فالعقول التي اخترعت تلك الأفخاخ قبل ثمانية عشر قرناً لم تكن بدائيّة على الإطلاق. ميّزة المُتخَصِّص تكمن في أنّ عقله أكثر تفوّقاً.

حين تأكّد أنّ الملك صار في الباب الأخير أشار لستّة من المحاربين الزرق أن يُغطّوا الانسحاب، كما هو مخطّط وتوجّه هو إلى القصر مع البقيّة. استخدموا مدخلَ الخدم في الطابق الأوّل وفجأة وجدوا أنفسهم في حجرة بأربعة أبواب. عَبَرَها الأمريكيُّ وأتباعه مستفيداً من الخارطة على جهاز الـ(GPS)، بقليل جدّاً من التردّد، من غرفة إلى أخرى حتى وصلوا إلى قلب البناء. في غرفة الباب الكبير وجدوا العقبة الأولى: جنديان يقومان بالحراسة، ما إن رأيا الدخلاء حتى شهرا سلاحيهما، لكنّهما وقبل أن يتمكّنا من أن يخْطُوَا خطوة واحدة تمكّن خنجران مُحكمان أُطلقا عن بعد عدّة أمتار من الولوج في صدريهما. سقطا على وجهيهما.

وباتباع ما راح يُظهرُه الفيديو على الشاشة خطوة بخطوة راح تِكس أرماديّو يتبع حجارة اليشب ذاتها التي لمسها الملكُ قبله. فتح الباب بتثاقل، واجتازه اللصوص والتقوا في غرفة مستديرة بتسعة أبوابٍ ضيِّقة، جميعها متماثلة. كانت المصابيح التي أشعلها الملكُ تعكسُ أنواراً متذبذبة على الحجارة الكريمة التي تزيّن الأبواب.

هناك وقف الملكُ فوق عينٍ مرسومة على الأرض، فتح ذراعيه مصالباً إيّاهما ودار على الفور بزاوية خمس وأربعين درجة بحيث صوَّبت يده إلى الباب الذي عليه أن يفتحه. قلّده تِكس أرماديّو يتبعه رجال العقربِ الخرافيين، الذين يمضون وخنجر بين أسنانِ كلّ منهم وآخر في كلّ يد. افترض الأمريكي أنّ الشاشة لا تُسجّلُ كلَّ الأخطار التي قد يواجهونها، فبعضها نفسيّ محض أو حيل إبهامية. رأى الملكَ يعبرُ بعض الغرف التي تبدو فارغة دون تردّدٍ، لكنّ هذا لا يعني أنّها كذلك. كان عليهم أن يتبعوه بكثير من الحذر.

- لا تلمسوا شيئاً - نبَّهَ رجالَه.

- سمعنا أنّ في هذا المكان شياطيناً، وسحرة ومسوخاً... - تمتم واحدٌ منهم بإنكليزية مكسّرة.

- لا وجود لهذه الأشياء - ردّ أرماديّو.

- كذلك يقولون بأنّ من يضع يده على التنين الذهبي سيقضي نحبه بسحرٍ مريع...

- ترّهات! هذه شعوذات، جهل خالص.

شعر الرجلُ بالإهانة، وحين ترجم تعليق الأمريكي أوشك البقيّة على أن يتمرَّدوا.

- ظننتُ أنَّكم محاربون، لكنَّني أرى أنّكم تخافون مثل الأطفال! جبناء! - بصق أرماديّو باحتقارٍ مُطلَق.

رفع اللصُّ الأوّلُ خنجره منزعجاً، لكنّ المسدّس كان قد أصبح في يد أرماديّو وفي عينيه ظهر قاتل. ندم الرجال الزرق على قبول

تلك المغامرة. فالعصابة كانت تكسب عيشها بجنايات أبسط، وهذه أرض مجهولة. العقد كان سرقة تمثال يتلقون مقابله ترسانة أسلحة نارية حديثة وكدسة من الأموال لشراء خيول وكلّ ما عداها وما يخطر ببالهم؛ ومع ذلك ما من أحدٍ نبَّههم إلى أنّ القصر مسحور. صار الوقت متأخّراً كي يتراجعوا، ولم يبقَ أمامهم غير أن يتبعوا الأمريكيَّ حتى النهاية.

ما إن تغلَّب تِكس أرماديّو مع أربعةٍ من رجاله على العوائق التي تحمي الكنزَ عائقاً بعد عائق حتى وجدوا أنفسهم في قاعة التنين الذهبي. وعلى الرغم من أنّه كان يعتمد على التكنولوجيا الحديثة، التي تسمح له بأن يرى ما كان يفعله الملك فلا يقع في الأفخاخ، إلاّ أنّه فقد اثنين من رجاله، ماتا ميتة مريعة، واحد في قاع بئر وآخر بسمّ قوّي التهم جسده خلال دقائق معدودات.

لم يواجهوا، تماماً كما توقّع الأمريكي، أشراكاً قاتلة وحسب، بل وحيلاً نفسية أيضاً. بالنسبة إليه كان كمن يهبط إلى جحيم نفسيٍّ، لكنّه تمكّن من الحفاظ على هدوئه، مُكرِّراً أنّ قسماً كبيراً منَ الصور المريعة التي تهاجمهم غير موجودة إلاّ في أذهانهم. كان محترفاً يتحكّم تماماً بجسده وعقله. بالمقابل كانت الرحلة بالنسبة إلى رجال طائفة العقرب إلى التنين الذهبي أسوأ بكثير، لأنّهم لم يكونوا يميزون بين الواقعي والمتخيّل. فهم معتادون على مواجهة كلّ أنواع الخطر دون تراجع، لكن يرعبهم أيّ شيء يبدو لهم غامضاً. وهذا القصر الغامض جعلهم يعيشون على أعصابهم.

لم يكونوا، حين دخلوا غرفة التنين الذهبي، يعرفون ما سيجدونه فيها، لأنّ الصور على الشاشة لم تكن واضحة. أعماهم بريق الجدران المغطاة بالذهب، حيث تنعكس أضواءُ كثيرٍ من مصابيح الزيت وشموع شمعِ النحل الغليظة. رائحة المصابيح والبخور والمر، اللذين يُحرَقان في المباخر تملأ الجوّ. توقّفوا على

عتبة الباب وقد أصمَّهم صوتٌ أجشّ حلقيّ من المحال وصفه، شيء بدا من الانطباع الأوّل أنّه لسمكة قرش تنفخ في أسطوانة معدنية. ومع ذلك صار يُمَيّز في الجلبة بعد دقائق قليلة بعضُ الانسجام، وسرعان ما بدا واضحاً أنّ الأمر يتعلّق بنوع من اللغة. كان ظهرُ الملك الجالس أمام التمثال، في وضعية زهرة اللوتس، باتجاههم ولم يسمعهم يدخلون، لأنّه كان غارقاً تماماً في تلك الأصوات ومركّزاً على مهمّته.

كان الملكُ يُرَتِّل سطوراً من نشيد، موقّعاً كلماتٍ غريبة، فيخرج الجواب على الفور من فم التمثال، مدوّياً في الغرفة. وهكذا كانت تحدث أصداء هي من الهول بحيث يشعر بها المرء في جلده ودماغه وكلّ أعصابه، وينتابه إحساس بأنه داخل ناقوس كبير.

كان التنين الذهبي بكلّ بهائه أمام أعين تِكس أرماديّو والمحاربين الزرق: جسد أسد، سيقان ببراثن كبيرة، ذيل زاحفة متلوٍّ، أجنحة مريّشة، رأس بمظهر ضار مزوّد بأربعة قرون، وعينان جاحظتان وفَكّان مفتوحان ينكشفان عن صفين من الأسنان الحادّة ولسان أفعى بشقّين. كان طول تمثال الذهب الخالص يتجاوز المتر وكذلك عرضه. صياغته كانت في غاية الرقّة والدقّة: كلّ حرشفة من الجسد والذيل تزدان بحجرٍ كريم؛ وريش الجناحين ينتهي بالماس. في الذيل رسم متشابك من اللؤلؤ والزمرد، أسنان من العاج والعينان ياقوتتان، نجمتان تامّتان، كلّ واحدة منهما بحجم بيضة حمامة. كان الحيوان الأسطوري على حجر أسود، تُطلّ من وسطه قطعة من الكوارتز الأصفر.

جمّدت المفاجأةُ اللصوصَ للحظاتٍ، فحاولوا أن يخرجوا من تأثير الأضواء، والجوّ الغريب وذلك الضجيج المصم. ما من أحدٍ منهم كان يتوقّع أن يكون التمثال بمثل تلك الروعة، حتى أكثر رجال المجموعة جهلاً انتبه إلى أنّه أمام شيء لا يُقدَّر بثمن. العيون كلّها

لمعت طمعاً وتصوّر كلّ واحد منهم كيف أنّه قد يقدّم حياته ثمناً لحجر واحدٍ من تلك الأحجار الكريمة.

هوى تِكس أرماديّو أيضاً أمام سحر التمثال المبهر، على الرغم من أنّه لم يكن يُعتبر رجلاً جشعاً تماماً، ويتفرّغ لعمله لأنّه يُحبّ المغامرة. كان يتباهى بأنّه يحيا حياة بسيطة، في حرّية تامّة، دون قيود عاطفية أو من أيّ نوع آخر؛ وتُداعبه حين يتعب من التجوال في العالم فكرة التقاعد في الشيخوخة، وقضاءِ سنواته الأخيرة في مزرعته في الغرب الأمريكي، حيث كان يربّي خيول السباق. ملك بين يديه في بعض مهماته ثرواتٍ، دون أن يشعر بإغواء السطو عليها؛ كانت تكفيه العمولة العالية جدّاً دائماً، لكنّه حين رأى التمثالَ فكّرَ أن يخون المُتخصّص. فهو إذا أصبح في حوزته لن يستطيعٍ شيء أن يوقفه، سيصبح ثريّاً إلى أقصى حدّ، وسيستطيع أن يُحقِّق كلّ أحلامه، بما في ذلك أن تُصبح له منظمته الخاصّة، بل وأقوى من المتخصّص ذاته. استسلم لثوان لمتعة هذه الفكرة كمن يفرح في حلم، لكنّه سرعان ما عاد إلى الواقع. فكّر: «لا بدّ أنّ هذه هي لعنة التمثال: يُثير جشعاً لا يُقاوَم». احتاج إلى جهدٍ كبير كي يركّز على بقيّة الخطّة. أشار إشارة صامتة إلى رجاله فتقدّموا نحو الملك والخناجر في أيديهم.

14

كهف اللصوص

لم يكن صعباً على ألِكساندر وصديقيه الجديدين الوصول قريباً من كهفِ محاربي العقرب، لأنّ ناديا دلّتهم على الاتجاه العام، وتولّى بوروبا البقيّة. كان الحيوان يمتطي كتفي ألِكساندر ويلفّ ذيلَه حول رقبته ويمسك بيديه بشعره. لم يكن يُحبّ صعود الجبال وأقل من ذلك هبوطها. كان الفتى يضربه بيده من حين لآخر كي يحرّكه، لأنّ ذيله يخنقه ويداه المرتعشتان خوفاً تقتلعان خصلاتٍ من شعره.

ما إنْ تأكّدوا من موقع الكهف حتى اقتربوا منه بكثير من الحذر، مستفيدين من الأحراج وتعرّجات الأرض للتخفي. لم يظهر أيّ نشاط حولهم، ولم تكن تُسمع غير الريح بين التلال وزعيق هذا الطائر أو ذاك من حين لآخر. كانت خطواتهم بل وحتى تنفّسهم تبدو في ذلك الصمت مصمّة. اختار تِنسينغ بعض الحجارة ووضعها في الطيّة التي تشكّلها الغفّارةُ عند الخصر، ثمّ أمر بوروبا بالتخاطر أن يذهب ويتجسّس. أخيراً تنفّس ألِكساندر الصعداء حين أفلته القردُ.

انطلق بوروبا راكضاً باتجاه الكهف، وعاد بعد عشر دقائق. لم يكن باستطاعته أن يُخبرهم بما رأى، لكنّ تِنسينغ رأى في عقله الصور المشوّشة لعدّة أشخاص، وهكذا عرف أنَّ الكهف لم يكن فارغاً كما كانوا يتوجسون. ظاهرياً كانت المختطفات ما يزلن هناك، يراقبهنّ عدد من المحاربين الزرق، لكنّ الغالبية غادرت.

ورغم أنّ هذا يسهِّل المهمّة الفورية، إلاّ أنّ تِنسينغ اعتبره خبراً غير سار، لأنّه يعني أنّ البقيّة لا شكّ في تونخالا. لم يشكّ بأنّ هدف المجرمين من مهاجمة المملكة الممنوعة، كما فكّر الشاب الأمريكي، لم يكن اختطاف ستّة فتيات بل سرقة التنين الذهبي.

زحفوا إلى مقربة من الكهف، حيث يوجد رجل مقرفص، مستند إلى بندقيّته، والنور في وجهه، كان من تلك المسافة هدفاً سهلاً بالنسبة إلى ديل باهادور، لكنّ لا بُدَّ له كي يستخدم قوسه من أن يقف. أشار إليه تِنسينغ أن يبقى ملتصقاً بالأرض، وأخرج حجراً من الحجارة التي سبق وجمعها. اعتذر في تفكيره من العدوان الذي سيرتكبه، ثم رمى بالقذيفة دون تردُّد بكلّ ما أوتي ذراعه من قوّة. بدا لأَلِكساندر أنّه لم يُتعب نفسه حتى بالتصويب ولذلك كانت المفاجأة هائلة حين سقط الحارس على وجهه دون أن يطلق أنّة واحدة، مترنّحاً من الحجر الذي أصابه بين عينيه. أشار إليهما اللاما أن يتبعاه.

أخذ ألِكساندر سلاحَ الحارس، مع أنّه لم يستخدم مثله قط، ولم يعرف أنّه ملقّم. منحه ثقل البندقيّة ثقةً وأيقظ عنده عدوانية غير معهودة. شعر بداخله بطاقة هائلة، وتلاشت شكوكه خلال ثوانٍ واستعدّ ليقاتل مثل حيوانٍ ضارٍ.

دخل الثلاثة معاً إلى الكهف. راح تِنسينغ وديل باهادور يطلقان صرخات مرعبة. قلّدهم ألِكساندر دون أن يعرف ما يفعل. كان في العادة شخصاً أقرب إلى الخَجول ولم يزعق قط بتلك الطريقة. كلّ غضبه وخوفه وقوّته تركّزت في تلك الصرخات التي جعلته، بالإضافة إلى شحنة الأدرينالين المفرّغة التي تجري في عروقه، يشعر بنفسه قاهراً مثل الجغوار.

كان في داخل الكهف أربعة لصوص آخرين، وامرأة الندبة وفي العمق المخطوفات مربوطات من رُسَغهنَّ. المحاربون الزرق الذين

باغتهم ذلك الثلاثيّ المهاجم، مثل شياطين تردّدوا لثانية ثمّ ما لبثوا أن مدّوا أيديهم إلى خناجرهم، لكن تلك الثانية كانت كافية كي يصيب سهمُ ديل باهادور الأوّلُ هدفَه مخترقاً الذراع الأيمنَ لواحدٍ منهم.

لم يوقف السهمُ اللصَّ. فرمى بصيحة ألمِ الخنجرَ مستخدماً اليدَ اليسرى وأخرجَ على الفور آخرَ من حزامٍ خصره. قطع الخنجر المكان صافراً باتجاه قلب الأمير. لم يتفاداه ديل باهادور. مرّ السلاحُ ملامساً إبطه دون أن يجرحَه بينما هو يرفع قوسه ليطلق سهمه الثاني ويتقدّم بهدوء، مقتنعاً بأنّه محميٌّ بدرعِ روث التنين السحريّ.

بالمقابل كان تِنسينغ يتفادى الخناجر التي تتطاير من حوله بمهارة عجيبة. فحياة كاملة من التدريب على فن التاو ـ شو كانت تسمح له بالتنبّؤ بخط سيرِ السلاح وسرعته. لم يكن يحتاج لأن يفكّر. فجسده يتصرّف غريزياً. بقفزة سريعة في الهواء ورفسةٍ مباشرة على الحنك، أخرج أحد الرجال من المعركة؛ وبضربة جانبية من ذراعه نزع سلاح آخر كان يصوِّب عليه ببندقيّته، دون أن يفسح له الوقت لإطلاق النار. وواجه على الفور سكاكينه.

لم يملك أَلِكساندر وقتاً كي يصوِّب. ضغط على الزناد فدوّت طلقة في الهواء منفجرة على الجدران الصخرية. تلقّى دفعة من ديل باهادور جعلته يترنّح وينجو بمسافة شعرة من تلقّي أحد الخناجر. وحين رأى أن الرجال الذين بقوا منتصبين على أقدامهم يأخذون بنادقهم أخذ بندقيته من سبطانتها الساخنة، وجرى صارخاً ملء رئتيه وأنزل ضربة بكتف أقربِ الرجال إليه دون أن يدري ما يفعل. لم يتمكّن من أن يصعقه لكنّه خبله وهذا ما أعطى وقتاً لِتِنسينغ كي يُمسِك به. ضغط أصابعه على نقطة دقيقة من عنقه شلّته تماماً. شعر ضحيَّته بشحنة كهربائية تعبره من رقبته وحتى كعبيه فانطوت ساقاه وسقط مثل دمية من خرق، وزاغت عيناه ووقفت صرخة في حنجرته، ولم يعد قادراً على تحريك حتى أصابعه.

كان الرجال الزرق الأربعة، خلال دقائق قليلة، مرميين على الأرض. صحا الحارسُ قليلاً من ضربة الحجر، لكنّه لم يملك الفرصة لأن يمدَّ يده إلى سكاكينه. فقد وضع أَلِكساندر فوَّهة سلاحه على صدغه وأمره أن ينضم إلى البقية. قالها له بالإنكليزية، لكنّ النبرة كانت من الوضوح بحيث أنَّ الرجل لم يتردّد في طاعته. وبينما كان أَلِكساندر يراقبهما والسلاح الذي لا يعرف استخدامه بين يديه، محاولاً أن يظهر في أقصى حالات الحزم والقسوة الممكنة، قام تِنسينغ بربطهم بالحبال الموجودة في الكهف.

تقدّم ديل باهادور وقوسه جاهز إلى حيث الطفلات في العمق، تفصله عنهنّ عشرة أمتار تقريباً وحفرة فحم مشتعل، يوجد عليها قِدران من الطبيخ. جمّدته صرخة. كانت المرأة ذات الندبة تمسك سوطها بيد وبيد أخرى سلّة بلا غطاء، تهزّها فوق رؤوس المخطوفات الخمس.

- خطوة أخرى وأفلت العقارب فوقهنّ - صرخت السجّانة.

لم يجرؤ الأمير على الرمي. فمن المسافة التي كان فيها يستطيع أن يقضي علي المرأة دون أدنى صعوبة، لكنّه لا يستطيع أن يمنع سقوط العقارب القاتلة فوق الفتيات. لا شكّ أن الرجال الزرق كانوا هذه المرّة أيضا محصّنين ضدّ السمّ، لكنّ البقيّةَ معرّضون للخطر.

جمد الجميع. أبقى أَلِكساندر نظره على أسراه وسلاحه مصوّب باتجاههم، كان بينهما اثنان لم يربطهما تِنسينغ بعد، ويتحيّنان أدنى فرصةً كي يهاجماهم. لم يجرؤ اللاما على التدخل. فهو من مكانه لا يستطيع أن يستخدم ضدّ المرأة سوى قواه النفسية الخارقة. حاول أن يوجّه لها بعقله صورةً تُخيفها، لكّن كان يوجَد بينهما تشوّش ومسافة أكثر مما يسمح له بتنويمها مغناطيسيّاً. لقد ميّز هالتها بشكل ضبابي وانتبه إلى أنّها كائن بدائي متوحّش وخائف في الوقت ذاته، عليهم دون شكّ أن يخضعوها بالقوّة.

استمرّت الوقفة ثوان قصيرة، لكنّها كانت كافية كي تكسر توازن القوى. لحظة أخرى وكان أَلِكساندر سيطلق النار على الرجال الذين يتحفّزون للقفز فوق تِنسينغ. لكن فجأة حدث شيء لم يكن بالحسبان إطلاقاً. قفزت إحدى الفتيات على المرأة ذات الندبة فتدحرجتا معاً على الأرض بينما مضت السلّة مقذوفة في الهواء وانفجرت على الأرض. انتشر مئة عقرب أسود في عمق الكهف.

الفتاة التي تدخّلت هي بِّما؛ وقد واجهت سجّانتَها رغم بنيتها النحيلة، شبه الأثيرية، ورغم من أنّها كانت مربوطة من رسغيها، بعزيمة انتحارية، متجاهلة ضرباتِ السوط، التي انهالت بها عليها علىٍ عماها، وخطرَ العقارب الواضح. راحت تضربها بقبضتيها، تعضُّها وتشدّها من شعرها، ملتحمة معها في معركة غير متكافئة، فبالإضافة إلى أنّ الأخرى أقوى منها، تركت السوطَ وشهرت سكينها التي كانت تحملها في خصرها. أفسح عمل بّما المجال لديل باهادور كي يترك القوس ويأخذ كازاً كان اللصوص يستخدمونه للمصابيح ويرشّ المحروقات على الأرض ويشعل النار بجمرة من الصلاء. ارتفع على الفور ستارٌ من اللهب والدخان الكثيف حارقاً رموشَه. اقترب الأمير من بِّما التي كانت على ظهرها على الأرض وفوقها المرأة القبيحة، ممسكة بيديها ذراعَها الذي راح يقترب أكثر وأكثر من وجهها. كان رأس السكين يخدش خدّ بِّما، حين أخذ الأميرُ المرأةَ من عنقها ورمى بها إلى الخلف وأفقدها الوعي بضربة جافّة من قفا يده.

نهضت بِّما وراحت توجّه ضربات براحة كفّها كي تُطفئ اللهب الذي بدأ يلعقُ تنورتها الطويلة، لكنّ الحرير كان يشتعل مثل الصوف. انتزعها الأميرُ عنّها شدّاً وعاد إلى الفتيات الأخريات اللواتي كنّ يصرخن مرعوبات ووجوههنّ إلى الجدار. وباستخدام سكينّ امرأة الندبة قطعت بِّما أربطتهنّ وساعدت ديل باهادور على تحرير رفيقاتها وحملهن إلى الجانب الآخر من ستار النار، حيث

تتلوّى العقارب مشتاطة، باتجاه مخرج الكهف الذي راح يمتلئ بالدخان.

جرّ تِنسينغ والأميرُ وألِكساندر أسراهم إلى الهواء الطلق وتركوهم مُكبَّلين اثنين اثنين. استغلّ بوروبا أنّ اللصوصَ أصبحوا عزّلاً وراح يسخر منهم، رامياً إيّاهم بقبضات من التراب ومخرجاً لسانه إلى أن ناداه ألِكساندِر. قفز القردُ إلى كتفيه ولفّ ذيله حول عنقه وأمسك بأذنيه متثبّتاً بهما.

استولى ديل باهادور على ثياب أحد اللصوص وأعطى ثياب الراهب التي كان يرتديها إلى بِمّا شبه العارية. جاءت من السعة بحيث أنّها اضطرّت إلى لفّها مرّتين حول خصرها. وبكثير من الاشمئزاز ارتدى الأميرُ خرقَ محاربِ العقرب السوداء والنتنة. ورغم أنّه كان يُفضّلُ ألفَ مرّة أن يبقى بسرواله الذي يغطي عورته فقط، فقد انتبه إلى أنّه ما إن تغيب الشمس وتنخفض درجة الحرارة حتى يصبح بحاجة إلى معطف. فُتِنَ ديل باهادور بشجاعة ورصانة بِمّا بحيثُ بدا له أنّ تقديمه دثاره لها هو أدنى ما يفعله لها. لم يكن يستطيع أن يرفع عينيه عنها. شكرتْ له الفتاة تلك اللفتة بابتسامة خجولة، ووضعت عليها الغفّارة الخشنة، الحمراء الداكنة، التي تُميّز رهبانَ بلدها، دون أن يخطر لها أنّها ترتدي ثياب وليِّ العهد.

قطع تِنسينغ النظراتِ العاطفية بين ديلِ باهادور وبِمّا، كي يستفسر من الشابّة عمّا سمعته في الكهف. فأكّدت هذه ما كان يدور بنفسه: بقية العصابة تُخطّط لسرقة التنين الذهبي وخطف الملك.

ـ أفهم الأمر الأوّل، لأنّ التمثال له قيمة عالية، لكنّني لا أفهم الأمر الثاني. لماذا يريدون الملك؟ ـ سأل الأمير.

ـ لا أدري ـ ردّت.

درس تِنسينغ سريعاً هالةَ الأسرى، وهكذا اختار أكثرهم

ضعفاً ووقف أمامه وغرز فيه نظرته النافذة. تبدّلت تماماً تعبيراتُ عينيه الحلوة دائماً: صغر بؤبؤاه مثل شعاعين فأحسّ الرجلُ أنّه أمام أفعى. تلا اللاما بعض الكلمات السنسكريتية بصوتٍ رتيب، لم يفهمها غير ديل باهادور، فأصبح اللصُّ خلال دقيقة طوعَ يديه، غارقاً في نوم مغناطيسي.

التحقيق وضّحَ بعضَ جوانبِ خطّةِ طائفةِ العقرب، وأبان أنّ الوقتَ تأخّر لمنع العصابة من دخول القصر. لم يكن الرجل يعتقد أنّهم أنزلوا أذى بالملك، لأنّ تعليمات الأمريكي كانت تقضي بأسره حيّاً، لأنّهم يريدون أن يُجبروه على الاعتراف بشيءٍ. لم يكن الرجلُ يعرفُ أكثر من ذلك. أهمُّ معلومة حصلوا عليها هي أنّ العاهل والتمثال سينقلان إلى دير تشينثان دزونغ.

ـ وكيف يُفكّرون الهرب من هناك؟ هذا المكان منيع ـ سأل الأميرُ مستغرِباً.

ـ بالطيران ـ قال اللصّ.

ـ يجب أن تكون لديهم مروحية ـ قال ألِكساندِر الذي راح يلتقط ما يقولونه بخطوطه العامّة، رغم أنّه لم يكن يفهم اللغة، لكنّ الصور كانت تتشكّل في ذهنه بالتخاطر.

هكذا تواصل مع اللاما والأمير إلى أن استطاعت بِمّا أن تساعدهم ببعض التفاصيل.

ـ هل المقصود هو تِكس أرماديّو؟ ـ سأل ألِكساندِر.

لم تستطع التأكّد، لأنّ اللصوص لا يعرفونه إلاّ باسم «الأمريكي» وبِمّا لم تره.

أخرج تِنْسينغ الرجلَ من غيبوبته المغناطسية وأعلن أنّهم سيتركون اللصوص هناك، بعد أن يتأكدوا من أنّهم لن يستطيعوا أن يفكّوا أربطتهما. لا يضرّهم أن يقضوا ليلة أو ليلتين في العراء، ريثما يعثر عليهم رجالُ الملك، أو رفاقهم إن حالفهم الحظّ. طلب

العفو من الأشرار على المعاملة غير اللائقة التي عاملهم بها، جامعاً يديه أمام وجهه ومنحنياً قليلاً. وفعل ديل باهادور الشيء ذاته.

- سأُصلّي كي تُنقَذوا قبل أن تصل الدببة السوداء، وفهود الثلج أو النمور - قال تِنسينغ بجدِّيّة.

ذُهل ألِكساندر كفاية من مظاهر الأدب. لو حدث العكس وكانوا هم المهزومين لقتلهم هؤلاء الرجال دون أن يقدّموا لهم كلّ هذا الاحترام.

- ربّما علينا أن نذهب إلى الدير - اقترح ديل باهادور.

- وماذا سيحدث لهؤلاء؟ - سأل ألِكساندر مشيراً إلى بِمّا والفتيات الأخريات.

- ربّما استطعتُ أن أقودهنّ إلى الوادي وأُخبرَ قوّات الملك ليذهبوا أيضاً إلى الدير - عرضت بِمّا.

- لا أعتقد أنّ من الممكن استخدام درب اللصوص، لأنّ هناك بالتأكيد آخرين يُراقبون في هذه الجبال. سيكون عليكن أن تسلكن فجّاً آخر - أجاب تِنسينغ.

- لا أعتقد أنّ مُعلّمي يُفكّر بالجرف... - همس الأمير.

- قد لا تكون فكرة سيّئة تماماً، يا ديل باهادور - ابتسم اللاما.

- ترى هل يمزح مُعلِّمي المحترم؟

جاء جواب اللاما ابتسامةً عريضة أضاءت وجهَه وإشارةً إلى الشباب بأن يتبعوه. راحوا يسيرون في الطريق ذاته الذي سلكوه ليجتمعوا بناديا. كان تِنسينغ يسير أمامهم ويُساعد الفتيات، اللواتي كنّ يتبعنه بمشقّة، لأنّهن ينتعلن صنادلَ ويرتدين سارونغاتٍ وليس لديهن تجربة في أرض بمثل تلك الوعورة، لكن ما من واحدة منهنّ اشتكت. كنَّ ممتنّاتٍ جدّاً لأنّهنّ نجون من الرجال الزرق، ولأنّ هذا الراهب العملاق يبعثُ فيهنّ الثقة المطلقة.

ألقى ألِكساندِر، الذي يُغلق الصفّ خلفَ الأمير وبِّما، نظرةً أخيرةً على مجموعة اللصوص المحزنين الذين خلّفوهم وراءهم. بدا له غير معقولٍ أنّه شاركَ في القتال ضدَّ أولئك القتلة المحترفين؛ فهذه الأشياء لا تُشاهد إلاّ في أفلام العنف. لقد نجا من شيءٍ هو من العنف بحيث يُشبه ما عاشه في الأمازون، حين تواجه الهنود والجنود في معركة خلّفت عدداً من القتلى، حين رأى جثّتين مزّقتهما البهائم. لم يستطع أن يُخفي ابتسامة: السياحةُ مع جدّته كاتْ ليست على الإطلاق للضعفاء.

رأت ناديا أصدقاءها يصلون في صفٍّ متعرّج، فخرجت لاستقبالهم متأثِّرةً، لكنّها جمدت حين رأت رجلاً من الزرق في المجموعة. نظرة ثانية كشفت لها أنّه ديل باهادور؛ لقد تأخّروا أقلّ مما قدّرته، لكنّ تلك الساعات القليلة بدت لها أبديّة. استدعت خلال ذلك حيوانها الطوطمي، آملةً أن يستطيع مراقبتهم من الجوّ، لكنّ النسرَ الأبيض لم يظهر، فاضطرَّت أن تُذعن للانتظار وغصّة في حنجرتها. انتبهت إلى أنّها لا تستطيع أن تتحوّل إلى الطائر الكبيرِ بإرادتها، فهذا لم يكن يحدث إلاّ في لحظات الخطر الكبير أو توسّع عقلي خارق. كان شيئاً شبيهاً بالغيبوبة. النسر يُمثّل روحها، جوهرَ طبيعتها. حين مرّت بالتجربة الأولى معه في الأمازون فوجئت أنها تُصبح طائراً وليسِ أيّ شيءٍ آخر، لأنّها تعاني من الدوار والخوف من المرتفعاتِ يشلُّها. لم تحلم، مثلَ بقيّة الفتيان الذين كانت تعرفهم، بالطيران. لو أنّهم سألوها قبل ذلك ماذا يمكن أن تُصبح روحُها الطوطمية لأجابت بالتأكيد دلفيناً؛ لأنّها كانت تتماهى مع ذلك الحيوان الذكيّ واللعوب. النسر الذي يطير عالياً فوق القمم بكلّ تلك الرشاقة ساعدها بالتغلّب على خوفها المرضي، وإن كانت ما تزال تشعر أحياناً بالخوف من المرتفعات، في تلك اللحظات ذاتها التي كانت ترتعدُ خوفاً وهي ترى الجروفَ الوعرةَ تنشقّ تحت قدميها.

- يا جغوار! - صرخت راكضةً باتجاه صديقها دون أن تُلقي نظرة واحدة على بقيّة أفراد المجموعة.

جاء ردُّ فعل ألِكساندر الأوّلُ بأن يعانقها، لكنّه كبح نفسه: فهو لا يريد أن يُفكّر الآخرون أنّ ناديا فتاته أو ما يشبه ذلك.

- ماذا حدث؟ - سألت هي.

- لا شيء مهمّ... - ردَّ بحركةٍ لا مبالاةٍ مزيّفة.

- كيف حرَّرتم الصغيرات؟

- بسهولة كبيرة: نزعنا سلاح اللصوص، ضربناهم، حرقنا العقارب، دخّنا الكهف، عذّبنا اثنين للحصول على معلومات وتركناهم مربوطين بلا ماء ولا طعام، كي يموتوا ببطء.

صعقت ناديا فاغرة الفم حتى عانقتها بِّما. تبادلتا الحديث حول الحوادث التي عانت منها كلّ منهما منذ أن انفصلتا.

- هل تعلمين شيئاً عن هذا الراهب؟ - همست بِّما في أذن ناديا، مشيرةً إلى ديل باهادور.

- قليل جدّاً.

- ما اسمه؟

- ديل باهادور.

- هذا يعني «القلب الشجاع» اسم على مسمّى. ربّما تزوَّجتُ منه. - قالت بِّما.

- لكنّك تعرَّفت عليه توّاً! وهل طلبَ منكِ أن تتزوَّجي منه؟ - همست ناديا ضاحكةً.

- لا، فعامّةُ الرهبانُ لا يتزوَّجون. لكن من الممكن أن أطلبَ أنا منه ذلك، إذا ما جاءت الفرصة - ردّت بِّما بطبيعية.

15

الجرف

قرَّر تِنسينغ أنّ عليهم أن يأكلوا شيئاً قبل التخطيط لإنزال الفتيات إلى الوادي. علّق ديل باهادور بأنّ الطحين والزبدة التي بحوزتهم لا تكفي للجميع؛ لكنّه عرض مؤونته القليلة على بِمّا والطفلات اللواتي لم يأكلنَ منذ ساعات طويلة. أمره تِنسينغ أن يشعل ناراً لغلي الماء للشاي وإذابة دهن الياك. ولم يكد يجهز هذا حتى مدَّ الراهبُ يديه بين طيات دثاره، حيث يحملُ عادة كيس شحّاذ وراح يُخرج منه، مثل ساحر، حفناتٍ من الحبوب والثوم والنباتات الجافّة وأغذية أخرى ليحضّر العشاءَ أمام دهشة الجميع.

ـ يشبه هذا مضاعفة خبز وأسماك يسوع المسيح الذي يظهر في عهدنا الجديد ـ علّق أَلِكساندِرْ مندهشاً.

ـ معلّمي قديّس كبير. ليست هذه هي المرّة الأولى التي أراه فيها يفعل المعجزات ـ قال الأمير منحنياً باحترام عميق أمام اللاما.

ـ ربّما لم يكن معلّمك قديّساً بقدر ما هو خفيف اليدين، يا ديل باهادور. في كهف اللصوص فائض من المؤن كان يجب ألاّ تضيع ـ ردّ اللاما منحنياً بدوره.

ـ وهل سرقها معلّمي! ـ هتف التلميذ، غيرَ مصدِّق.

ـ لنقل أنّ من المحتمل أن يكون معلّمك قد استعارها... ـ قال تِنسينغ.

تبادل الشبان نظرةَ حيرةٍ وراحوا يضحكون على الفور. جاء هذا الانفجار من الفرح مثل صمّام خرج منه الحزن والخوف الرهيب اللذين عاشوهما أيّاماً. راح الضحك يصيب بعدواه الجميع الذين سرعان ما صاروا على الأرض تهزّهم قهقهاتهم الجامحة، بينما اللاما يُحرّك قِدر *التسامبّا* ويصبّ الشايَ بلطفٍ، دون أن تتبدّل رصانة وجهه أبداً.

هدأ الشبان أخيراً قليلاً، لكن ما إن قدّم لهم المعلِّم العشاءَ المتقشّف حتى تلوّوا ضحكاً من جديد.

- ربّما أردتم بعد أن تستعيدوا عقلكم أن تستمعوا إلى خطّتي...
- اقترح تِنسينغ، دون أن يفقد صبرَه.

قطعت الخطّةُ عليهم ضحكَهم فجأة. ما اقترحه اللاما لم يكن أقل من إنزال الفتيات عبر الجرف. أطلوا على حافّته وتراجعوا مقطوعي النفس: ثمانون متراً من السقوط العمودي تقريباً.

- يا مُعلّمي، ما من أحد هبطه قط - قال ديل باهادور.

- ربّما حانت الفرصة كي يُصبِحَ أحدٌ ما هو الأوّل - ردّ تِنسينغ.

راحت الفتياتُ يبكين، إلاّ بِّما، التي قدّمت للأخريات منذ البداية المثل بالقوّة، وناديا، التي قرّرت هناك بالضبط أنّها تُفضّل أن تموتَ بين أيدي اللصوص أو متجمّدة برداً في صقيع القمم على أن تهبط تلك الهوّة. وضّح تِنسينغ أنّه إذا استخدمت الفتيات هذا الفجّ سيستطعن الوصول إلى إحدى قرى الوادي وطلب النجدة قبل حلول الليل. وإلاّ فإنّهن سيبقين محاصرات هناك في الأعلى تحت خطر العثور عليهن من بقيّة عصابة طائفة العقرب. كان عليهم أن يُعيدوا الفتيات إلى بيوتِهنّ، ويُخبروا الجنرال ميار كونغلونغ كي ينقذ الملك في الدير المحصّن قبل أن يقتلوه. أمّا بالنسبة إليه وإلى ديل باهادور فعليهما أن يسبقاهم للوصول إلى تشيثْان دزونغ بأسرع ما يمكن.

لم يُشارك ألِكساندِر في النقاش بل راح يدرس المسألة. ماذا كان سيفعل والده في مثل هذه الحالة؟ بالتأكيد سيجد جون كولدْ طريقةً ليس للنزول وحسب بل وللصعود أيضاً. فوالده تسلّق جبالاً أكثر شاقولية من هذا؛ وقد فعل ذلك في منتصف الشتاء، أحياناً لمجرّد الرياضة وأحياناً أخرى لمساعدة آخرين تعرضوا لحوادث أو حوصروا. كان جون كولد رجلاً حكيماً ومنهجيّاً، لكنّه لم يكن يتراجع أمام أيّ خطر حين يتعلّق الأمرُ بإنقاذ حياة شخص ما.

ـ أظنّ أنّ باستطاعتي أن أهبط بمعداتِ تسلّقي ـ قال.

ـ كم متراً ارتفاع هذا؟ ـ سألت ناديا دون أن تنظر إلى الأسفل.

ـ كثيراً، لا تكفيه حبالي، لكن هناك نتوءات كالمصاطب يمكننا أن نتدرّج بالهبوط ـ وضّح ألِكس.

ـ ربّما كان هذا ممكناً ـ ردَّ تِنسينغ، الذي وضعَ فكرةَ هذه الخطّة النبيهة، بعد أن رآه ينقذ ناديا من الحفرة التي سقطت فيها.

ـ في هذا مجازفة كبيرة جدّاً؛ من حسن الحظ أنّني أستطيع القيام بذلك؛ لكن كيف تستطيع الفتيات الهبوط، ولا خبرة لديهنّ في تسلّق الجبال؟ ـ قال ألِكساندر.

ـ ربّما خطرت لنا طريقة للهبوط بهنّ... ـ أجاب اللاما؛ وطلب على الفور الصمتَ ليُصلّي، فقد مضى عليه ساعات طويلة دون أن يفعل ذلك.

بينما كان تِنسينغ يتأمّل، جالساً على صخرة ووجهه إلى السماء اللانهائية، راح ألِكساندر يقيس حبله، يعدّ كلاباته، يجرّب كرسيّ التسلّق، يحسب إمكانياته ويناقش مع الأمير طريقة تنفيذ هذا العمل الخطير.

ـ لو كان لدينا طيّارات الحرير على الأقل ـ تنهّد ديل باهادور.

حكى لأصدقائه الأجانب أنّه يوجد في مملكة التنين الذهبي فنّ صناعة الطيارات الحريرية على شكل طائر بأجنحة مضاعفة. وكان

بعضها من الكبر بحيث تتحمّل رجلاً واقفاً بين الأجنحة. كان تِنسينغ خبيراً بهذه الرياضة وعلّمها لتلميذه. تنكّر الأمير طيرانه الأوّل، قبل سنوات، حين عبر عند زيارته لأحد الأديرة من جبل إلى جبل، مستخدماً التيارات الهوائية، التي سمحت له بقيادة آلته الهشّة، بينما ستّة رهبان يمسكون بحبل الطيّارة الطويل.

ـ لا بدّ أن كثيرين قضوا نحبهم بهذه الطريقة... ـ علّقت ناديا.

ـ ليست بالصعوبة التي تبدو لك ـ أكّد الأمير.

ـ لا بدّ أنّها مثل الطائرات ـ علّق أَلِكساندِر.

ـ طيارة بأجنحة من حرير... لا اعتقد أنّني أحبّ أن أجرّبها ـ قالت ناديا ممتنّةً ومتمنّية ألا توجد طيّارة في متناول أيديهم.

كان تِنسينغ يُصلّي كيلا تهبُّ الريح، التي ستمنع محاولة الهبوط. وكذلك صلّى من أجل أن يكون عند الفتى الأمريكي الخبرة والعزم الضروريين، ومن أجل ألاّ تنقص الآخرين الشجاعة.

ـ من الصعب تقدير المسافة من هنا، يا مُعلّم تِنسينغ، لكن إذا كَفَت حبالي إلى ذلك اللسان الضيق الذي يظهر هناك في الأسفل فإنّ باستطاعتي أن أقوم بذلك ـ أكّد أَلِكساندر.

ـ والصغيرات؟

ـ سأنزلهنّ واحدة فواحدة.

ـ إلاّي ـ قاطعته ناديا بقوّة.

ـ ناديا وأنا نريد أن نذهب معكما، أنت وديل باهادور إلى الدير ـ قال أَلِكساندِر.

ـ ومن سيقود الفتيات إلى الوادي؟ ـ سأل اللاما.

ـ ربّما سمح لي المعلّم المحترم القيامَ بذلك... ـ قالت بِمّا.

ـ خمس طفلات وحيدات؟ ـ قاطع ديل باهادور.

ـ ولماذا لا؟

ـ القرار لكِ، وليس لأحدٍ سواكِ، يا بِمّا ـ قال تِنسينغ بينما راح يراقب سعيداً هالةَ الشابة الذهبية.

ـ ربّما كان باستطاعة أيّ منكم أن يقوم بذلك أفضل منّي، لكن إذا أذن لي المعلّم ودعمني بصلواته ربّما استطعت أن أقوم بما يخصّني بكلّ شرف ـ عرضت الشابة نفسها.

كان ديل باهادور شاحباً. قرّر بيقينِ الحبِّ الأوّل الأعمى أنّ بِمّا هي الزوجة الوحيدة بالنسبة إليه في هذا العالم. لم يدخل في حساباته موضوعَ أنّه لم يعرف أخريات وأنّ تجربته تعادل الصفر. خاف أن تتكسّر في عمق الجرف أو أن تضيع أو تتعرّض لأخطارٍ أخرى في حال وصلت سليمة. في تلك المنطقة توجد نمور، ثم إنّه لا يستطيع أن ينسى طائفة العقرب.

ـ أمر خطير جدّاً ـ قال.

ـ تُرى هل قرّر تلميذي أن يُرافِق الشابات ـ سأل تِنسينغ.

ـ لا، يا مُعلِّمي، عليَّ أن أرافقك لإنقاذ الملك ـ تمتم الأميرُ، خجلاً وخافضاً بصره.

قاده اللاما جانباً إلى حيث لا يسمعه الآخرون.

ـ عليك أن تثق بها. قلبها شجاع كقلبك يا ديل باهادور. إذا كانت كارماكما تقضي بأن تجتمعا(*) فسيحدث هذا في جميع الأحوال. وإلاّ فلا شيء مما ستفعله سيبدّل مجرى الحياة.

ـ لم أقل إنّني أريدُ أن أجتمع بها، يا مُعلّمي!

ـ ربّما ليس من الضروري أن تقوله ـ ابتسم تِنسينغ.

قرّر أَلِكساندِر أن يستخدم ساعات النهار المتبقية للإعداد

(*) بمعنى أن تتزوّجا.

لطريق اليوم التالي. أراد قبل كلِّ شيء أن يتأكّد من أنّه يستطيع أن يفعل ذلك بحبليه اللذين يبلغ طول كلّ واحد منهما خمسين متراً. أمضى نصف ساعة وهو يشرح للبقيّة المبادئ الأوّلية للهبوط بالحبل، بعد أن شدّ الكرسيّ(*)، الذي يهبط جالساً عليه، وحتى حركات رخي الحبل وشدّه. الحبل الثاني يُستخدم للأمان. هو لا يحتاجه، لكنّه لا غنى عنه كي تستطيع الفتيات الهبوط.

ـ سأهبط الآن إلى المصطبة وهناك سأقيس المسافة حتى قاع الجرف ـ أعلنَ ما إن ثبَّتَ الحبلَ وسوّى وضعية الكرسي.

راقب الجميعُ مناوراته باستثناء ناديا، التي لم تجرؤ أن تُطلّ على الجرف. بدت تقنية أَلِكساندِر لِتِنسينغ الذي قضى حياته وهو يتسلّق جبال الهيمالايا مثل معزاة مذهلةً. درس باندهاش الحبل الخفيف والقويّ. الكلاّبات المعدنية، أحزمة الأمان، الكرسي العجيب. راقبه متعجّباً وهو يقوم بحركة وداع بيده ويقذف بنفسه في الفراغ جالساً على الكرسيّ. كان يبعد نفسه عن جدار الصخر العموديّ بقدميه بينما يرخي الحبل بيديه، وهكذا راح يهبط قافزاً قفزات بطول ثلاثة إلى خمسة أمتار، دون جهد بادٍ، ووصل في أقلّ من خمس دقائق إلى نتوء الجرف. كان يبدو من الأعلى مصغّراً. بقي هناك قرابة نصف الساعة، يقيس المسافةَ حتى القاع بالحبل الثاني، الذي لفه حول خصره. تسلّق بعدها بجهد أكبر من الجهد المستخدم في الهبوط، لكن دون صعوبات كبيرة. استقبلوه في الأعلى بالتصفيق وصيحات الفرح.

ـ يمكن فعل ذلك، يا مُعلّمي، فالمصطبة واسعة وثابتة، تتسع لي وللفتيات الخمس. والحبل يكفي حتى الأسفل وأظنّ أنّ باستطاعتي أن أُعلّمهن استخدام الكرسي. لكن هناك مشكلة ـ قال أَلِكساندِر.

ـ ما هي؟

(*) arnés درع يرتديه متسلقو الجبال.

ـ سأحتاج في المصطبة للحبلين، لأنّهنّ لن تستطعن فعل ذلك دون حبل أمان. حبل لتعليق الكرسي والثاني يثبت في الصخور بأداةٍ خاصّة، تركتها مثبتةً هناك، تسمح لي بإنزال الفتيات شيئاً فشيئاً. إنّه إجراء أمان لا بدّ منه، فربّما فقدن السيطرة على الحبل الأوّل أو أخفق النظام لأيّ سبب كان. وبما أنّهن لا يملكن تجربة فمن المحال عليهنّ فعل ذلك دون الحبل الثاني.

ـ فهمتُ، لكن عندنا حبلين؛ فما المشكلة؟

ـ سنستخدمهما للوصول إلى المصطبة، بعدها تنزلانهما لي كي أُثبّتهما هناك وأُنزل الفتيات حتى قدم الجرف. كيف سأصعد أنا حين يصبح الحبلان في المصطبة؟ لا أستطيع أن أتسلّق الجدار العموديّ دون مساعدة. فمتسلّق خبير سيتأخّر عدّة ساعات، وأنا لا أظنّ أنّني قادر على ذلك. أي أنّنا نحتاج إلى حبلٍ ثالث ـ وضّح ألِكساندِر.

ـ أو خيط يسمح لنا برفع أحدِ الحبلين من المصطبة إلى هنا ـ قال ديل باهادور.

ـ بالضبط.

لم يكن في متناول أيديهم رباط بطول خمسين متراً. الفكرة الأولى كانت تقتضي بالطبع أن يقصّوا شرائطَ رقيقة من الملابس التي يرتدونها. لكنّهم أدركوا أنّهم لا يستطيعون أن يبقوا شبه عراة في ذلك الطقس، إذ سيموتون برداً. ما من فتاة من الفتيات كانت ترتدي أكثر من السارونغ الحريري الرقيق وسترة صغيرة. فكّر تِنسينغ بلفافات أربطة شعر الياك التي يحتفظ بها في الصومعة، بعيداً عن هناك، لكن ليس لديهم وقت للذهاب في طلبها.

عندها كانت الشمس قد غربت وراحت السماء تكتسي لوناً أزرقَ نيليّاً.

ـ الوقت متأخّر جدّاً. ربّما حانت ساعةُ أن نُحضّر أنفسنا

لنقضي ليلة مريحة إلى هذا الحدّ أو ذاك. وغداً نرى ما الحلّ الذي يخطر لنا ـ قال اللاما.

ـ ليس من الضروري أن يكون هذا الرباط الذي نحتاجه قويّاً جدّاً، أليس كذلك؟ ـ سألتْ بِمّا.

ـ لا، لكنّه يجب أن يكون طويلاً. سنستخدمه فقط لرفع أحد الحبلين ـ ردّ أَلِكساندِرْ.

ـ ربّما استطعنا أن نصنعه... ـ اقترحت هي.

ـ كيف؟ ممَّ؟

ـ جميعنا شعرنا طويل. يمكننا أن نقصّه ونضفره.

ملامح دهشةٍ مطلقة علت الوجوه كلّها. رفعت الفتيات أيديهنّ إلى شعرهنّ الطويل الذي يصل حتى الخصر وداعبنه. ما من مقصّ يمكن أن يمتدّ أبداً إلى شعر امرأة في المملكة الممنوعة، لأنّه يُعتبر هبة الجمال والأنوثة الأعظم. تستخدمه العوازب مسترسلاً ويعطرنه بالمسك والياسمين؛ وتدهنه المتزوِّجاتُ بزيت اللوز ويضفرنه، مشكلات تسريحات محكمة يُزَيِّنَّها بأعواد من فضّة، وبالفيروز والعنبر والمرجان. وحدهنّ الراهبات يتنازلن عن شعرهنّ ويُمضين الحياة حليقات الرأس.

ـ ربّما استطعنا أن نصنع عشرين جديلة من كلٍّ واحدة مضروبة بخمسٍ تساوي مئة جديلة. ولنفترض أنّ كلّ واحدة بطول خمسين سنتيمتراً يصبح عندنا خمسين متراً من الشعر. من المحتمل أن أحصل على قرابة العشرين متراً من رأسي، وبذلك سيزيد معنا ـ وضّحت بِمّا.

ـ أنا عندي شعر أيضاً ـ عرضت ناديا.

ـ إنّه قصير جدّاً، لا أظنُّ أنه يفيد ـ علّقت بِمّا.

راحت إحدى الفتيات تبكي بكاءً مُرّاً. فقصّ الشعر تضحيةٌ أكبر

من اللازم، ولا يمكنهم أن يطلبوا منها ذلك، كما قالت. جلست بِّما بجوارها وراحت تقنعها بلطفٍ بأنّ الشعر أقلّ أهمية من حياتهم جميعاً ومن أمن الملك؛ في جميع الأحوال يعود وينمو.

- وكيف سأظهر بين الناس ريثما ينمو؟ - أجهشت الفتاة.

- باعتزاز هائل لأنّك ساهمت في إنقاذ بلدنا من طائفة العقرب - ردّت بِّما.

وبينما راح الأمير وألِكساندر يبحثان عن جذورٍ وروثِ حيواناتٍ جافٍّ ليشعلوا ناراً صغيرة تحافظ على دفئهما خلال الليل. راح تِنسينغ يتفحّص ناديا ويُسوّي ضماداتها. بدا راضياً تماماً: كتفها كان ما يزال مكدوماً قليلاً، لكنّه سليم وناديا لا تشعر بأي ألم.

استخدمت بِّما سكّينَ جيب ألِكساندِر. لم يستطع ديل باهادور أن ينظر، كان مضطرباً؛ بدا له عملاً حميماً أكثر من اللازم، يكاد يكون مؤلماً. ومع تساقط الشعر الحريري وظهور العنق الطويل والنقرة الهشّة للشابّة راح جمالها يتحوّل وصارت بمّا تُشبِه الصبيّ.

- صار باستطاعتي الآن أن أتسوّل مثل راهبة - ضحكت، مشيرة إلى غفّارة الأمير، التي ترتديها وإلى رأسِها الذي تظهر فيه بعض الخصلات بين الشعر المجزوز.

أخذت بقيّة الفتيات سكّين الجيب وشرعن يجززن شعرهنّ الواحدة للأخرى. ثمّ جلسن في حلقة ليجدلن حبلاً أسود وبرّاقاً تفوح منه رائحة الياسمين والمسك.

ارتاحوا بأفضل ما سمحت به الظروف في الملاذ الصخريّ الضيّق. في مملكة التنين الذهبيّ لم يكن معهوداً الاحتكاك الجسدي بين الأشخاص من جنسين مختلفين، باستثناء الأطفال، لكنّهم اضطروا في تلك الليلة لذلك، لأنّ البرد كان قارساً وليس لديهم من

غطاء غير الثياب التي تعلو أجسادهم وجلدي ياك. عاش تِنسينغ وديل باهادور في القمم وهما يقاومان الطقس أكثر بكثير من البقيّة. كما أنّهما معتادان على أن يعيشا الحرمان وهكذا تنازلا عن الجلدين وحصص الطعام الكبيرة للفتيات. قلّدهما أَلِكساندِر، رغم أنّ أمعاءه كانت تقرقر جوعاً، لأنّه لم يبغِ أن يكون أقلّ كرماً من الرجلين الآخرين. كما وزّع قطعاً صغيرة جدّاً من لوح الشوكولا الذي وجده مهروساً في أسفل حقيبة الظهر.

وبما أنّهم لا يملكون غير القليل من المحروقات كان عليهم أن يحافظوا على النار خفيفة، لكنّ اللهب الضعيف قدّم لهم بعض الأمان. فهو، على الأقل، يُبعدُ عنهم نمور وفهود الثلج التي تقطن تلك الجبال. سخّنوا في قصعةٍ ماءً وحضّروا شاياً بالزبدة والملح، وهو ما ساعدهم على تحمّل شدّة الليل.

ناموا متكوّمين مثل الجراء، يمنح بعضهم بعضاً الدفءَ، تحميهم المغارة التي هم فيها من الريح. لم يجرؤْ ديل باهادور على الاستلقاء بجانب بِمّا، كما كان يرغب، لأنّه خاف نظرة معلّمه الساخرة. انتبه إلى أنّه تفادى أن يُعْلِمها بأنّ الملك أبوه وأنّه لم يكن راهباً عاديّاً مألوفاً. بدا له أنّها ليست اللحظة المناسبة لذلك، لكنه شعر من ناحية أخرى أنّ هذا الحذف خطير كأنّه خدعها. ارتاح أَلِكساندِر وناديا وبوروبا في عناق شديد، وناموا حتى لاحت في الأفق خيوطُ الفجر الأولى.

أمَّ تِنسينغ صلاةَ الصباح الأولى ورتّلوا معاً: *أوم ماني بادْمِ هوم* عدّة مرّات. لم يكونوا يعبدون آلهة، لأنّ بوذا كان محض إنسانٍ أدرك «الإلهام» والفهم الأقصى؛ كانوا يرسلون صلواتهم على أشعّة من الطاقة الإيجابية إلى الفضاء اللامتناهي وإلى الروح التي تسودُ كلّ ما هو موجود. بالنسبة إلى أَلِكساندر، الذي ترعرع في أسرة غنوصية، لا يُمارَس فيها أيّ دين، أدهشه أنّه حتى الأعمال الأكثر

يومية في المملكة الممنوعة مشربة بالشعور المقدّس. الدين في ذلك البلد طريقة في الحياة؛ فكلّ شخص يعتني ببوذا الذي يحمله في داخله. فوجئ أنّه يرتل المانترا المقدّسة بحماس حقيقيّ.

بارك اللاما الطعام ووزّعه بينما مرّرت ناديا قصعتي الشاي الساخن على الآخرين.

ـ ربّما كان هذا اليوم يوماً جميلاً، مشمساً، وبلا ريح ـ أعلن تِنسينغ، سابراً السماء.

ـ ربّما إذا ما أمر المعلّمُ نستطيع أن نبدأ بأسرع ما يمكن، لأنّ الطريق إلى الوادي سيكون طويلاً ـ اقترحت بِّما.

ـ أعتقد أنّكنّ وبقليل من الحظ ستكُنّ في أقلّ من ساعة في الأسفل ـ قال ألِكساندِر، مجهّزاً معداته.

بعد قليل بدأ الهبوط. سوّى ألِكساندر معدّاته وهبط مثل حشرة خلال دقائق حتى المصطبة التي تبرز وسط جدار الهوّة العموديّ. سحب ديل باهادور الحبل ووضع الكرسيّ لِـ بِّما شارحاً لها مرّة أخرى آلية عمل الكلابات.

ـ عليك أن تمضي فالتة نفسك قليلاً فقليلاً. وإذا ما حدثت مشكلة فلا تخافي سأسندك بالحبل الثاني حتى تستعيدي إيقاعك، مفهوم؟ ـ قال.

ـ ربّما من المناسب ألاّ تنظري إلى الأسفل. سنسندك بفكرنا ـ أضاف تِنسنينغ، متراجعاً خطوتين كي يركّز ليرسل طاقة عقلية لـ بِّما.

مرّر ديل باهادور الحبلَ المثبَّتَ إلى شقّ في الصخرة بأدوات معدنية على خصره؛ وأشار إلى بِّما بأنّه جاهز. اقتربت من الهوّة وابتسمت مخفيةً الرعبَ الذي غزاها.

ـ آمل أن نعود ونلتقي ـ همس ديل باهادور، دون أن يجرؤ

على قول أكثر من ذلك، خوفاً من أن ينكشف سرّ الحب الذي راح يخنقه منذ أن رآها لأوّل مرّة.

ـ هذا ما آملُ به أنا أيضاً. سأرفع صلواتي وأقدِّم نذوري كي تستطيعوا أن تُنقِذوا الملك... اعتنِ بنفسك ـ ردّت هي.

أغمضت بّما عينيها قليلاً، عهدت بروحها للسماء، وألقت بنفسها في الفراغ. سقطت مثل حجر عدّةَ أمتار إلى أن تمّكنت من التحكُّم بالكلاّب الذي يشدّ الحبل. وما إن تعلَّمت الآليةَ وأمسكت بالإيقاع حتى استطاعت متابعة الهبوط بثقة، جاءت في كلّ مرّة أكبر. كانت تبتعد عن الجدار بساقيها وتدفع نفسها؛ فتطفو غفّارتُها في الهواء وتبدو من الأعلى خفّاشاً. شعرت بصوت ألِكساندر قبل ما هو متوقّع مشيراً إلى أنّه لم يبقَ إلاّ القليل جدّاً.

ـ تمام! ـ صاح الفتى حين استقبلها بين ذراعيه.

ـ هل هذا هو كلّ شيء. لقد انتهى حين بدأ يعجبني ـ ردّت هي.

كانت المصطبة من الضيق والخطورة بحيث أنّ هبّة ريح باستطاعتها أن تفقدهما التوازن، لكن الطقس ساعدهم كما أعلن تِنسينغ. رفعوا الكرسيَّ من الأعلى ووضعوه لفتاة أخرى. كانت مذعورة ولا تملكُ عريكة بِّما، لكنّ اللاما غرز فيها عينيه الممغنطتين وتمكّن من تهدئتها. هبطت الشابات الأربع، الواحدة بعد الأخرى دون كبير مشاكل، لأنّهن في كلّ مرّة حوصرن أو أُفلتن فيها كان ديل باهادور يسندهنّ بحبل الأمان. حين أصبحن جميعاً على نتوء الجبل الضيّق تبينّ لهم أن من الصعب التحرّك، لأنّ خطر التدحرج إلى الهاوية كبير. كان ألِكساندر قد أخذ هذه الصعوبة بعين الاعتبار، وعلّق في اليوم السابق عدّة كلاّبات كي يستطعن أن يسندن أنفسهنّ. كانوا جاهزين للشروعِ بالهبوط الثاني. أفلت ديل باهادور الحبلين اللذين استخدمهما ألِكساندر لتكرار العملية ذاتها من المصطبة إلى أسفل الهوّة. لم يكن هناك من يستقبل بّما في

الأسفل، لكنّها كانت من الثقة بنفسها بحيث قفزت دون تردُّد. بعد قليل تبعتها رفيقاتها.

لوَّح لهنّ ألِكساندر مودِّعاً متمنّياً من كلٍّ قلبه أن تتمكّن تلك الفتيات الأربع المزدهيات بملابس العيد والصنادل الذهبيّة اللواتي تقودهنّ فتاة أخرى ترتدي ملابس راهبة أن يعثرن على الطريق إلى أوّل ضيعة. رآهنّ يبتعدن، هابطات الهضبة باتجاه الوادي حتى تحوَّلن إلى نقاط صغيرة واختفين. قليلة طرق العربات التي كانت تتمتع بها مملكة التنين الذهبيّ، وكثير منها كان غير صالح في أثناء المطر الكثيف أو العواصف الثلجية، لكن في تلك الفترة لم يكن هناك مشكلة. إذا تمكّنت الفتيات من الوصول إلى طريق لا شكّ سيأخذهنّ أحدٌ ما.

أشار الِكساندر فأفلتَ ديل باهادور ضفيرةَ الشعر الأسود التي ربط في نهايتها حجراً. بعد أن ناور في الأعلى قليلاً كي يوجّهها. سقطت على المصطبة، حيث التقطها ألِكساندِر. لفّ حبلاً وعلّقه إلى خصره، ثمّ ربط الحبل الثاني بالجديلة وأشار إليهما كي يرفعاها. شدّ ديل باهادور الجديلةَ بحذرٍ حتى أمسك بطرف الحبل في قمّة الجرف، ربطه إلى كلاّبٍ وبدأ ألِكساندِر بالصعود.

16

محاربو أهل الثلج

ما إن اطمأنّوا إلى أنّ بِّما وبقيّة الفتيات يمضين باتجاه الوادي حتى شرع اللاما والأمير وألِكساندِر وناديا بالسير إلى أعلى الوادي. كانوا كلّما صعدوا أكثر شعروا بمزيد من البرد. اضطروا في مناسبتين لاستخدام عصوي الراهبين الطويلتين كي يجتازوا هوّات ضيّقة. تبينّ أنّ هذين الجسرين المرتجلين أكثر أماناً وثباتاً مما يبدوان من النظرة الأولى. لم يجد ألِكساندِر، المعتاد على التأرجح على ارتفاعات كبيرة، حين كان يمارس التسلّق مع أبيه، صعوبةً في السيرِ على العصوين والقفزِ إلى الطرف الآخر، حيث تنتظره يد تِنسينغ القويّة، الذي يمضي في المقدّمة، لكنّ ناديا ما كانت لتجرؤ على ذلك وهي في كامل صحّتها فكيف وذراعها مخلوع. كان ديل باهادور وألِكساندر يمسكان بحبل مشدود كلّ على طرف من طرفي الفجّ، بينما تِنسينغ يقوم بالمأثرة حاملاً ناديا تحت ذراعه كأنّها حزمة. الفكرة هي أنّ الحبل يمكن أن يمنحه بعض الأمان في حال حدوث أيّ انزلاق، لكنّ خبرته من العظمة بحيث أنّ الفتيين لم يشعرا بشدّه حين كان يعبر: يد الراهب لا تكاد تلمس الحبل. كان تِنسينغ يترنّح على العصوين لحظة فقط، كأنّه يطفو، وأصبح على الطرف الآخر قبل أن يهوي الرعب بناديا.

ـ ربّما كنتُ على خطأ أيّها المعلِّم المحترم، لكن لا يبدو لي أنّ هذا هو اتجاه تشينثان دزونغ ـ ألمح الأمير بعد ساعات، حين جلسوا قليلاً ليرتاحوا ويحضّروا الشاي.

ـ ربّما تأخّرنا في الطريق المعتاد عدّة أيّام وسبقنا اللصوص. ليست فكرة سيّئة أن نسلك فجّاً... ـ ردّ تِنسينغ.

ـ نفق أهلِ الثلج؟ ـ صاح ديل باهادور.

ـ أظنّ أنّنا بحاجة إلى قليل من المساعدة لمواجهة طائفة العقرب.

ـ وهل يُفكّر معلِّمي المحترم أن يطلبها من أهل الثلج؟

ـ ربّما...

ـ مع كلّ الاحترام، يا معلّمي، أظنّ أن أهل الثلج عندهم من الدماغ ما عند هذا القرد ـ ردّ الأمير.

ـ بهذه الحالة نحن في وضع جيّد لأنّ عند بوروبا من الدماغ بقدر ما عندك. ـ قاطعته ناديا مهانة.

حاول ألِكساندر أن يتابِع الحديث ويلتقطَ الصور التي راحت تتشكّل في ذهنه، لكنّه لم يكن يعرف بالتأكيد عمّا يتكلّمان.

ـ هل فهمتُ جيّداً؟ هل تعنيان رجل الثلج؟ رجل الثلج البغيض؟ ـ سأل.

أشار تنسينغ بالإيجاب.

ـ لقد بحث عنه الأستاذ لودفيك لبلانك سنواتٍ في الهيمالايا وخلص إلى أنّه غير موجود، وأنّه مجرّد خرافة ـ قال ألِكساندِر.

ـ من هذا الأستاذ؟ ـ أراد ديل باهادور أن يعرف.

ـ صديق لجدّتي كاث.

ـ ربّما لم يبحث حيث يجب... ـ ألمح تِنسينغ.

فكرة أن ترى ناديا وألِكس رجلَ ثلجٍ بدث لهما مذهلة، مثل لقائهما الرائع بالبهائم في مدينة الذهب العجيبة في الأمازون. قارنوا تلك الحيوانات ما قبل التاريخية برجلِ الثلوج الكريه نظراً للآثار الهائلة التي خلّفوها وراءهم ولسلوكهم الحذر. أيضاً كان يقال عن تلك البهائم إنّها خرافية، لكنّهما تأكّدا من وجودها.

ـ جدّتي ستُصاب بجلطة حين تعلمُ أنّنا رأينا رجلَ ثلج ولم نلتقط له صوراً ـ تنهّد ألِكساندِر، مفكِّراً أنّه وضع شيئاً من كلّ شيءٍ في حقيبة ظهره إلاّ الكاميرا.

تابعوا مسيرتهم بصمت، لأنَّ كلّ كلمة كانت تقطع أنفاسهم؛ وناديا وألكساندِر يعانيان من نقص الأوكسجين أكثر من الآخرين، لأنّهما غير معتادين على المرتفعات. كانا دائخين ويؤلمهما رأساهما، ووصلا عند المساء إلى حافّة انهيار قواهما. إذ سرعان ما بدأت ناديا تنزف من أنفها، وانحنت وتقيّأت. بحث تِنسينغ عن مكانٍ محميّ وقرّر أن يرتاحوا هناك. وبينما راح ديل باهادور يعدّ التسامبا ويغلي الماء كي يعدّ شاياً طبياً، خفّف اللاما من حالة ناديا وألِكساندر السيّئة بالإبر.

ـ أعتقد أنّ بِّما والفتيات الأخريات أصبحن في منجاة. وربّما يعني هذا أنّ الجنرال ميار كونغلونغ سيعلم بأنّ الملك موجود في الدير... ـ قال تِنسينغ.

ـ كيف تعرفُ، يا مُعلِّمي المحترم؟ ـ سأل ألِكساندِر.

ـ دماغ بِّما ما عاد يبثّ خوفاً كثيراً. طاقتها مختلفة.

ـ سمعت بالتخاطر، يا مُعلِّمي، لكنّني لم أتصوّر قط أنّه يعمل مثل خليوي.

ابتسم اللاما بلطف. إذ لم يكن يعرف ما هو الخليوي.

اتخذ الشبان أكثر الوضعيات الممكنة راحة، لائذين بين

الحجارة، بينما راح تِنسنغ يريح دماغَه وجسده، ويراقب بالحاسّة السادسة لأنَّ هذه القمم هي أرض النمور البيضاء الكبيرة. شعروا بالليلة طويلة وباردة جدّاً.

وصل الرحالة إلى مدخل النفق الطبيعي الطويل الذي يؤدي إلى وادي أهل الثلج السرّي. كانت ناديا وألِكساندر قد بدأا يشعران بالإنهاك، وجلدهما يحرقه انعكاس الشمس على الثلج وعلت القشرة شفاههما الجافّةَ والمشقّقة. كان النفق من الطول ورائحة الكبريت فيه من الكثافة بحيث أنّ ناديا ظنّت بأنّهم سيموتون اختناقاً، لكنّها كانت نزهة بالنسبة إلى ألِكساندِر الذي توغّل عميقاً في أرض مدينة البهائم. بالمقابل كان تِنسينغ، الذي يبلغ طوله مترين، لا يكاد يستطيع المرور في بعض المناطق، لكنَّه ونظراً لأنّه قطعه قبل ذلك كان يمضي بثقة.

كانت دهشةُ ناديا وألِكس حين نزلا في وادي أهل الثلجِ هائلة. لم يكونا مهيَّئين كي يجدا بين قمم الهيمالايا المتجمّدة مكاناً يستحمّ بالبخار الحار، تنمو فيه نباتات لا توجد في بقيّة العالم. خلال دقائق قليلة عادت إلى جسديهما الحرارةُ، التي لم يشعرا بها منذ أيّام وصار باستطاعتهما أن يخلعا سترتيهما. أطلّ بوروبا، الذي كان يسافر مخدّراً تحت ثياب ناديا، ملتصقاً بجسدها، برأسه وحين شعر بالهواء دافئاً استعاد مزاجه الرائق المعتاد: كان في عالمه.

إذا لم يكونا معتادين على أعمدة البخار، وأغمار المياه الكبريتية وضباب الوادي الحار، والأزهار الشحمية البنفسجية، وقطعان التشِغْنُوَات، التي تتيه راعيةً عشب الوادي الجاف، فلن يعتادا على رؤية أهل الثلج الذين سيخرجون للقائهم بعد قليل.

واجهتهم جماعة من الذكور المسلحين بالهراوات، صارخين وقافزين مثلَ مجانين. حضّر ديل باهادور قوسه، لأنّه أدرك أنّ أهل

الثلج لن يستطيعوا أن يتعرّفوا عليه وهو في ثياب اللص. ناديا وألِكساندر اللذان لم يتخيّلا قط أن يكون لأهل الثلج ذلك المظهر المريع وقفا غريزياً خلف تِنسينغ. بينما تقدّم هذا واثقاً، جامعاً يديه أمام وجهه، انحنى وحيّاهم بطاقة عقلية وكلماتٍ قليلة يعرفها من لغتهم.

مضت ثلاث دقائق أبدية قبل أن تتذكّر أدمغةُ أهلِ الثلج زيارةَ اللاما قبل أشهر عدّة. لم يُبْدوا لطفاً عند التعرّف عليه، لكنَّهم تخلّوا على الأقل عن رفع هراواتهم على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من جماجم المسافرين.

ـ أين غْرْرْ ـ يمبّرْ؟ ـ سأل تِنسينغ.

قادوهم، دون أن يتوقّفوا عن الزمجرة وعن مراقبتهم عن قرب، إلى الضيعة. تبيَّن اللاما مسروراً أنّ المحاربين كانوا على العكس من المرّة الماضية، مليئين بالطاقة وأن في القرية أناثاً وأطفالاً أصحّاء. لاحظ أنّه ما من أحد لسانه بنفسجيّ، وأنّ شعرهم الضارب إلى البياض، الذي يُغطّيهم من الرقبة حتى القدمين لم يعد عجينة كتيمة من الأوساخ. بعضهنّ لم يكنّ نظيفات إلى هذا الحدّ أو ذاك وحسب، بل ويبدو أنّهنّ نعّمن جلودهن، وهو ما أثار فضوله إلى حدٍّ بعيد، لأنّه لم يكن يعرف شيئاً عن غنج الأنثى.

لم تتغيّر الضيّعة، فهي ما زالت كتلة من الجحور والمغائر تحت طبقة الحمم المتحجّرة التي تشكّل القسم الأكبر من المنطقة. فوق هذه القشرة طبقة رقيقة من التربة الخصيبة إلى هذا الحدّ أو ذاك بفضل حرارة ورطوبة الوادي، التي تمدّ أهل الثلجِ بالغذاء وبحيواناتهم المدجّنة الوحيدة، التشِغنوات. قادوهم مباشرة إلى حضرة غرْرْ ـ يمبّر.

كانت الساحرة قد شاخت كثيراً. حين عرفوها كانت عجوزاً كفاية، لكنّها الآن تبدو ألفية. وإذا ما بدا الآخرون أكثر عافية ونظافة فقد بدت هي بالمقابل حزمة من العظام المعوجّة التي

يغطيها الجلد المدهن. على وجهها الرهيب تسيل إفرازات الأنف والعينين والأذنين، ورائحة القذارة والتفسخ التي تصدر عنها بلغت من النتن حدّ أنّ تِنسينغ نفسه، رغم عمله الطبيّ المتواصل، لم يستطِع أن يتحمّلها. تواصلا تخاطراً مستخدمين الكلمات القليلة المشتركة.

ـ أرى شعبك سليماً يا غرر ـ يمبّز المحترمة.

ـ المياه خزامية اللون: ممنوعة. من يشربها: يُضرب بالعصا ـ ردّت هي سطحياً.

ـ يبدو العلاج أسوأ من المرض ـ ابتسم تِنسينغ.

ـ مرض، لا يوجد ـ أكّدت العجوز، غير معنيّة بسخرية الراهب.

ـ يُسعِدني جدّاً. هل ولِدَ أطفال؟

أشارت بأصابعها أنّ عندهم اثنين، وأضافت بلغتها إلى أنّهما سليمان. فهم تِنسنيغ بصعوبة الصور التي راحت تتشكّل في ذهنها.

ـ من هم رفاقك؟ ـ دمدمت.

ـ هذا تعرفينه، إنّه ديل باهادور، الراهب الذي اكتشف السمَّ في مياه النبع خزامية اللون. الآخران صديقان أيضاً، جاءا من مكان بعيد جدّاً، من عالمٍ آخر.

ـ لماذا؟

ـ جئنا نطلب مساعدتك بكلٍّ احترام، يا غرْرْ ـ يمبّر المحترمة. نحتاج إلى محاربيك لإنقاذ ملك اختطفه بعض اللصوص. نحن ثلاثة رجال وطفلة فقط، لكن ربّما استطعنا بمساعدة محاربيك أن نهزمهم.

فهمت العجوزُ من هذا اللغط أقلّ من النصف، لكنّها فهمت أنّ العجوز جاء يقبض ثمن المعروف الذي صنعه لهم من قبل. يريد أن يستخدم مقاتليها. هناك معركة. لم تُعجبها الفكرة لأنّها منذ عقود

وهي تحاول أن تبقي عدوانية أهل الثلج الرهيبةِ تحت سيطرتها.

- محاربون يقاتلون: محاربون يموتون. ضيعة بلا محاربين: ضيعة تموت أيضاً - اختصرت.

- صحيح، إنَّ ما أطلبه منك معروف كبير جدّاً، يا غرْز - يمبْرْ المحترمة. ربّما وقعت معركة خطيرة. لا أستطيع أن أضمن أمن محاربيك.

- غرْزْ - يمبّر تموت - دمدمت العجوز وهي تضرب على صدرها.

- أعرف، يا غرْزْ - يمبّر.

- غرْزْ - يمبّر ميتة: مشاكل كثيرة. أنت تشفي غرْز - يمبّرْ: أنت تأخذ محاربين - عرضت هي.

- لا أستطيع أن أشفيك من الشيخوخة يا غرْزْ - يمبّرْ المحترمة. انتهى وقتك في هذا العالم، جسدك تعب وروحك ترغب بالرحيل. لا سوء في هذا - وضّح الراهب.

- إذن لا محاربين - قرّرتْ.

- لماذا تخافين الموت أيّتها العجوز المحترمة؟

- غرْزْ - يمبّرْ: ضرورية. غرْزْ - يمبّرْ تأمر: أهل الثلج يطيعون. غرْزْ - يمبّر ميتة: أهل الثلج يقاتلون. أهل الثلج يقتلون، أهل الثلج يموتون: نهاية - ختمتْ.

- أفهم أنك لا تستطيعين أن تذهبي من هذا العالم لأنّك تخافين أن يتألّم شعبك. ألا يوجد من يحل محلّك؟

نفت بحزن. فهم تِنسينغ أنّ الساحرة تخاف أن يعود أهل الثلج وقد تعافوا وامتلؤوا حيوية، كما فعلوا من قبل، ويقتل بعضهم بعضاً حتى يختفوا عن وجه الأرض.

تعلّقت تلك المخلوقاتُ، شبه الإنسانيّة، بقوّة وحكمة الساحرة

أجيالاً عدَّة: كانت أمّاً صارمة، عادلة وحكيمة، يطيعونها بشكلٍ أعمى، لأنّهمَ يعتقدونها مالكةً لقوى خارقة؛ ولولاها لأصبحت القبيلة في مهبّ الريح. أغمض اللاما عينيه، ومكثتا دقائقَ غائبتين وعندما عاد تِنسينغ وفتحهما أعلن عن خطّته بصوتٍ عالٍ كي تفهمها ناديا وألِكساندِر أيضاً.

ـ إذا ما أعرتني بعض المحاربين، أعدكِ بأن أعود إلى وادي أهل الثلج وأبقى ستّ سنوات. أقدّم نفسي بتواضع لأحلّ محلّكِ، ياغرْزْ ـ يمبّرْ، وهكذا تستطيعين أن تذهبي إلى عالم الأرواح بسلام. سأعتني بشعبك، وسأعلّمه كيف يعيش بأفضل ما يمكن، وألا يقتل بعضهم بعضاً، وأن يستخدموا موارد الوادي. سأدرّب أكفأ أحد أهل الثلج كي يصبح بعد ستّ سنوات زعيمَ القبيلة أو زعيمتها. هذا ما أُقدّمه...

حين سمع ديل باهادور هذا نهض على قدميه بقفزة واحدة، وواجه معلِّمه شاحباً من الرعب، لكنَّ اللاما أوقفه بإيماءة: لا يستطيع أن يضيع التواصل العقلي مع العجوز. احتاجت غرْزْ ـ يمبّرْ عدّة دقائق كي تستوعب ما كان يقوله الراهب.

ـ موافقة ـ قبلت بتنهيدة ارتياح عميقة، لأنّها أصبحت أخيراً حرَّة في أن تموت.

ما كادا يصبحان وحيدين لحظةً حتى طلب ديل باهادور توضيحاً من معلّمه المحبوب، وعيناه مليئتان بالدموع. كيف يمكن أن يقدِّم للساحرة مثل ذلك؟ فمملكة التنين الذهبي تحتاجه أكثر من أهل الثلج بكثير، فهو لم ينهِ تعليمه، صاح، والمعلِّم لا يستطيع أن يتركه بهذه الطريقة.

ـ ربّما أصبحتَ ملكاً قبل ما هو مخطّط لك يا ديل باهادور.

وستّ سنوات تمضي سريعاً. وربّما استطعت أن أساعد أهل الثلج في هذا الوقت.

- وأنا؟ - صاح الشابُّ، وهو غير قادر على تصوُّر حياته من دون معلمه.

- ربّما أنتَ أقوى وأفضل إعداداً مما تظنّ... أفكّر أن أترك وادي أهل الثلج خلال ستّ سنواتٍ لأربّي ابنك، ملك مملكة التنين الذهبي المستقبلي.

- أيّ ابنٍ، يا مُعلّمي؟ ليس عندي أيّ ابن.

- الذي ستنجبه من بِّما - ردّ تِنسينغ بهدوء، بينما احمرّ الأمير خجلاً حتى أذنيه.

تابعت ناديا وألِكساندر النقاش بصعوبة، لكنّهما التقطا المعنى ولم يُظهر أيّ منهما دهشة أمام نبوءة تِنسينغ فيما يتعلّق بِـ بِّما وديل باهادور أو خطّته ليصبح معلماً لأهل الثلج. فكّر ألِكساندر بأنّ كلّ ذلك كان سيبدو قبل عام جنوناً، لكنّه يعلم الآن كم هو غامِض العالم.

تمكّن ألِكساندر مستفيداً من التخاطر والكلمات القليلة التي تعلّمها من لغة المملكة الممنوعة، والكلمات التي التقطها ديل باهادور بالإنكليزية، والقدرة اللامعقولة للغات ناديا، أن يوصل إلى أصدقائه أنّ جدّته كتبت تحقيقاً للـ *إنترناشيونال جيوغرافيك* عن بوما(*) على وشك الانقراض في كاليفورنيا. كان موجوداً في منطقة صغيرة وعصيّة، لم يختلط بغيره ونظراً لأنّ توالده كان دائماً في العائلة ذاتها فقد ضَعِف وفقر. إنّ أمن أيّ نوع هو التنوّع. وضّح أنّه لو كان هناك صنفٌ واحد من الذرة مثلاً، فسرعان ما ستقضي عليه

(*) البوما: نوع من الفهود الأمريكية.

الأوبئة وتقلّبات الطقس، لكن وبما أنّه توجد مئات الأنواع، إذا انقرض صنف نما آخر. التنوّع يضمن البقاء.

- ماذا جرى للبوما؟ - سألت ناديا.

- أخذوا إلى فلوريدا بعضَ الخبراء الذين أدخلوا أصنافاً أخرى شبيهة بالبوما، فاختلطت وتجدّدت خلال أقل من عشر سنوات.

- هل تعتقد أنّ هذا ما يحدث أيضاً لأهل الثلج؟ - سأل ديل باهادور.

- نعم. لقد عاشوا معزولين زمناً أطول من اللازم، إنّهم قليلون، ولا يختلطون إلاّ فيما بينهم، لذلك هم بهذا الضعف.

مكث تِنسينغ يفكّر فيما قاله الفتى الأجنبيّ. في جميع الأحوال حتى ولو خرج أهل الثلج من الوادي فليس هناك من يختلط بهم، لأنّه بالتأكيد لا يوجد آخرون من نوعهم في العالم وما من كائن بشري مستعدّ ليكوّن أسرة معهم. لكن عاجلاً أو آجلاً يجب أن يندمجوا في العالم، هذا أمر لا مفرّ منه. يجب القيام بذلك بحكمة، لأنّ احتكاكهم بالناس يمكن أن يكون شؤماً عليهم. كان ذلك ممكناً فقط في الجوّ المحمي في مملكة التنين الذهبي.

أكل الأصدقاءُ في الساعات التالية وارتاحوا قليلاً كي يعيدوا القوّة لأجسادهم المنهكة. عندما سمع رجال أهلِ الثلج بأنّ هناك قتالاً أرادوا جميعاً أن يذهبوا، لكنّ غرزْ - يمبّرْ لم تسمح بذلك، لأنّه لا يمكن أن تبقى الضيعة دون رجال. حذّرهم تِنسنيغ من أنّهم قد يموتون لأنّهم سيواجهون كائنات بشرية ملعونة يسمون «الرجال الزرق»، أقوياء جدّاً ومعهم خناجر وأسلحة نارية. لم يكن أهل الثلج يعرفون ما تعني هذه الأشياء فشرحها لهم تِنسينغ بأكثر ما استطاع من مبالغة، واصفاً الجراح التي تُحدِثها، ودفق الدم وتفاصيل أخرى ليُحمِّس رجال أهلِ الثلج. وهذا ما جدّد خيبة من كان عليهم أن يبقوا في الوادي: فما من أحدٍ منهم أراد أن يضيع فرصة التسلية بالقتال

ضدّ البشر. مرّوا واحداً فواحداً في عرضٍ أمام اللاما وهم يقفزون ويُطلِقون صرخات مروِّعة كاشفين عن أسنانهم وعضلاتهم كي يخيفوهم. وهكذا استطاع تِنسينغ أن يختار عشرة من أسوئهم مزاجاً وهالةً حمراء.

تفحَّص اللاما بنفسه دروع رجال أهلِ الثلج الجلديّة التي يمكن أن تخفّف من طعنة الخنجر، لكنّها غير فاعلة بالنسبة للرصاص. هذه المخلوقات العشر، التي لا تكاد تكون أذكى من الشمبانزي، لا يمكنها أن تنتصر على رجال العقرب، مهما بلغت ضراوتها، لكنّ اللاما قدَّر عنصر المفاجأة. فرجال العقرب متطيّرون، وإذا كانوا قد سمعوا عن أهلِ الثلج إلا أنّهم لم يروا أحداً منهم قط.

ذبحوا في ذلك المساء، بأمرٍ من غرزْ - يمبّرْ، تشِغنوين ترحيباً بالزوار. وتناول ديل باهادور وتِنسينغْ بكثير من الاشمئزاز دم الحيوانين، لأنّهما لا يتصوّران التضحية بأيّ كائن حي، ودهنوا به جلود المحاربين المختارين المشعرة. وباستخدام شرائط جلدية وأطول القرون والعظام صنعا خوذاتٍ مريعة، مصبوغة بالدم وضعها رجالُ أهل الثلجِ على رؤوسهم بكثير من صيحات الفرح، بينما راحت الإناث والأطفال يقفزون إعجاباً. انتهى المُعلِّم وتلميذه بسرور إلى أنَّ منظر رجال الثلج يخيف أشجع الشجعان.

أراد الرجالُ الإبقاء على ناديا في الضيعة، لكنّهم لم يفلحوا في إقناعها واضطروا أخيراً لقبول أن تذهب معهم. لم يكن ألِكساندر يريد أن يُعرِّضها للأخطار التي تنتظرهم.

- من الممكن ألاّ يخرج أحدٌ منّا حيّاً، يا نسر... - علّل.

- عندها سيكون عليَّ أن أقضي بقيّة حياتي في هذا الوادي دون أيّة رفقة غير رفقة أهل الثلج. سأذهب معكم، يا جغوار! - ردّت.

- على الأقل ستكونين آمنة نسبياً هنا. لا أعلم ما سنواجهه في ذلك الدير المهجور، لكن بالتأكيد لن يكون شيئاً لطيفاً.

ـ لا تعاملْني كأنّني طفلة. أعرف كيف أعتني بنفسي وحدي، فعلت ذلك خلال ثلاث عشرة سنة وأظنّ أنّ باستطاعتي أن أكون مفيدة.

ـ حسناً، لكنّك ستفعلين ما أقوله تماماً ـ قرّر ألِكس.

ـ لا تحلم بذلك. سأفعل ما يبدو لي مناسباً. أنت لستَ خبيراً، وما تعرفه عن القتال قليل كمعرفتي ـ ردّت ناديا، وكان عليه أن يعترف بأنّه لا ينقصها الحق.

ـ ربّما كان من الأفضل أن ننطلق ليلاً، هكذا سنصل إلى الطرف الآخر من النفق مع الفجر ونستغل الصباح للوصول إلى تشينثان دزونغ ـ اقترح ديل باهادور ووافقه تِنسينغ.

استلقى رجالُ أهل الثلج، بعد العشاء اللذيذ، على الأرض وراحوا يشخرون، دون أن ينزعوا عنهم الخوذات التي تبنوها كرمز للشجاعة. كانت ناديا وألِكساندر من الجوع بحيث أنهما التهما حصّتهما من لحم التشِغنو المشوي، على الرغم من طعمه المرّ والشعر الشائط الملتصق به. حضّر تِنسينغ وديل باهادور تسامباهما وشايهما، وجلسا يتأمّلان ووجهاهما باتجاه قبّة السماء الفسيحة، التي لم يكن باستطاعتهما أن يريا نجومها. في الليل ومع انخفاض درجات الحرارة كان بخارُ المنافذ البركانية يتحوّل إلى ضبابٍ كثيف يُغطّي الوادي مثل غطاء قطني. لم يرَ أهلُ الثلج النجومَ قط، وكان القمر بالنسبة إليهم هالة من نور أزرق غامض، يظهر أحياناً بين الضباب.

17

الدير المحصّن

كان تِكس أرماديّو يُفضِّل الخطة الأوّلية للانسحاب من تونخالا ومعه الملك والتنين الذهبي، في طائرة مروحية مزوَّدة برشّاش، تهبط في اللحظة الدقيقة في حدائق القصر. ما كان باستطاعة أحد أن يوقفهم. فالقوات الجوّية لهذا البلد كانت مؤلّفة من أربع طائرات عفا عليها الزمان، حصلوا عليها من ألمانيا منذ أكثر من عشرين عاماً، ولا تطير إلا بمناسبة العام الجديد، مطلقة طيوراً من ورق فوق العاصمة لتمتّع الأطفال. وتشغيلها لاصطيادهم يستغرق عدّة ساعات وهو ما يمنح المروحية فائضاً من الوقت كي تصل إلى أرضٍ مأمونة. ومع ذلك فقد بدّل المُتخصِّص الخطّة في آخر ساعة دون أن يُقدّم مزيداً من التوضيحات. اكتفى بالقول بأنّه ليس من المناسب لفت الانتباه وأقل من ذلك رشّ سكانِ المملكة الممنوعة المسالمين بالرصاص، لأنّ هذا سيثير فضيحة دولية. وزبونه المُقتني، كان يطالب بالحذر.

هكذا اضطرّ أرماديّو أن يقبل الخطّة الثانية، التي كانت أقلّ مرونة وأماناً من الأولى. وما إن أمسك بالملك في الحظار المقدّس حتى أغلق فمَهُ بشريط لاصق، وحقنه حقنة في ذراعه جعلته يتخدّر في خمس دقائق. كانت التعليمات تقتضي ألاّ يصاب بأذى، فالملك

يجب أن يصل إلى الدير حيّاً وسليماً، لأنّ عليهم أن ينتزعوا منه المعلومة الضرورية لفكّ رموز رسائل التمثال.

ـ حذارِ، فالملك يُتقِن فنون القتال ويستطيع أن يُدافع عن نفسه. لكنّني أحذّركم ستدفعون الثّمن غالياً إن أنتم آذيتموه ـ هذا ما قاله المُتخصّص.

كان تِكس أرماديّو قد بدأ يفقد صبره مع رئيسه، لكن لم يكن هناك وقت للتعبير عن استيائه.

كان اللصوص الأربعة خائفين وقلقين، لكنَّ هذا لم يمنعهم من سرقة بعض الشمعدانات والمباخر الذهبية. كانوا مستعدين لاقتلاع المعدن الثمين من الجدران بخناجرهم حين نبح الأمريكي بأوامره.

أخذ اثنان منهم جسد الملك المتصلّب من كتفيه ورسغيه، بينما راحَ الآخران يسحبان التمثال الثقيل عن قاعدته الحجرية السوداء، التي بقي فوقها ثمانية عشر قرناً. كانت انعكاسات التراتيل وأصوات التنين الغريبة ما تزال تُحسُّ في القاعة. ولم يكن باستطاعة تِكس أرماديّو أن يتوقّف لفحصه، لكنّه افترض أنّه مثل آلة موسيقية. لم يكن يعتقد أنّ باستطاعته أن يتنبّأ بالمستقبل فتلك خرافة للجهلة، وفي الحقيقة لم يكن يهمّه هذا الأمر: فالقيمة الأصلية لهذا الغرض لا تُقدّر بثمن. كم سيربح المُتخصّص من هذه المهمّة؟ بالتأكيد ملايين كثيرة من الدولارات. ثم فكّر: كم سيصيبه منها؟ لن يكاد يكون إكرامية.

مرّر رجلان من الرجال الزرق بعض أحزمة الخيل تحت التمثال وبهذه الطريقة رفعوه بجهدٍ. عندها فهم أرماديّو لماذا طلب المُتخصّص منه أن يحمل معه ستّة لصوص. الآن هو بحاجة للاثنين اللذين ماتا في أفخاخ القصر.

لم تكن العودة سهلة، رغم أنّهم أصبحوا يعرفون الطريق واستطاعوا أن يتفادوا عدداً من العوائق، لأنّهم كانوا يحملون الملكَ

والتمثال اللذين كانا يربكان حركاتهم. وسرعان ما انتبه إلى أنّ الأفخاخ لا تُفعّل عند العودة. طمأنه ذلك، لكنّه لم يستعجل ولم يُقلّل من احتراسه لأنّه كان يخاف أن يخبّئ هذا القصر مفاجآت كثيرة مزعجة. ومع ذلك وصلوا إلى الباب الأخير دون تعثّر. وعندما عبروا العتبة رأوا جثتي الحارسين الملكيين المطعونين، كما تركوهما، وما من أحدٍ منهم انتبه إلى أنّ أحد الجنديين كان ما يزال يتنفّس.

وباستخدام جهاز الـ(GPS) قطع اللصوص متاهة الغرف متعدِّدةِ الأبواب وأطلّوا على الحديقة في ظلال القصر حيث كانت تنتظرهم بقيّة العصابة. كانوا قد أسروا جوديت كينسكي؛ التي عليهم، بحسب الأوامر، ألاّ ينوّموها بالحقنة، كما فعلوا مع الملك، كما لم يكن باستطاعتهم أن يسيئوا معاملتها. اللصوص الذين لم يروا المرأة من قبل لم يفهموا الهدف من حملها معهم، وتِكس أرماديّوا لم يُعطِ توضيحات.

كانوا قد سرقوا شاحنة من القصر تنتظرهم في الشارع بجانب خيول اللصوص. تفادى تِكس أرماديّو النظر مواجهةً إلى جوديت كينسكي، التي بقيت هادئة كفاية رغم الظروف، وأشار إلى رجاله أن يلقوها في السيّارة بجانب الملك والتمثال المغطّيين بالخيش. استوى خلف المقود لأنّه ما من أحد غيره كان يعرف استخدامه، يرافقه زعيم المحاربين الزرق وأحد اللصوص. وبينما توجّهت الشاحنة باتجاه طريق الجبال الضيِّق، تفرَّق البقيّة ليجتمعوا فيما بعد في مكان من غابة النمور، كما أمر المُتخصِّص، ومن هناك سيشرعون بالسير نحو تشينثان دزونغ.

كان على الشاحنة، كما هو مخطّط، أن تتوقّف عند مخرج تونخالا، حيث أقام الجنرال ميار كونغلونغ دورية لمراقبة الطريق. وكان إخراج الرجال الثلاثة الذين يقومون بالحراسة من المعركة وارتداء ملابسهم الموحّدة بالنسبة إلى تِكس أرماديّو واللصوصِ لعبَ أطفال، فالشاحنة تحمل شعارات البيت الملكي، مما جعلهم

يجتازون مواقع المراقبة الأخرى دون أن يتعرَّضوا لأيّ إزعاج ويصلوا إلى غابة النمور.

كانت الغابة الشاسعةُ بالأصل منطقةَ صيدٍ حصرية للملوك، لكن منذ قرون عدّة لم يكرّس أحدٌ نفسه لهذه الرياضة الوحشية. وتحوّلت الحديقة الفسيحة إلى محميّة طبيعية، تتكاثر فيها أغرب أنواع النباتات والحيوانات في المملكة الممنوعة. وإلى هناك تذهبُ النمرات في الربيع لتضع مولوداتها. كان الطقسُ الوحيد في البلد، الذي يتراوح حسب الفصول بين الرطوبةِ الاستوائية الدافئة وبرد المرتفعات الجبلية الشتوي، يفسحُ المجالَ لمجموعة من النباتات والحيوانات الفريدة، فهي جنّة بالنسبة لأنصار البيئة. جمال المكان بأشجاره الألفية، وجداوله الرقراقة وسحلياته ودفلاه وطيوره مُتعدّدة الألوان لم يؤثّر أدنى تأثير على تِكس أرماديّو ولا على اللصوص: الشيء الوحيد الذي شغلهم هو ألا يجذبوا النمور إليهم ويرحلوا من هناك بأسرع وقتٍ ممكن.

فكّ الأمريكيّ قيد جوديت كينسكي.

ـ ماذا تفعل! ـ صاح زعيم اللصوص، مُهدِّداً.

ـ لا تستطيع الهرب، أين ستذهب؟ ـ قال الآخر بنوع من التوضيح.

فركت المرأة معصميها ورسغيها حيث تركت الأربطة علامات حمراء. راحت عيناها تدرسان المكان، وتتابعان كلّ حركة من حركات خاطفيها لتعودا دائماً إلى تِكس أرماديّو، الذي كان يُصرّ على إبعاد نظره عنها وكأنّه لا يُقاوم نظرتها. اقتربت جوديت من الملك دون أن تطلب إذناً، وراحت تنزع الشريط اللاصق الذي يكممه، شيئاً فشيئاً كيلا تمزّق شفتيه. انحنت فوقه ووضعت أذنها على صدره.

ـ سرعان ما سيزول أثر الحقنة ـ علّق أرماديّو.

ـ لا تحقنه أكثر، يمكن لقلبه أن يتوقّف ـ قالت بنبرة لم تبدُ توسلاً، بل أمراً غارزة بؤبؤيها الكستنائيين في تِكس أرماديّو.

ـ لن يكون ضرورياً. ثمَّ إنَّ عليه أن يمتطي جواداً وهكذا من الأفضل له أن يغتسل ـ ردّ مديراً ظهره إليها.

حين نفذت أولى أشعّة الشمس إلى الغابة الكثيفة اقتحمها النور ذهبياً، مثل عسل كثيف، موقظاً القرودَ والطيورَ في جوقة صاخبة. كان ندى الليل يتبخّر من الأرض ويلفّ المنظر بضباب أصفرَ يمحو أطراف الأشجار العملاقة. زوج من دببة الباندا راح يتأرجح من غصن فوق رؤوسهم. طلع الصبح تماماً حين اجتمعت عصابة طائفة العقرب. ولم يكد يوجد ما يكفي من النور حتى راح أرماديّو يلتقط صوراً للتمثال بكاميرا فورية، أمر بعدها بلفّه بالخيش ذاته الذي استخدموه في الشاحنة وربطه بالحبال.

كان عليهم أن يتركوا العربة ويتابعوا صعود الجبل على ظهر جوادٍ عبر دروب لا تكاد تكون قابلة للسير، لم يستخدمها أحدٌ منذ بدّل الزلزال معالم المكان وهُجر تشينثان دزونغ، كما هُجر غيره من أديرة المنطقة. دون شكّ، كان الرجالُ الزرق الذين يمضون حياتهم على ظهور الجياد واعتادوا على كلّ أنواع الأرض الوحيدين القادرين على الوصول إلى هناك؛ فهم يعرفون الجبال جيّداً ويعرفون أنّه ما إن يحصلوا على تعويضهم مالاً وسلاحاً حتى يستطيعوا الوصول إلى شمال الهند في ثلاثة أو أربعة أيّام. من ناحيته كان تِكس أرماديّو يملك تحت تصرّفه المروحية التي عليها أن تأخذه مع الغنيمة من الدير.

استيقظ الملكُ لكنّ تأثير المخدّر استمرّ؛ وبقي مشوّشاً ودائخاً لا يدري ما الذي حدث. ساعدته جوديت كينسكي على الجلوس، ووضّحت له أنّهما اختُطِفا وأنّ اللصوص سرقوا التنين الذهبيّ. أخرجت مطرة صغيرة من حقيبتها نجت من الضياع أثناء المغامرة

بأعجوبة وأعطتها له ليشرب جرعة ويسكي. أنعشه الكحول واستطاع أن يستوي.

ـ ماذا يعني هذا! ـ صاح الملكُ بنبرة سلطوية لم يسمعها أحدٌ منه من قبل قط.

حين رآهم يضعون التمثالَ على منصّة معدنية بعجلات، ستجرّها خيول، أدرك حجم الفاجعة.

ـ هذا تدنيس للمقدسات. التنين الذهبي رمز بلدنا ـ حذّرهم الملك.

رفع زعيم العصابة ذراعه ليضربه، لكنَّ الأمريكيَّ أبعده دفعاً.

ـ اسكت وأطِع إن كنت لا تريد مزيداً من المشاكل ـ أمره أرماديو.

ـ أطلقوا سراح الآنسة كينسكي فهي أجنبية ولا علاقة لها بهذه المسألة ـ ردّ العاهل بقوّة.

ـ سمعتني، اسكتْ وإلاّ فإنّها ستدفع الثمن، مفهوم؟ ـ حذّره أرماديّو.

أخذته جوديت كينسكي من ذراعه وهمست طالبة منه المعروف بأن يحافظ على هدوئه، فهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً الآن، ومن الأفضل أن ينتظرِا مجيءَ الفرصة للعمل.

ـ هيّا، علينا ألا نضيّع مزيداً من الوقت ـ أمر زعيم اللصوص.

ـ ما زال الملك لا يستطيع الركوب حتى الآن ـ قالت جوديت كينسكي حين رأته يتمايل مثل سكران.

ـ سيركب مع أحدِ رجالي حتى يستجمع وعيه.

قاد أرماديّو السيارةَ إلى منخفض حيث بقيت مطمورة؛ غطّوها بالأغصان وشرعوا بعد قليل بالسير في خط متعرّج باتجاه الجبل. كان النهارُ صافياً، لكنّ قمم الهيمالايا تضيع في بقع من الغيوم. كان

عليهم أن يصعدوا دائماً متسلّقين، مارّين بمنطقة من غابات شبه استوائية، ينمو فيها الموز وأنواع من الدفلى والمغنولية والخبّيزة ونباتات أخرى كثيرة. كان المنظر يتبدل في الأعلى بشكل مباغت فتختفي الغابة وتبدأ الشعاب الجبلية الخطيرة، المقطوعة في كثير من الأحيان بصخور متدحرجة من القمم أو ساقطة بفعل الماء، مما يجعل الأرض مزلقاً وحلياً. كان الصعود مخاطرة، لكنّ الأمريكي يثق بخبرة الرجال الزرق وقوّة خيولهم الرائعة. ما إن يصلوا إلى الجبال حتى لا يعود باستطاعة أحدٍ أن يدركهم، لأنَّه ما من أحد كان يُخمّن أين هم، ثم إنّهم، في جميع الأحوال متفوّقون جدّاً.

لم يخطر لِتِكس أرماديّو أنّه، بينما كان يقوم بعملية سرقة التمثال في القصر خُرِّبَ كهف اللصوص وقُيّدَ شاغلوه مثنئ، وأنّهم يعانون الجوع والعطش، ويلفّهم الرعبُ من أن يظهر نمر ويقتلهم لعشائه. حالف الحظُّ الأسرى لأنّ فصيلةً من الجنود الملكيين دلّتهم بِّما على موقع معسكر طائفة العقرب ظهرت قبل أن تصل الضواري الكثيرة في تلك المنطقة.

كانت الشابّةُ قد تمكّنت من الوصول مع رفيقاتها إلى طريق ريفي، حيث عثر عليهنّ منهكاتٍ أخيراً فلاحٌ يحمل خضاره إلى السوق في عربة تجرّها الخيول. اعتقد في البداية أنَّهن راهبات لأنّ رؤوسهنّ حليقة، لكن لفت انتباهه أنّهنّ جميعاً، إلاّ واحدة، يرتدين لباس العيد. لم تكن لديه صحافة ولا تلفزيون لكنّه علم من الإذاعة مثل جميع سكّان البلد بأنّ ستّ شابات اختُطِفن. وبما أنّه لم يرَ صورهنّ، لم يكن باستطاعته أن يتعرفّ عليهنّ، لكن كَفته نظرة كي ينتبه إلى أنّ تلك الطفلات كنَّ في ضائقة. وقفت بِّما مفتوحة الذراعين وسط الطريق، أجبرته على التوقّف وحكت له بكلماتٍ قليلة عن وضعهنّ.

ـ الملك في خطر يجب أن أحصل على مساعدة فوراً ـ قالت.

دار الفلاّح نصفَ دورة وحملهنّ خبباً إلى المزرعة التي جاء منها. هناك حصلوا على هاتف وبينما بِمّا تُحاول الاتصال بالسلطات راحت رفيقاتها يتلقين عناية نساء الضيعة. الفتيات اللواتي أبدين شجاعة كثيرة في تلك الأيّام الرهيبة انهرن حين وجدن أنّهن نجون وبَكَيْنَ طالباتٍ إعادتهنّ إلى أُسَرِهنّ بأسرع ما يمكن. لكنّ بِمّا لم تكن تُفكّر بهذا بل بِديل باهادور وبالملك.

أخذ الجنرال ميار كونلونغ الهاتفَ ما إن أخبروه بما جرى وتكلّم مباشرة مع بِمّا. التي كرّرت ما كانت تعلمه لكنّها امتنعت عن ذكر التنين الذهبي، أولاً لأنّها ليست متأكّدة من أنّ اللصوص سرقوه، وثانياً لأنّها أدركت غريزياً أنّه إذا كان كذلك فليس من المناسب أن يعرف الشعبُ بذلك. فالتمثال يُجسّدُ روحَ الأمّة. وقرَّرت أنّه ليس من شأنها هي أن تنشر خبراً يمكن أن يكون مزيّفاً.

أصدر ميار كونغلونغ تعليماتِه إلى أقرب موقعٍ للحراسة بالذهاب في طلبِ الصغيرات في الضيعة والمجيءِ بهنّ إلى العاصمة. خرج بنفسه إلى منتصف الطريق لملاقاتهنّ، حاملاً معه واندجي وكاتْ كولدْ. حين رأت بِمّا والدَها قفزت من سيّارةِ الجيب التي تسافر فيها وهرعت لتعانقه. راح الرجل المسكين يجهش مثل صبيّ.

ـ ماذا فعلوا لك؟ ـ سأل واندجي وهو يتفحّص ابنته من كلّ جانب.

ـ لا شيء يا أبي، لم يفعلوا لي شيئاً أقسم لك، لكنّ هذا لا يهمّ الآن، علينا أن نحرّر الملك الواقع في خطر قاتل.

ـ هذا من شأن الجيش وليس من شأنك. أنت ستعودين معي إلى البيت!

ـ لا أستطيع يا أبي. واجبي أن أذهب إلى تشينثان دزونغ!

ـ ولماذا؟

ـ لأنّني وعدتُ ديل باهادور بذلك ـ ردّت محمرّة خجلاً.

اخترق ميار كونغلونغ الشابّة بنظرته، نظرةِ الثعلبِ، فهو قد فهم، دون شكّ، شيئاً ما من خدَّيها المتورِّدين ورعشةِ شفتيها، لأنّه انحنى بعمقٍ أمام الدليل ويداه على وجهه.

ـ ربّما يسمح واندجي المحترم لابنته الشجاعة أن ترافق هذا الجنرال المتواضع. أعتقد أنّها ستلقى عناية جيّدة من جنودي ـ طلب.

أدرك الدليلُ أنّ الجنرال لن يقبل على الرغم من الاحترام والنبرة اللطيفة منه كلمةَ لا جواباً. كان عليه أن يسمح بأن تذهب بمّا، راجياً السماء أن تعود سالمة غانمة.

هزّ خبرُ هربِ الشابات الطيّبُ من براثن مختطيفهنّ البلدَ. كانت الأخبار في المملكةِ الممنوعة تدور من فم إلى فم، لذلك حين ظهرت أربع فتيات في التلفزيون بروؤسهنّ الحليقة المغطاة بشالات الحرير يحكين الأهوال التي تعرّضن لها كان الجميع يعرفون ذلك. خرج الناس إلى الشارع للاحتفال وحملوا أزهار المغنولية إلى أسرهنّ واجتمعوا في المعابد يقدّمون قرابين العرفان. كانت الحلقات ورايات الصلاة ترفع إلى السماء فرح تلك الأمّة الطافح.

الوحيدة التي لم يكن لديها ما تحتفل به هي كاتْ كولْدْ، التي أوشكت أن تنهار عصبياً لأنّ ناديا وألِكس ما يزالان مفقودين. كانت تخبّ في تلك الساعة باتجاه تشينتشان دزونغ إلى جانب بِمّا وميار كونغلونغ على رأس فصيلةٍ من الجنود في الطريق الذي يتلوى باتجاه المرتفعات. كانت بِمّا قد حكت لهما ما سمعته من فم اللصوص حول التنين الذهبي. فتأكّدت شكوك الجنرال.

ـ أحد الحارسين اللذين كانا يحرسان الباب الأخير نجا من ضربةِ خنجر ورأى كيف حملوا ملكنا مقيّداً ومعه التنين. يجب أن يبقى هذا سرّاً يابِمّا. حسناً فعلتِ حين لم تذكريه على الهاتف. فالتمثال يساوي ثروة لكنّني لا أفهم لماذا أخذوا الملك... ـ قال.

ـ ذهب المعلِّم تِنسينغ وتلميذه مع شابين أجنبيين إلى الدير. سبقونا بساعات كثيرة. ربّما وصلوا قبلنا ـ أخبرته بِّما.

ـ يمكن أن تكون هذه حماقة خطيرة، يا بِّما، فمن سيشغل العرش إذا حدث مكروه للأمير ديل باهادور،...؟ ـ تنهّد الجنرال.

ـ أمير؟ أيّ أمير؟ ـ قاطعته بِّما.

ـ ديل باهادور هو ولي العهد، ألم تكوني تعرفين، يا صغيرتي؟

ـ لا أحد قال لي ذلك. في جميع الأحوال لن يحدث شيء للأمير ـ أكّدت، لكنّها سرعان ما انتبهت إلى أنّها ارتكبت عدم لباقة، فصحّحت: ـ أي أنّ من الممكن أن تقضي كارما الأمير المحترم بأن يُنقذ ملكنا المحبوب ويخرج سالماً، دون مساس...

ـ ربّما... ـ وافق الجنرال مشغولاً.

ـ ألا تستطيع أن ترسل طائراتٍ إلى الدير؟ ـ اقترحت كاث، قلقة من تلك الحرب التي تتم على ظهور الجياد، وكأنّهم قد عادوا قروناً إلى الخلف.

ـ ليس هناك من مكان تحطّ فيه. ربّما تستطيع مروحية أن تفعل ذلك، لكنّها تحتاج إلى طيّارٍ خبير جدّاً، لأنّ عليها أن تهبط في قمع من التيارات الهوائية ـ أخبرها الجنرال.

ـ ربّما اتفق الجنرال المحترم معي على أنّه يجب أن يحاول ذلك... ـ توسّلت بِّما مغرورقة العينين.

ـ هناك طيّار وحيد يستطيع ذلك ويعيش في نيبال. إنّه بطل، هو نفسه الذي صعد بالمروحية منذ سنوات إلى إفرست لينقذ بعض المتسلّقين.

ـ أتذكّر الحالة، الرجل مشهور جدّاً، أجرينا معه مقابلة لـ *إنترناشيونال جيوغرافيك* ـ علّقت كاث.

ـ ربّما استطعنا الاتصال والمجيء به في الساعات القريبة ـ قال الجنرال.

لم يخطر لميار كونغلونغ أنّ المُتخصِّص تعاقد مع هذا الطيار قبل ذلك بكثير وأنّه كان يطير، في ذلك اليوم بالذات، من نيبال باتجاه قمم المملكة الممنوعة.

الصف المشكّل من تِنسينغ وديل باهادور وألِكساندر وناديا وبوروبا على كتفها ومحاربي أهلِ الثلج العشرة اقترب من الجرف حيث تنتصب أطلال تشينثان دزونغ الحجرية القديمة. كان رجال أهلِ الثلج المثارون جدّاً يزمجرون ويتبادلون الدفع ويعضّ بعضهم بعضاً عضات ودّية، يستعدّون برغبة للتمتع بالمعركة. فهم منذ سنوات طويلة ينتظرون فرصة كتلك التي تُعدّ لهم، للمرح الجدّي. وكان على تِنسينغ أن يتوقّف بين حين وآخر ليهدِّئهم.

ـ يا معلِّمي، الآن أتذكّر أين سمعتُ لغة أهل الثلج من قبل: في الأديرة الأربعة التي علّموني فيها رموزَ التنين الذهبي ـ همس ديل باهادور إلى تِنسينغ.

ـ ربّما تذكّر تلميذي أيضاً أنّني قلت له أثناء زيارتنا إلى وادي أهل الثلج أنّ هناك سبباً مهمّاً لوجودنا هناك ـ ردّ اللاما بالنبرة ذاتها.

ـ وهل لها علاقة بلغة أهل الثلج؟

ـ ربّما ـ ابتسم تِنسينغ.

كان المشهد مؤثّراً جدّاً، يحيط بهم جمال مدهِش: قمم مغطاة بالثلوج، صخور هائلة، شلالات مياه، هوّات مقطوعة قطعاً في الجبال، ممرات جليدية. عندما رأى ألكساندِر كولْدْ المنظر فهم لماذا كان سكّان المملكة الممنوعة يعتقدون بأنّ أعلى قمم بلدهم، على ارتفاع سبعة آلاف متر، هو عالم الآلهة. شعر الأمريكي أنّه يمتلئ في داخله بالنور والهواء النقيّ، وأنّ شيئاً ينفتح في عقله، ويتغيّر دقيقة

بدقيقة، يكبر. فكّر أنّه سيكون من المحزن أن يترك هذا البلدَ ويعودَ إلى ما أسيئ تسميته بالحضارة.

قطع تِنسينغ أفكاره ليوضّح له أنّ الدزونغ أو الأديرة المحصَّنة التي لا توجد إلاّ في بوتان ومملكة التنين الذهبي هي مزيج من أديرة الرهبان وثكنات الجنود. كانت ترتفع عند ملتقى الأنهار وفي الوديان، لحماية القرى من حولها؛ وتُشاد دون مخطّطات ولا مصورات، دائماً حسب تصميم واحد. قصر تونخالا الملكي كان في الأصل واحداً من الأديرة المحصّنة، إلى أن أجبرتهم حاجات الحكومة على توسيعه وتحديثه، وتحويله إلى متاهة من ألف غرفة.

كان تشينثان دزونغ استثناءً فهو ينهض فوق شرفة طبيعيةٍ، هي من الوعورة بحيث يصعب تصوّر كيف حملوا المواد إليها وأشادوا البناء، الذي قاوم عواصف شتوية وانهياراتٍ جليدية قروناً طويلة إلى أن هدمه الزلزال. كان هناك دربٌ مدرّج في الصخر، لكنّه لم يُستخدم إلاّ نادراً، لأنّ الرهبان لم يكونوا يحتكون ببقية العالم. هذا الدرب المحفور عملياً في الجبل، كانت تقوم عليه جسورٌ ضعيفة، من الخشب والحبال، معلّقةٌ فوق الهوّات. لم يُستخدم الطريق منذ الزلزال، والجسور كانت في حالة سيّئة، الخشب نصف مهترئ ونصف الحبال مقطوع، لكنّ تِنسينغ ومجموعته لا يستطيعون أن يتوقّفوا ليفكّروا بالمخاطر لأنّه ليس أمامهم خيار آخر. ثمّ إنّ رجال أهلِ الثلج يقطعونها بكلّ ثقة لأنّهم مرّوا من هناك خلال مشاويرهم القصيرة خارج واديهم بحثاً عن الغذاء. عندما رأوا بقايا إنسان في قاع فجّ تكهّنوا أن تِكس أرمادِيّو وأتباعه قد سبقوهم.

ـ الجسرُ غير مأمون، هذا الرجل سقط ـ قال ألِكساندِر مشيراً إليه.

ـ هناك آثار حصان. لا بدّ أنّهم نزلوا هنا وأفلتوا الحيوانات. تابعوا طريقهم سيراً على الأقدام، حاملين معهم التنين الذهبي على نقّالة ـ لاحظ ديل باهادور.

ـ لا أتصوَّر كيف وصلت الجياد إلى هنا. لا بدّ أنَّها مثل الماعز ـ قال أَلِكساندِر.

ـ من المحتمل أنّها أحصنة تيبتية، مدرَّبة على التسلّق، مقاومة ورشيقة، وبالتالي ثمينة جدّاً. لا بدّ أن يكون لأصحابها أسبابهم الوجيهة كي يهجروها ـ غامر ديل باهادور.

ـ يجب أن نعبر ـ قاطعتهم ناديا.

ـ إذا كان اللصوص قد فعلوا ذلك بجرّ التنين الذهبي، فكذلك نستطيع أن نفعل نحن ـ لاحظ ديل باهادور.

ـ يمكن لهذا أن يكون قد أضعف الجسر أكثر. ربّما ليست فكرة سيئّة أن نجرّبه قبل أن نصعد فوقه ـ قرَّر تِنسينغ.

لم تكن الهوّة عريضة، كما لم تكن من الضيق بحيث يمكن استخدام عصوَي أو قائمتي تِنسينغ والأمير. اقترحت ناديا أن يربطوا بوروبا بحبل ويرسلوه ليجرّب الجسر، لكنّ القردَ كان خفيفاً جدّاً، وبالتالي لم يكن هناك ضمان بأنّه إذا مرّ هو يستطيع البقيّة أن يفعلوا الشيء ذاته. تفحَّص ديل باهادور المكان، ومن حسن الحظّ أنّه رأى على الطرف الآخر جذراً غليظاً. ربط أَلِكساندر طرف حبله بسهمٍ وغامر يسنده تِنسينغ ببطءٍ فوق الجسر، مجرّباً كلّ قطعة من خشبةٍ بحذرٍ قبل أن يضع ثقله فوقها.

إذا انهار الجسر، يمكن للحبل الأول أن يسنده قليلاً. لم يعرفوا ما إذا كان السهم يتحمّل الثقل، لكنّه إذا لم يتحمّل أمكن للحبل الثاني منعه من السقوط في الفراغ. الأهم، في هذه الحال، هو ألاّ يتحطّم مثل حشرة على جداري الصخر. كان يأمل أن تفيده تجربته في تسلّق جبال.

اجتاز أَلِكساندر الجسرَ خطوة فخطوة. كان في منتصفه حين تصدّعت الألواح الخشبية وانزلق. دوّت صرخة من ناديا في القمم وأرجعها الصدى. مرّت دقيقتان أبديّتان لم يتحرّك أحدٌ فيهما حتى

توقّف ترنّح الجسر وتمكّن الشاب من استعادة توازنه. أخرج ساقه العالقة في فجوة بين الألواح المكسورة ببطءٍ شديد. تراجع بعدها إلى الخلف مستنداً إلى الحبل الأوّل، إلى أن استطاع أن ينتصب من جديد. كان يُقدّر ما إذا كان سيتابع أم سيتراجع حين سمعوا ضجّة قويّة، كما لو أنّ الأرض راحت تشخر. الظنّ الأوّل أنّه زلزال من الزلازل الكثيرة في هذه المناطق، لكنّهم سرعان ما رأوا حجارةً وثلوجاً تتدحرج من قمّة الجبل. فصرخة ناديا سبّبت انهياراً ثلجياً.

نظر الأصدقاءُ ورجال أهلِ الثلج عاجزين إلى نهر الصخور القاتل يهوي فوق ألِكساندر والجسر الرقيق. لم يكن هناك ما يمكن فعله، وكان من المحال التراجع أو التقدّم.

ركّز تِنسينغ وديل باهادور آلياً على إرسال الطاقة للفتى. لو كان الظرف مختلفاً لحاول تِنسينغ التجربة القصوى لـ *تولكو* مثله، تقمّصَ لاما عظيم: تغيير إرادة الطبيعة. في لحظات الحاجة الحقيقية كان باستطاعة بعض التولكوات أن يوقفوا الريح، ويحرفوا العواصف، ويمنعوا الفيضانات في زمن الأمطار ويمنعوا الصقيع، لكنّ تِنسينغ لم يُضطرّ قط لفعل ذلك. لم يكن شيئاً تُمكن ممارسته، مثل الأسفار النجمية. كان الوقت في تلك المناسبة متأخِّراً كي يحاول تغيير اتجاه الانهيار الثلجي، وإنقاذ الفتى الأمريكي. استخدم تِنسينغ قواه العقلية كي ينقل إليه قوّة جسده الهائلة.

شعر ألِكساندر بدويّ انهيار الحجارة وأحسّ بسحابة الثلج التي ارتفعت وغمَتَه. عرف أنّه سيموت فجاءت شحنة الأدرينالين مثل صعقة كهربائية، ماحية كلّ تفكير من عقله وتاركة إيّاه في مهبّ الغريزة وحدها. طاقة خارقة أوقفته، وفي جزء من ألف من الدقيقة تحوّل جسده إلى جغوار الأمازون الأسود. وبزمجرة رهيبة وقفزة مريعة وصل إلى الجانب الآخر من الهوّة، هابطاً على قوائم الهرّ الأربع بينما الحجارة تنهار مدوِّيةً خلفه.

ومع ذلك لم يعرفوا أنّه نجا بأعجوبة، لأنّ الثلج والتراب الذي حوّل الصخر إلى غبار منعهم من ذلك. ما من أحدٍ غير ناديا رأى الفتى حتى سكن الانهيار. في لحظة الموت، حين ظنَّت أنّ ألِكساندر قد انتهى، عاشت ردّ الفعل ذاته الذي عاشه، تفريغ الطاقة الجبارة، والتحوّل الخياليّ ذاته. بقي بوروبا مرمياً على الأرض بينما هي ترتفع متحوِّلة إلى نسرٍ أبيضَ. ومن علوّ تحليقها الأنيق استطاعت أن ترى الجغوارَ متشبِّثاً ببراثنه بالأرض الثابتة.

ما إن مرّ الخطر الأكيد حتى استعاد ألِكساندر مظهرَه المعتاد. الأثر الوحيد لتجربته السحرية كانت أصابعه المدماة وملامح وجهه وفمه المُغضَّن، وأسنانه المكشوفة عن حركة ضارية. كما شعر برائحة الجغوار القويّة في جلده، رائحة الوحش اللاحم.

أغلق الانهيار جزءاً من الطريق الضيّق ودمّر القسم الأعظم من خشب الجسر، لكنّ الحبال القديمة وحبلي ألِكساندر لم تُمسّ. ثبَّتها الشابُّ بشكل جيّد في طرف وفعل تِنسينغ الشيء ذاته على الطرف الآخر، وبذلك استطاعوا العبور. كان لرجالِ أهلِ الثلج خفّة الحيوانات الرئيسة وكانوا معتادين على هذا النوع من الأرض فلم يجدوا صعوبةً في المرور متعلّقين إلى حبل. فكّر ديل باهادور أنّه إذا كان قد استفاد في السابق من عصاه، فإنّ باستطاعته الآن أن يستفيد من حبل رخوٍ، كما فعل معلمه بكثير من الملاحة. لم يحتج تِنسينغ لأن يحمل ناديا، وحمل فقط بوروبا، ذلك لأنّ النسر كان ما يزال يُحلّق فوق رؤوسهم. سأله ألِكساندر لماذا لم تستطع ناديا أن تتحوّل إلى حيوانها الطوطمي حين انخلع كتفها وكان عليها أن ترسل إشارة عقلية لتطلب المساعدة، فوضّح له اللاما أنّ الألم والإنهاك حصراها في شكلها الماديّ.

الطائر الأبيض الكبير هو الذي أعلمهم أنّه على بعد أمتارٍ قليلة إلى الأمام وخلف منعطف الجبل ينتصب تشينثان دزونغ. كانت

الخيول المربوطة تدلّ على وجود اللصوص، لكن لا أحد كان يُرى وهو يحرس؛ كان واضحاً أنّهم لا يتوقّعون زيارات من أحد.

تلقّى تِنسينغ الرسالة التخاطرية من النسر وجمع جماعته ليحدِّد أفضل طريقة للعمل. لم يكن رجال أهلِ الثلج يفهمون شيئاً عن الاستراتيجية، وطريقتهم في القتال تقوم على مجرّد الهجوم، ملوحين بهراواتهم وصارخين مثل الشياطين، وهو ما يمكن أن يكون فعالاً ما لم يُستقبَلوا برشقة من الرصاص. كان عليهم أن يتأكّدوا أوّلاً كم رجلاً يوجد في الدير، وكيفية توزُّعهم، ما هي الأسلحة التي بحوزتهم، وأين وضعوا الملك والتنين الذهبي.

وعلى الفور ظهرت ناديا بينهم بطبيعية بدت من خلالها وكأنّها لم تَحُم قط على شكل طائر. ما من أحدٍ علّق.

- إذا سمح لي مُعلِّمي المحترم سرتُ في المقدّمة - طلب ديل باهادور.

- ربّما ليست هذه أفضل خطّة. أنت الملك المستقبلي. إذا ما حدث لوالدك شيء فليس للأمّة غيرك - ردّ اللاما.

- إذا سمح لي المُعلِّم المحترم كنتُ أنا من يذهب - قال ألِكساندر.

- إذا سمح المعلِّم المحترم، فإنّني أعتقدُ أنّ من الأفضل أن أذهب أنا لأنّ لي القدرة على التخفّي - قاطعتهم ناديا.

- ولا بشكلٍ من الأشكال! - هتف ألِكساندِر.

- ولماذا. ألا تثق بي، يا جغوار؟

- إنّه أمر خطير جدّاً.

- خطير جدّاً بالنسبة إليّ كما بالنسبة إليك. لا يوجد اختلاف.

- ربّما كانت الطفلة - النسر على حقّ. كلٌّ يُقَدّم ما عنده. في هذه الحالة من الملائم جدّاً أن يكون المرء لا مرئياً. أنت،

ياألِكساندر، يا قلب الهرّ الأسود، سيكون عليك أن تُقاتل إلى جانب ديل باهادور. رجال أهلِ الثلج سيذهبون معي. أخشى أن أكون الوحيد هنا الذي يستطيع أن يتواصل معهم ويتحكّم بهم. فهم ما إن ينتبهوا إلى أنَّهم قريبون من الأعداء حتى يصبحوا كالمجانين ـ ردّ تِنسينغ.

ـ الآن نحن بحاجة إلى التكنولوجيا الحديثة. فجهاز إرسال واستقبال لن يضرّنا أبداً. كيف ستُعلميننا يا نسر إلى أنّ باستطاعتنا أن نتقدَّم؟ ـ سأل ألِكساندِر.

ـ ربّما بالطريقة ذاتها التي نتواصل بها الآن... ـ ارتأى تِنسنيغ فراح ألِكس يضحك، لأنّه انتبه توّاً إلى أنّهم منذ برهة وهم يتبادلون الأفكار دون كلمات.

ـ حاولي ألاّ تخافي يا ناديا، لأنّ الخوفَ يشوِّش الأفكار. لا تشكّي بالمنهج لأنّ هذا يمنع بدوره التلقي. ركّزي على صورة واحدة في المرّة الواحدة ـ نصحها الأمير.

ـ لا تهتمّ، فالتخاطر مثل التكلّم بالقلب ـ طمأنته.

ـ ربّما كانت المباغتةُ ميِّزتَنا الوحيدة ـ نبَّه اللاما.

ـ إذا سمح لي المعلِّم المحترم باقتراح فإنّني أعتقدُ أنّ من المناسب أكثر عندما تتوجّه إلى رجالِ أهل الثلج أن تفعل ذلك بشكل مباشر ـ قال ألِكساندر متهكّماً، مقلّداً طريقة الكلام المهذّبة في المملكة الممنوعة.

ـ ربّما كان على الشابّ الأجنبيّ أن يثق أكثر قليلاً بمعلِّمي ـ قاطعه ديل باهادور، بينما كان يجرّب شدّة قوسه ويعدّ سهامه.

ـ حظّاً سعيداً ـ ودّعت ناديا ألِكساندر طابعة قبلة على خدّه.

تخلّصت من بوروبا الذي جرى ليركب على رقبة ألِكساندر، ممسكاً بشكلٍ جيّدٍ بأذنيه كما كان يفعل أثناء غياب صاحبته.

جمّده في تلك اللحظة في مكانه دويّ شبيه بدويّ الانهيار الجليدي السابق. وحدهم رجال أهلِ الثلج أدركوا على الفور أنّ الأمر يتعلّق بشيءٍ مختلف، شيءٍ مرعب لم يسمعوه من قبل. ارتموا على الأرض مخبِّئين رؤوسَهم بين أذرعهم مرتعدين خوفاً، فنسوا هراواتهم وتبدّلت ضراوتهم كلّها بعواءِ جراءٍ خائفة.

ـ يبدو أنّها مروحية ـ قال ألِكساندر، مشيراً عليهم أن يختبئوا بين الفجوات وظلال الجبل كيلا يروهم من الجوّ.

ـ ما هذا؟ ـ سأل الأمير.

ـ شيء شبيه بالطائرة. والطائرة تشبه الطيّارة الورقية، لكنّها بمحرّك ـ أجاب الأمريكي دون أن يستطيع أن يصدّق أنّه يوجد في أوج القرن الحادي والعشرين ناس يعيشون كما في القرون الوسطى.

ـ أعرف ما هي الطائرة فأنا أراها تمرّ كلّ أسبوع باتجاه تونخالا ـ قال ديل باهادور دون أن ينزعج من نبرة صديقه الجديد.

أطلّ في سماء الجانب الآخر من البناء هيكل معدنيّ. حاول تِنسينغ أن يُطمئن رجال الثلج، لكنّ أدمغة تلك الكائنات لم تكن تستوعب فكرة آلة طيّارة.

ـ إنّه طائر يُطيع الأوامر. علينا ألا نخاف فنحن أشدّ منه ضراوةً ـ أخبرهم اللاما أخيراً، مقدّراً أن باستطاعتهم فهم ذلك.

ـ هذا يعني أنّ هناك مكاناً تستطيع أن تحطّ الآلة فيه. الآن فهمت لماذا تعذّبوا بالوصول إلى هنا، وكيف يريدون الهرب بالتمثال خارج البلد ـ استنتج ألِكساندر.

ـ لنهجم قبل أن يهربوا إذا ارتأى معلّمي المحترم ذلك ـ اقترح الأمير.

أشار تِنسينغ بأنَّ عليهم أن ينتظروا. انقضت ساعة والطائرة تحاول أن تحطّ. لم يكن باستطاعتهم أن يروا من مكانهم مناورة

المروحية، لكنَّهم تصوّروا أنّها معقّدة لأنّها حاولت ذلك مرّاتٍ عدّة وهي تعود وترتفع وتحوم وتهبط من جديد، إلى أن أطفئ المحرّك أخيراً. سمعوا في صمت تلك القمم البدائي أصواتاً بشرية قريبة، فافترضوا أنّهم اللصوص. وحين سكتت الأصوات أيضاً قرّر تِنسينغ أن لحظة الاقتراب قد حانت.

ركّزت ناديا على أن تصبح غير مرئيّة مثل الهواء وسارت باتجاه الدير. راح ألِكساندر يرتجف خوفاً عليها. ودقّات قلبه أصبحت من القوّة بحيث أنّه خاف أن يستطيع أعداؤه سماعَها على بعد ثلاثمئة متر إلى الأمام منه.

18

المعركة

كان دير تشينثان دزونغ يشهدُ القسم الأخير من خطّة المتخصّص. حين حطّت المروحية في الفسحة الصغيرة المغطاة بالثلج، والتي تشكّلت في أزمنة أخرى من انهيار جليدي آخر، استُقْبِلَت بحماس، لأنّ الأمر مأثرة حقيقيّة. كان تِكس أرماديّو قد علّم مكان الهبوط بصليبٍ أحمر، رُسم بمسحوق الفريز المخصص لصنع المرطبات، تماماً كما أشار عليه معلّمه. كان الصليب يَظهرُ من الجوّ مثل قطعة نقد من فئة الخمسة والعشرين سنتيماً، لكنّه يبدو عند الاقتراب منه علامة واضحة تماماً. بالإضافة إلى حجم الفسحة الضيق الذي يُجبر على المناورة بمهارة كيلا تتحطّم المروحية على الجبل، كان على الطيّار أن يطير في تيارات هوائية. فالقمم تُشكّل في تلك المنطقة قمعاً تدور فيه الريح على شكل دوّامة.

كان الطيّار بطلاً من أبطال القوّات الجوّية في نيبال رجلاً مُحنَّكاً في شجاعته وتماسكه، عرضوا عليه ثروة صغيرة كي يأتي بـ «طردٍ» وشخصين من ذلك المكان. لم يكن يعلم مما تتألّف الحمولة، كما لم يشعر بفضولٍ للتحقّق من ذلك، كان يكفيه أن يعرف أنّ الأمر لا يتعلّق بمخدرات أو بأسلحة. العميل الذي تعاقد معه قدّم نفسه كعضوٍ من جهاز دولي من العلماء الذين يدرسون الصخور في المنطقة. الشخصان والرزمة يجب أن يُنقلوا من تشينثان دزونغ إلى

مكان مجهول في شمال الهند، حيث سيتلقى الطيّار النصف الثاني من المبلغ.

لم يُعجبه مظهر الرجال الذين ساعدوه على الهبوط من المروحية. لم يكونوا العلماء الأجانب الذين توقّعهم، بل رجالاً بجلد أزرق وملامح مريعة، يحملون ستّة خناجر مختلفة الأشكال والأحجام في زنانيرهم. جاء خلفهم أمريكي سماويّ العينين الباردتين مثل الجليد. هو الذي رحّب به ودعاه لتناول فنجان من القهوة في الدير، ريثما يضع الآخرون الطرد في المروحية. كان كتلة ثقيلة غريبة الشكل ملفوفة بالخيش ومربوطة بقوّة بالحبال، اضطروا لحملها بين عدّة رجال. افترض الطيّار أنّ الأمر يتعلّق بعيّناتٍ من الصخور.

قاده الأمريكيُّ عبر عددٍ من القاعات المهدّمة تماماً. فالسقوف لا تكاد تسند نفسها، ومعظم الجدران انهارت، والأرضية قد تضعضعت بفعل الزلزال والجذور التي ظهرت في سنوات الهجران. أعشاب يابسة وقاسية تظهر بين الشقوق. هناك في كلّ مكان روث حيوانات، ربّما كانت نمور الجبال العالية وماعزها. وضّح الأمريكي للطيّار أنّ الرهبان المحاربين الذين قطنوا الدير تركوا خلفهم في عجالة الهرب من الكارثة أسلحتَهم وأوانيهم وبعض القطع الفنية. وقد هوت الرياحُ والزلازلُ الأخرى بالتماثيل الدينية التي تجثو محطّمة على الأرض. كان التقدّم بين الأنقاض مجهداً وحين حاول الطيّار الانحراف أخذه الأمريكيّ من ذراعه بلطف لكن بحزم، وقاده إلى المكان الذي ارتجلوا فيه موقداً وقهوة سريعة الذوبان وحليباً مكثّفاً وبسكويتاً.

شاهد بطلُ نيبال مجموعةً من الرجال مصبوغي الجلد بسواد ضارب للزرقة، لكنّه لم يرَ فتاة نحيلةً، عسليّة اللون تماماً مرَّت قريباً جدّاً منه، منسابةً مثل روح بين خرائب الدير القديم. تساءل: من هؤلاء سيّئو الطلعة الذين يعتمرون عمائم ويرتدون غفّارات؟ ما

علاقتهم بالعلماء المفترضين الذينٍ تعاقدوا معه؟ لم يُعجِبه المنحى الذي اتخذه هذا العمل؛ وانتابه شكٌ بأنّ المسألة لم تكن بالشرعية والنظافة التي طرحوها بها عليه.

ـ علينا أن ننطلق سريعاً، لأنّ الريح تزداد بعد الرابعة مساءً ـ حذّر الطيّار.

ـ لن نتأخّر كثيراً. من فضلك لا تتحرَّك من هنا. فالبناء على وشك السقوط، إنّه خطير ـ ردّ تِكس أرماديّو، وتركه وفنجان القهوة في يده، يراقبه عن كثبٍ رجال الخناجر.

على الطرف الآخر من الدير وبعد المرور بقاعات لا حصر لها تغطّيها الأنقاض كان الملكُ وجوديت كينسكي وحيدين، دون أربطة ولا كمامات، لأنّه من المحال عليهما الهرب، كما قال تِكس أرماديّو. فعزلة الدير لا تسمح بذلك، وطائفة العقرب تراقبهما. راحت ناديا تعدُّ اللصوص أثناء تقدّمها. رأت أنّ الجدران الحجرية الخارجية مدمّرة، مثلها مثل الجدران الداخلية؛ والثلج يتكوّم في الزوايا وهناك آثار جديدة لحيوانات برّية، اتخذت من المكان جحوراً لها، هربت دون شكّ من حضور الإنسان. نقلت «متكلّمة بقلبها» ملاحظاتها إلى تِنسينغ. أطلّت بعدها على المكان الذي كان الملك وجوديت كينسكي فيه، أخبرت اللاما أنّهما حيّين، وعندئذٍ قدّر هذا أن لحظة العمل قد حانت.

كان تِكس أرماديّو قد أعطى الملكَ حقنة مخدّر أخرى كي يخفّض دفاعاته ويُلغي إرادته، لكنّ الملك تمكّن بفضل تحكّمه بجسده وعقله من التزامِ صمتٍ ماكر خلال الاستنطاق. كان أرماديّو مغتاظاً. فهو لن يستطيع أن يعتبر مهمّته منتهية ما لم يتحقّق من شيفرة التنين الذهبي، ذلك هو الاتفاق مع الزبون. كان يعرف أنّ التمثال «يُغني» لكن تلك الأصوات لم تكن تهمّ المُقتني ما لم تترجم. ونظراً للنتائج

البائسة للمخدّر والتهديدات والضرب أعلم الأمريكي أسيره بأنّه سيُعذِّب جوديت كينسكي حتى يكشف له عن السرّ أو يقتلها إذا تطلَّب الأمرُ ذلك، وفي هذه الحالة ستُثْقِل على ضمير وكارما الملك. ومع ذلكِ وصلت المروحية حين سارع للقيام بذلك.

- يؤسفني أنّكِ في هذا الوضع بسببي، يا جوديت - همس الملك، واهناً بفعل المخدّر.

- ليس ذنبكَ - طمأنته، لكنّها بالنسبة إليه بدت خائفة فعلاً.

- لا أستطيع أن أسمح بأن يؤذوك، لكنّني أيضاً لا أثق بهؤلاء القساة. أظنّ أنّني حتى ولو سلّمتهم الشيفرة، سيقتلوننا أنا وأنت.

- حقيقة أنا لا أخاف الموت، يا صاحب الجلالة، بل التعذيب.

- اسمي دورجي. ما من أحد ناداني باسمي منذ أن ماتت زوجتي، قبل سنوات كثيرة - همس.

- دورجي... ماذا تعني؟

- تعني شعاعاً أو نوراً حقيقيّاً. الشعاع يرمز إلى العقل المستنير، لكنّني بعيد جداً عن أن أكون قد أدركتُ هذه الحالة.

- أعتقد أنّك تستحقّ هذا الاسم، يا دورجي. لم أعرف أحداً مثلك. فأنت خلوّ تماماً من التبجّح على الرغم من أنّك أقوى رجل في هذا البلد - قالت.

- ربّما هذه هي فرصتي الوحيدة كي أقول لكِ يا جوديت إنّني فكّرتُ، قبل هذه الأحداث المفجعة، بإمكانية أن ترافقينني في مهمّة العناية بشعبي...

- ماذا تعني تماماً؟

- فكّرتُ أن أطلب منك أن تُصبحي ملكة هذا البلد المتواضع.

- بكلماتٍ أخرى، أن أتزوّج منك...

ـ أتفهّم أنّ من غير المعقول الكلام عن هذا الآن، ونحن على وشك الموت. أشعر أنّنا، أنا وأنتِ، منذوران لعمل شيء مشترك. لا أدري ما هو، لكنّني أشعر بأنّه كارمانا. لا نستطيع عمله في هذه الحياة، لكن ربّما في تقمُّص آخر ـ قال الملكُ دون أن يجرؤ على لمسها.

ـ حياة أخرى؟ متى؟

ـ مئة سنة، ألف سنة، ليس يهمّ، في جميع الأحوال حياة الروح واحدة بينما حياة الجسد تمرّ مثل ومضة حلم؛ وهم خالص ـ أجاب الملك.

أدارت جوديت له ظهرها، وعلّقت نظرها في الجدار، فلم يعد يستطيع الملك رؤية وجهها. افترض الملك أنّها مضطربة مثله.

ـ أنت لا تعرفني، لا تعرف كيف أنا ـ تمتمت المرأةُ أخيراً.

ـ لا أستطيع أن أقرأ هالتك ولا عقلك، كما أرغبُ يا جوديت، لكنّني أستطيع أن أُقدِّر ذكاءك الجليّ، ثقافتك الكبيرة، احترامَكِ للطبيعة.

ـ لكنّك لا تستطيع أن ترى ما بداخلي.

ـ لا يمكن أن يوجد بداخلك غير الجمال والوفاء ـ أكّد لها الملكُ.

ـ نقش قلادتك يُظهرُ أنّ التغيير ممكن. هل تؤمن أنت حقيقةً بهذا يا دورجي؟ هل نستطيع أن نتحوّل كلّياً؟ ـ سألت جوديت ملتفتة كي تنظر في عينيه.

ـ الشيء الوحيد الأكيد هو أنّ كلّ شيءٍ في هذا العالم يتغيّر باستمرار يا جوديت. التغير لا مفرّ منه وكلّ شيء آنيّ. ومع ذلك فتعديلُ جوهرنا وتطوّرنا إلى حالة أسمى من الضمير يكلّفنا كثيراً نحن الكائنات البشرية. نعتقد نحن البوذيين أنّ باستطاعتنا التبدل بإرادتنا إذا كنّا مقتنعين بحقيقة ما، لكنّ أحداً لا يستطيع أن يُجبرنا

على فعل ذلك. هذا ما حدث لِـ سد هارتا غوتاما: كانَ أميراً مُدلَّلاً، لكنّه حين رأى بؤس العالم تحوّل إلى بوذا - ردّ الملكُ.

- أنا أعتقد أن من الصعب جدّاً التغيّر... لماذا تثق بي؟

- أثقُ بكِ يا جوديت، إلى حدٍّ أنّني مستعد لأن أقول لك ما هي شيفرة التنين الذهبي. لا أستطيع أن أتحمّل فكرة أنّك ستعذّبين بشكل خاص بسببي. يجب ألاّ أكون أنا من يقرّر كم ستتحمّلين من العذاب، هذا هو قراري. لذلك فسرُّ ملوك بلدي يجب أن يكون بين يديك. سلّميه لهؤلاء المجرمين مقابل حياتك، لكن من فضلك افعلي ذلك، بعد موتي - طلب العاهل.

- لن يجرؤوا على قتلك! - صاحت هي.

- هذا لن يحدث يا جوديت. أنا نفسي سأضع حدّاً لحياتي، لأنّني لا أريد أن يثقل موتي على ضمير الآخرين. زمني هنا انتهى. لا تهتمّي، سيكون دون عنف، فقط سأتوقّف عن التنفّس.

- اسمعي جيّداً يا جوديت، سأقول لك الشيفرة وأنت ستحفظينها عن ظهر قلب - قال الملك - حين يستنطقونك، وضّحي لهم أنّ التنينَ الذهبي يُصدر سبعة أصوات. كلّ تركيبٍ من أربع علامات يمثّلُ واحدة من ثمانمئة وأربعين فكرة مكتوبةً من لغة ضائعة، لغة أهل الثلج.

- هل تقصد أهل الثلج البغيضين؟ هل حقّاً هذه الكائنات موجودة؟ - سألت هي غير مصدِّقة.

- بقي منهم عدد محدود جدّاً: تخلّفوا وصاروا الآن كالحيوانات، ويتواصلون بكلماتٍ قليلة جداً، ومع ذلك كانت لهم قبل ثلاثة آلاف سنة لغة وشكل من أشكال الحضارة.

- وهل هذه اللغة مكتوبة في مكانٍ ما؟

- محفوظة في ذاكرة أربع لاماتٍ في أربعة أديرة مختلفة. ما

من أحدٍ غير ابني ديل باهادور وأنا يعرف الشيفرة كاملة. إنّها مكتوبة على رقّ، لكنّ الرقّ سرقه الصينيون حين غزوا التيبت.

ـ أيّ أنّ من يملك الرقّ يمكن له أن يفكّ شيفرة التنبؤات... ـ قالت.

ـ الرق مكتوب بالسنسكريتية، لكنّه إذا ما بُلِّل بحليب الياك ظهر بلونٍ آخر قاموسٌ كلّ فكرة مرسومة فيه مترجمة بالتركيب بين الأصوات الأربعة التي تُمثّلها. هل فهمت، يا جوديت؟

ـ تماماً! ـ قاطعهما تِكس أرماديّو بمظهر المنتصر ومسدسه في يده ـ كلّ الناس تملك كعب أخيل يا صاحب السعادة. ها أنت ترى كيف حصلنا على الشيفرة بعد كلّ شيء. أعترف أنّني كنتُ مشغولاً قليلاً وظننتُ أنّك ستحمل السرّ معك إلى القبر، لكنّ زعيمتي كانت بالنتيجة أكثر دهاءً منك ـ أضاف.

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ تمتم الملكُ، مرتبكاً.

ـ بالله عليك، ألم تشكّ بها قطّ يا رجل؟ ألم تتساءل كيف ولماذا دخلت جوديت كينسكي في حياتك الآن بالضبط؟ لا أدري كيف لم تتحقّق من ماضي مُحبة المناظر، الخبيرة بالتوليب، قبل أن تأتي بها إلى قصرك! كم أنت ساذَج! انظر إليها. المرأة التي كنت تُفكّر أن تموت لأجلها هي رئيستي، إنّها المُتخصِّص. هي العقل المدبر وراء كلّ هذه العملية ـ أعلن الأمريكي.

ـ هل صحيح ما يقوله هذا الرجل يا جوديت؟ سأل الملكُ غير مصدِّق.

ـ وكيف تظن أنّنا سرقنا تنينك الذهبيّ؟ هي اكتشفت كيف يتم الدخول إلى الحظار المقدَّس: وضعت كاميرا في قلادتك، ولكي تفعل ذلك كسبت ثقتك ـ قال تِكس أرماديّو.

ـ استغللتِ مشاعري... ـ تمتم الملك شاحباً كالرماد، وعيناه عالقتان في جوديت كينسكي التي لم تكن قادرة على الحفاظ على نظرتها.

ـ لا تقل أنّك عشقتها أيضاً! يا له من أمرٍ مضحك ـ صاح الأمريكي مطلقاً قهقهةً جافّة.

ـ كفى، يا أرماديّو! ـ أمرته جوديت.

ـ هي كانت واثقة من أنّها لن تستطيع أن تنتزع منك السرّ بالقوّة لذلك خطرت لها فكرة التهديد بأنّنا سنعذّبها. هي من الاحتراف بحيث أنّها فكّرت بأن ننفذ ذلك، لا لشيء إلاّ كي تُخيفكَ وتُجبرك على الاعتراف ـ وضّح تِكس أرماديّو.

ـ حسن، يا أرماديّو، لقد انتهى هذا. ليس من الضروري أن تُوقع الأذى بالملك، صار باستطاعتنا أن ننطلق ـ أمرته جوديت كينسكي.

ـ ليس بهذه السرعة، يا زعيمة. جاء دوري. تظنّين أنّني سأسلّمك التمثال، أليس كذلك؟ لماذا سأفعل هذا؟ إنّه يُساوي أكثر من وزنه بكثير، وأفكّر بالتفاوض مع الزبون مباشرة.

ـ هل جُنِنتَ، يا أرماديّو ـ عوت المرأة، لكنّها لم تستطع المتابعة لأنّه قاطعها واضعاً المسدس أمام وجهها.

ـ أعطني المُسجّلة وإلاّ فجّرت رأسك يا سيّدة ـ هدّدها أرماديّو.

توجّهت عينا جوديت المتحفّزتان دائماً لثانية إلى حقيبتها على الأرض. رفّة عين تقريباً، لكنّ هذا هو ما منح أرماديّو السرّ. انحنى الرجل ليأخذ الحقيبة دون أن يتوقّف عن التسديد عليها وأفرغ محتواها على الأرض. ظهرت مجموعة من الأغراض النسائيّة ومسدس وصورة وبعض الأدوات الإلكترونية التي لم يرها الملكُ قط. سقط أيضاً عددٌ من أشرطة التسجيل الدقيقة. رفسها الأمريكيّ بعيداً لأنّها ليست ما يبحث عنه. لم يكن يهمّه إلاّ ذاك الذي كان ما يزال في الجهاز.

ـ أينَ المُسجِّلة؟ ـ صرخ غاضباً.

وبينما كان يُسدِّدُ المسدّس بيدٍ على صدر جوديت كينسكي راح

يفتشها من أعلى إلى أسفل بالأخرى. أخيراً أمرها بخلع الحزام والجزمة، لكنّه لم يعثر على شيء. وفجأة أمعن في سوار العظم المنقوش والعريض الذي يُزيّن ذراعها.

ـ اخلعيه ـ أمرها بنبرة لا تقبل التأخير.

خلعتِ المرأة الزينةَ مكرهةً وناولتها له. تراجع الأمريكيُّ عدّة خطواتٍ كي يتفحّصها تحت النور: فيها كانت تُخبّئ مسجّلة مصغّرة، سجّلت ملذات أعقد جاسوس. من ناحية التكنولوجيا كان المتخصِّص في الطليعة.

ـ ستندم على هذا، يا أرماديّو، أُقسِم لك. لا أحدَ يلعب معي ـ دمدمت جوديت وقد شوَّهها الحنق.

ـ لا أنتِ ولا هذا العجوز المحزن ستعيشان كي تنتقما! تعبتُ من تلقّي الأوامر. لقد أصبحتِ من الماضي يا زعيمة. التمثال والشيفرة والمروحية بحوزتي، ولستُ بحاجة لأيّ شيء آخر. المُقتني سيكون راضياً جدّاً ـ ردّ هو.

وقبل أن يضغط أرماديّو على الزناد بثانية دفع الملكُ جوديت كينسكي بعنف، وحماها بجسده. الرصاصة المخصصة لها أصابته وسط صدره. الثانية أحدثت وميضاً على الجدار الحجري لأنّ ناديا جرت مثل نيزك وارتطمت بكلّ قواها بالأمريكي راميةً إيّاه على الأرض.

نهض أرماديّو على قدميه فوراً بالرشاقة التي تمنحها له سنوات التدريب الكثيرة على فنون القتال. أبعد ناديا بلكمة وقفز قفزةَ هرٍ كي يسقط قريباً من المسدّس الذي تدحرج على مسافة منه. جوديت كينسكي جرت بدورها باتجاهه لكنّ الرجل كان أسرع فسبقها.

اقتحم تِنسينغ مع رجالِ أهلِ الثلج الطرفَ الآخر من الدير حيث

ينتظر معظم الرجال الزرق. بينما كان ألِكساندر يتبع ديل باهادور بحثاً عن الملك، مستدلَّيْن بالصور التي أرسلتها ناديا عقليّاً. على الرغم من أنّ ديل باهادور كان هناك قبل ذلك، إلاّ أنّه لم يتذكّر مخطّط البناء، ثم إنّه وجد مشقّة في تحديد مكانه بين أكوام الأنقاض والعوائق الأخرى المنتشرة في كلّ مكان. كان يمضي أمامه مجهَّزَ القوس بينما ألِكساندر يتبعه مسلّحاً بالعصا الخشبية التي أعاره إيّاها.

حاول الشابان تفادي اللصوص لكنّهما سرعان ما وجدا نفسيهما أمام اثنين منهما، تجمّدا لحظة قصيرة من المباغتة حين رأياهما. هذا التردّد كان كافياً كي يفسح الوقت أمام الأمير ليُطلق سهمَه الموجَّه إلى رِجْلِ أحد الخصمين. لم يكن باستطاعته، حسب مبادئه، أن يقتله، لكن عليه أن يمنع حركته. سقط الرجل على الأرض مطلقاً صرخة من أعماقه، إلاّ أنّ الآخر تناول بغتة في يديه سكينين انطلقتا باتجاه ديل باهادور.

كان الفعل من السرعة بحيث أنّ ألِكساندر لم ينتبه كيف حدث. ما كان باستطاعته أبداً أن يتخلّص من الخناجر، لكنّ الأمير تحرَّك ببطء وكأنّه يقوم بخطوة رقص دقيقة ومرّت شفرتا الفولاذ ملامستين إيّاه دون أن تجرحاه. ومع ذلك لم يتمكّن الرجلُ الأزرق من إشهار سكّين أخرى، لأنّ سهماً دخل في صدره بدقّة عجيبة على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من قلبه تحت عظم الترقوّة، دون أن يمسّ أيّ جهاز حيويّ.

استغلَّ ألِكساندِر هذه اللحظة كي يُنزِلَ ضربة عصا بالرجل الأوّل، الذي كان يستعد من على الأرض وهو ينزف من ساقه، لاستخدام خنجرٍ آخر من خناجره العديدة. فعل ذلك دون تفكير مدفوعاً باليأسِ والسرعة، لكن في اللحظة التي احتكّت بها العصا الغليظة بجمجمة الآخر سمع ألِكساندر صوت جوزة تنكسر. وهذا ما جعله يستعيد وعيه وينتبه إلى وحشيّة فِعله. فاجتاحته موجةٌ من

الغثيان. علاه العرقُ البارد، امتلأ فمه باللعاب وظنّ أنّه سيتقيّأ، لكنّ ديل باهادور كان يمضي راكضاً أمامه وعليه أن يتغلّب على ضعفه ويتبعه.

لم يكن الأميرُ يخافُ أسلحةَ اللصوص، لأنّه يعتقد أنّ التميمة السحريةَ التي أعطاها له تِنسنيغ، والتي يعلّقها إلى عنقه، تحميه: وهي روث التنين المتحجّر. بعدها بوقت طويل وحين روى أَلِكساندر ذلك لجدّته كات، علّقت قائلة إنها ليست هي التي أنقذت ديل باهادور من الخناجر، بل تدريباته على التاو - شو، التي سمحت له بتفاديها.

- لا يهمّ ما كانت، المهمّ أنّها فاعلة - ردّ الحفيد.

اقتحم ديل باهادور وألِكساندر القاعةَ التي كان فيها الملك لحظة انغلاق يد أرماديّو على المسدّس متفوّقاً على جوديت كينسكي بجزء من ألف من الثانية. وفي اللحظة التي استغرقها الأمريكي ليضع إصبعه على الزناد أطلق الأميرُ سهمَه الثالث فاخترق ساعده، فأفلتت من صدر أرماديّو صيحة رهيبة، لكنّه لم يُفلت سلاحه، بقي المسدّس بين أصابعه وإنّ كان من المفترض أنّه ما عاد قادراً على التسديد وإطلاق النار.

- لا تتحرّك - صاح ألِكساندِر بصوت شبه هستيريّ دون أن يدري كيف يتفاداه، فعصاه لا عمل لها أمام رصاص الأمريكي.

بعيداً عن إطاعته أخذ أرماديّو ناديا بذراعه السليمة ورفعها مثل دمية محتمياً بجسدها. بوروبا الذي تبع ديل باهادور والِكساندِر، جرى ليتعلّق بساق صاحبته وهو يزعق يائساً، لكن رفسة من الأمريكيّ رمته بعيداً. على الرغم من أنّ الصغيرة كانت ما تزال نصف غائبة عن الوعي فقد حاولت أن تُدافع عن نفسها بوهنٍ، لكنّ ذراعَ أرماديّو الحديديّة لم تسمح لها أن تقوم بأدنى حركة.

قدَّر الأميرُ إمكانياته. كان يثق بتسديده بشكلٍ أعمى، لكنّ خطر

أن يُطلقَ الرجلُ النار على ناديا كان كبيراً جدّاً. نظرَ عاجزاً إلى تِكس أرماديّو وهو يتراجع باتجاه المخرج، يجرّ الفتاة المتخشّبة إلى الفسحة الصغيرة حيث تنتظر المروحية فوق طبقة رقيقة من الثلج.

استغلّت جوديت كينسكي الإرباك الحاصل كي تهرب جارية بالاتجاه المعاكس وضائعة بين خرائب الدير.

بينما كان كلّ هذا يحدث في طرف من البناء كان يتمّ على الطرف الآخر مشهد عنيف. فقد اجتمع معظم الرجالِ الزرق حول موقد مرتجَلٍ، وراحوا يتناولون الكحول من مطراتهم ويمضغون التامول ويناقشون بصوت منخفضٍ إمكانية خيانة تِكس أرماديّو. طبعاً كانوا يجهلون أنّ من كان يعطي الأوامر حقيقةً هي جوديت كينسكي، فقد ظنوا أنّها رهينة مثل الملك. كان الأمريكيّ قد دفع لهم عدّاً ونقداً ويعرفون أنّ الأسلحة والخيول، التي تختم الصفقة، تنتظرهم في الهند، لكنّهم عندما رأوا التمثال الذهبيّ مغطّى بالحجارة الكريمة اعتبروا أنّه مدين لهم بأكثر من ذلكِ بكثير. لم تعجبهم فكرة ألا يكون الكنز الذي في المروحيّة في متناول أيديهم، وإن كانوا يُدركون أنّها الطريقة الوحيدة لإخراجه من البلد.

ـ علينا أن نخطف الطيّار ـ اقترح الزعيم مدمدماً بين أسنانه وهو يلقي نظرة على البطل النيبالي، الذي كان يشرب فنجان قهوته بالحليب المكثّف في زاوية.

ـ من سيذهب معه؟ ـ سأل أحدُ اللصوص.

ـ أنا سأذهب ـ قرّر الزعيم.

ـ ومن سيضمن لنا أنّك لن تسطو على الغنيمة؟ ـ أوقفه رجل آخر من رجاله.

رفع الزعيمُ يده إلى أحد خناجره مغتاظاً، لكنّه لم يستطع أن يكمل الحركة لأنّ تِنسينغ دخل يتبعه رجال أهلِ الثلج مثل إعصار في

الجناح الجنوبي من تشينثان دزونغ. كانت الفصيلة الصغيرة مرعبة حقّاً. يتقدّمها الراهب مسلحاً بعصوين متصلتين بسلسلة، وجدهما بين خرائب ما شكّل في الماضي قاعة سلاح الرهبان المحاربين المشهورين، الذين قطنوا الدير المحصّن. وكان باستطاعة أيّ شخص أن يتكهّن من الطريقة التي يهزُّ بها العصوين ويحرّك جسده أنّه خبير بفنونِ القتال. خلفه كان يمضي رجال أهلِ الثلج العشرة بمظهرهم المخيف في العادة، وفي تلك الحالة كانوا مثل مسوخ خارجة من أسوأ كابوس. بدا وكأنَّهم تضاعفوا مثيرين ضجّة قبيلة من الرحّل. لا شيء فيهم، بهراواتهم وحجارتهم ودروعهم الجلديّة وقبّعاتهم المريعة بقرونها المصبوغة بالدم يدلّ على أنّهم كائنات بشرية. كانوا يصرخون ويقفزون مثل سحالى مسعورة، سعيدين بالفرصة التي ستسمح لهم بتوزيع ضربات هراواتهم، ثمّ ولماذا لا، لتلقّيها أيضاً، لأنّ ذلك جزء من التسلية. أمرهم تِنسينغ بالهجوم مذعناً لمسألة أنّه لا يستطيع السيطرة عليهم. رفع قبل اقتحام الدير صلاة قصيرة إلى السماء طالباً ألا يقع قتلى في المواجهات لأنّهم سيثقلون على ضميره. لم يكن رجال أهلِ الثلج مسؤولين عن أعمالهم؛ فما أن تستيقظ عدوانيّتهم حتى يفقدوا القليل من العقل الموجود عندهم.

ظنّ الرجالُ الزرق المتطيّرون أنّهم ضحيّة سحر التنين الذهبي، وأن جيشاً من الشياطين جاء ينتقم للتدنيس المرتكب. كان باستطاعتهم مواجهة أسوأ الأعداء، لكن فكرة أنّهم أمام قوى من الجحيم أرعبتهم؛ فراحوا يركضون مثل وعول يلاحقهم عن قرب رجالُ أهلِ الثلج أمام ذعر الطيّار التي التصق بالجدار كي يتركهم يمرّون وفنجان قهوته ما يزال في يده، لا يدري ما الذي يجري حوله. كان قد جاء افتراضاً لنقل بعض العلماء وبدلاً منهم وجد نفسه وسط قبيلة من البرابرة المطليين بالأزرق والقرودِ الفضائيين وراهب عملاق مسلّح كما في أفلام الكونغ ـ فو الصينية.

وما إن مرّت عاصفة اللصوص ورجال أهلِ الثلج حتى وجد اللاما والطيّار نفساهما وحيدين فجأة.

ـ *ناماستِهْ* ـ حيّاه الطيّار حين استعاد صوته، لأنّه لم يخطر له شيء آخر.

ـ *تاتشو كاتشي* ـ حيّاه تِنسينغ بلغته، منحنياً قليلاً كما لو في لقاءٍ اجتماعي.

ـ أيّة شياطين تحدث هنا؟ ـ سأل الأوّل.

ـ ربّما كان من الصعب قليلاً شرحه. الذين يعتمرون خوذات بقرون هم أصدقائي، رجال أهلِ الثلج. الآخرون سرقوا التنين الذهبي واختطفوا الملك ـ أعلمه تِنسينغ.

ـ هل تقصد التنين الذهبي الأسطوريّ؟ إذن هذا هو ما وضعوه في المروحيّة! ـ صرخ البطل النيبالي وخرج مثل السهم باتجاه منطقة هبوط المروحيّة.

تبعه تِنسينغ. بدت له الحالة مضحكة قليلاً لأنّه لم يكن يعرف بعدُ أنّ الملك جريح. رأى من فجوة في الجدار أعضاء طائفة العقرب يركضون هابطين الجبل، يلاحقهم رجالُ أهلِ الثلج. عبثاً حاول أن ينادي الأخيرين بقواه العقلية: كان محاربو غرْزْ ـ يمبّرْ يتسلون ولا يستطيعون أن يولوه انتباهاً. أصوات حربهم المرعبة تحوّلت إلى صياح لذّة مُسبقة، كأنّهم أطفال يلعبون. صلّى تِنسنيغ مرّة أخرى كيلا يُدركوا أحداً من اللصوص، فهو لا يريد أن يستمرّ في إضافة لطخاتٍ دامغة، ناتجة عن أعمال العنف، إلى كارماه.

ما إن خرج من الدير ورأى المشهد الذي يتمّ أمام عينيه حتى تغيّر مزاج تِنسينغ الرائق. أجنبيّ، قدّر أنّه الأمريكي الذي يترأس الرجال الزرق، حسب ما قالته له ناديا، كان بجانب المروحية. سهم يخترق أحد ذراعيه من جانب إلى آخر، لكنّ هذا لم يمنعه من التلويح

بمسدّسه، وحمل ناديا بالذراع الأخرى في الهواء عملياً، شادّاً إيّاها إلى جسده، بحيث تفيده الفتاة درعاً.

كان ديل باهادور على بعد ثلاثين متراً تقريباً، مشدودَ القوس، جاهزَ السهم، يرافقه ألِكساندِر مُتَخشِّباً في مكانه لا يسدّد على شيء.

ـ اترك السهم! تراجعا وإلاّ قتلت الصغيرة ـ هدَّد تِكس أرماديّو ولم يساور أحداً الشكّ بأنّه قد يفعل ذلك.

أفلت الأميرُ سلاحَه وتراجع الشابان باتجاه خرائبِ البناء، بينما تِكس أرماديّو يدبّر نفسه كي يصعد إلى المروحية جارّاً ناديا وقاذفاً بها إلى الداخل بقوّةٍ وحشية.

ـ انتظر! لا تستطيعِ أن تخرج من هنا من دوني! ـ صاحِ الطيار في تلك اللحظة متقدّماً، لكنّ الآخر كان قد أدار المحرِّكَ وبدأت المروحة بالدوران.

كانت بالنسبة إلى تِنسينغ فرصة لممارسة قواه النفسية الخارقة. وكان أكبر برهان على التلكؤ يقوم على تعديل سلوك الطبيعة. كان عليه أن يركِّز ويستحضر الريح كي تمنع الأمريكيَّ من الهرب بكنزِ أمَّته المقدَّس. ومع ذلك فإنّه إذا أخذ إعصارٌ المروحيةَ في أوج طيرانها فإنّ ناديا ستموت أيضاً. قدّر عقل اللاما بسرعة الإمكانيات وقرَّرَ أنّه لا يستطيع المجازفة: فحياة كائنٍ بشري أهمّ من كلّ ذهب العالم.

عاد ديل باهادور وأخذ قوسَهُ، لكنه صار من غير المجدي أن يُهاجم تلك الآلة المعدنية بالسهام. وأدرك ألِكس أنّ ذلك الرجل عديم الضمير يحمل معه ناديا فراح يصيح باسم صديقته. لم يكن باستطاعة الشابّة أن تسمعه، لكنّ ضجيج المحرّك وزوبعة الهواء التي أثارتها المروحة استطاعا أن يخرجاها من ذهولها. كانت قد سقطت مثل كيس من رزّ على المقعد، مدفوعة من خاطفها. استغلّت ناديا في اللحظة التي بدأت فيها الآلة بالارتفاع، انشغالَ تِكسْ

أرماديّو بأجهزة التحكّم، التي كان عليه أن يستخدم فيها يد واحدة بينما الذراع المجروحة تتدلّى معطوبة، وانسلّت باتجاه الباب. فتحته وقفزت في الفراغ دون أن تنظر إلى الأسفل أو تفكّر بالأمر مرّتين.

ركض ألِكس نحوها دون أن يتفادى المروحية التي كانت تترنّح فوق رأسه. كانت ناديا قد سقطت عن ارتفاع مترين لكنّ الثلج امتصّ الصدمة، فلولا ذلك لكان من الممكن أن تموت.

- يا نسر! هل أنت بخير؟ - صاح ألِكساندر مذعوراً.

رأته يقترب فأومأت مندهشة من مأثرته أكثر مما هي خائفة. خنق ضجيج المروحيّة في الجوّ الأصوات.

اقترب تِنسينغ بدوره بينما اكتفى ديل باهادور بمعرفة أنّها حيّة، وعاد راكضاً باتجاه القاعة التي ترك فيها والده مخترقاً برصاصة تِكس أرماديّو. حين انحنى تِنسينغ فوق ناديا صرخت قائلة له إنّ الملك مصاب بجرح بليغ وطلبت منه أن يذهب إليه. هرع الراهب إلى الدير لاحقاً بالأمير، بينما ألِكساندر يحاول أن يريح صديقته قليلاً واضعاً سترته تحت رأسها وسط الزوبعة ونثرات الثلج التي أثارتها المروحية. كانت ناديا مكدومة كفاية بسبب السقطة، لكنّ كتفها، الذي انخلع قبل ذلك، كان في مكانه.

- يبدو أنّني لن أموت شابّة جدّاً - علّقت ناديا، مستجمعة شجاعتها كي تنهض. كان فمها وأنفها مليئين بالدم من اللكمة التي أنزلها بها أرماديّو.

- لا تتحرّكي حتى يعودَ تِنسينغ - أمرها ألِكساندِر الذي لم يكن في وضعية يقبل فيها المزاح.

رأت ناديا من وضعيتها على ظهرها المروحيةَ ترتفع مثل حشرة فضّية كبيرة على خلفية السماء شديدةِ الزرقة. مرّت ملامسة جدار الجبل وصعدت متمايلة عبر القمم الذي تُشكّله قمم الهيمالايا.

بدا لدقائق طويلة أنّها تصغر وهي تبتعد في قبّة السماء أكثر فأكثر. دفعت ناديا ألِكساندِر الذي كان يصرُّ على إبقائها مستلقية فوق الثلج، وانتصبت على قدميها بجهدٍ كبير. وضعت قبضة ثلج في فمها وبصقتها على الفور وقد صارت وردية من الدم. راح وجهها يتورّم.

- انظروا - فجأةً صاح الطيّارُ، الذي لم يرفع نظره عن المروحية.

كانت الآلة تتذبذب في الجوّ مثل ذبابة متوقّفة في أوج طيرانها؛ والبطل النيبالي يعرف تماماً ما يجري: دوّار هواء لفّها وشفرات المروحة ترتجّ بشكلٍ خطير. راح يومئ قانطاً، صائحاً بتعليماته التي من الطبيعي أنّ أرماديّو لم يكن باستطاعته سماعها. الإمكانية الوحيدة للخروج من الدوّار هي الطيران مع الدوّار في صعود لولبي. فكّر ألِكساندر أنّ ذلك مثل رياضة التزلج على الماء: يجب أخذ الموجة في اللحظة الدقيقة واستغلال الاندفاع وإلاّ فإنّ قوّة البحر تقلب المرء.

كان تِكس أرماديّو قد طار قبل ذلك ساعاتٍ كثيرة، فهذا أمر لا غنى عنه لرجلٍ له طبيعة عمله وقاد كلّ أنواعِ الطائرات الكبيرة والصغيرة والمروحيات، بل وحتى منطاداً قابلاً للتوجيه. إذ هكذا كان يجتاز حدوداً لتمرير الأسلحة المهرّبة والمخدرات والأشياء المسروقة دون أن يُرى. كان يُعتبر خبيراً، لكن ما من شيء هيّأه لما جرى.

في اللحظة التي خرج فيها من القمع تماماً وراح يصيح بحماس، كما كان يفعل حين يُروِّض الأمهارَ في مزرعته البعيدة في الغرب الأمريكي، شعرَ بالارتجاج الرهيب الذي راح يهزّ الآلة. أدرك أنّه لا يستطيع التحكّم بها، وراحت هذه تدور وتدور بسرعة أكبر كما لو أنّها تتخبّط في خلاّط. أُضيف إلى هدير المحرّك والمروحة دويّ الريح. حاول أن يُفكّر معتمداً على أعصابه الفولاذية وتجربته المتراكمة لكن ما من شيء أعطى نتيجة. بقيت المروحية تدور

مجنونة وقد حاصرها الدوار. فجأة لفت صوتٌ مدوّ وخبطة عنيفة انتباه أرماديّو إلى أنّ المروحة تحطّمت. بقيت في الهواء عدّة دقائق أخرى تحملها قوّة الريح إلى أن بدّلت هذه مجراها. سادت لحظةُ صمتٍ وراودَ أملٌ عابر أرماديّو بأنّه ما زال باستطاعته أن يُناور، لكن سرعان ما بدأ السقوط العموديّ.

تساءل ألِكساندر بعد ذلك عمّا إذا انتبه الرجلُ إلى ما كان يجري وعمّا إذا أدركه الموت مثل ومضة، دون أن يسمح له بالإحساس بوصوله. لم يرَ الفتى من مكان تواجده أين سقطت المروحية، لكنّ الجميع سمعوا الانفجارَ العنيف ورأوا على الفور عمودَ دخان أسود وكثيفاً يرتفع في السماء.

وجدَ تِنسينغ الملكَ جامداً على الأرض ورأسه على ركبتي ابنه ديل باهادور، الذي راح يمسح له شعره. لم يكن الأميرُ قد رأى أباه منذ كان طفلاً في السادسة من عمره حين اقتلعوه من سريره ذات ليلةٍ ووضعوه في ذراعي تِنسينغ، لكنّه استطاع التعرفَ عليه لأنّه احتفظ خلال هذه السنوات بصورته في ذاكرته.

ـ أبتِ، أبتِ!... ـ راح يهمس، عاجزاً أمام ذلك الرجل الذي كان ينزف أمام عينيه.

ـ يا صاحب الجلالة أنا تِنسينغ ـ قال اللاما، منحنياً بدوره فوق العاهل.

رفع الملكُ عينيه اللتين غشاهما الاحتضار. وحين ركّز نظره رأى شابّاً رائعاً يشبه زوجتَهُ المرحومة بوضوح. أشار إليه أن يقترب أكثر.

ـ اسمعني يا بُنيّ يجب أن أقول لكَ شيئاً... ـ تمتم.

تنحّى تِنسينغ جانباً كي يمنحهما لحظةً على انفراد.

ـ اهرع فوراً إلى قاعة التنين الذهبي في القصر ـ أمره الملكُ بصعوبة.

ـ أبتِ لقد سرقوا التمثال ـ أجابُ الأميرُ.

ـ على أية حال، اهرع!

ـ كيف يمكنني أن أفعل هذا إذا لم تذهب معي؟

منذ أزمنة غابرة كان الملوك هم من يُرافقون دائماً وليَّ العهدِ في المرّة الأولى ليعلموه تجنّبَ الأفخاخ القاتلة التي تحمي الحظار المقدّس. تلك الزيارة الأولى للأب والابن إلى التنين الذهبيّ كانت طقسَ ابتداءٍ تحدّدُ نهايةَ عهدٍ وبداية آخر.

ـ عليك أن تفعل ذلك وحيداً ـ أمره الملكُ وأغمض عينيه.

اقترب تِنسينغ من تلميذه ووضع يده على كتفه.

ـ ربّما عليك أن تُطيع أباك، يا ديل باهادور ـ قال اللاما.

في هذه اللحظة دخل ألِكساندِر إلى القاعةِ، ساندأ ناديا من إحدى ذراعيها لأنّ ركبتيها كانتا تخونانها، ومعه الطيارُ النيبالي الذي لم يكن قد خرج بعد من ذهوله من ضياع مروحيّته وتراكم المفاجآت التي مرّ بها في هذه المهمّة. بقيت ناديا والطيّار على مسافة حكيمة دون أن يجرؤا على التدخل في المأساة التي كانت تجري أمام أعينهما بين الملك وابنه، بينما ألِكساندر ينحني ليتفحّص محتويات حقيبة جوديت كينسكي التي كانت ما تزال على الأرض.

ـ عليكَ الذهاب إلى حظار التنين الذهبي يا وَلدي ـ كرَّر الملكُ.

ـ هل يستطيع أن يذهب معي مُعلِّمي المُحترم تِنسينغ؟ تدريبي كان نظريّاً فقط. لا أعرف القصر ولا الأفخاخ؛ وخلفَ الباب الأخير ينتظرني الموت ـ أضاف الأميرُ.

ـ من غير المجدي أن أذهب معك لأنّني أنا أيضاً لا أعرف الطريق، يا ديل باهادور. مكاني الآن بجانب الملك ـ ردّ اللاما بحزن.

- هل ستستطيع إنقاذ أبي يا مُعلّمي المُحترَم؟ - توسّل ديل باهادور.

- سأعمل كلّ المُستطاع.

اقتربَ ألِكساندِر من الأمير وسلّمه آلة صغيرة لا يمكن لهذا أن يتصوّر عملها.

- تستطيع هذه أن تُساعِدك في العثور على الطريق داخل الحظار المقدّس. إنّه جهاز الـ(GPS) - قال.

- ماذا؟ - سأل الأميرُ مشوَّشاً.

- لنقُل إنّه مُصوِّر إلكترونيّ كي يعرف المرء مكانه في القصر. وهكذا تستطيع أن تصل إلى قاعة التنين الذهبي كما فعل تِكس أرماديّو ورجاله لسرقة التمثال - وضّح لصديقه.

- كيف يمكن هذا - سأل ديل باهادور.

- أتصوّر أنّ أحداً صوّر الطريق - قال ألِكساندر.

- هذا مُحال لا أحد غير أبي يدخل إلى هذا القسم من القصر. لا أحد غيره يستطيع أن يفتح البابَ الأخير ويتفادى الأفخاخ.

- أرماديّو فعل ذلك، لا بدّ أنّه استخدم هذا الجهاز. كان هو وجوديت كينسكي شريكين. قد يكون أبوك بينّ لها الطريق... - أصرّ ألِكساندر.

- القلادة! لقد قال أرماديّو شيئاً عن كاميرا مخبّأة في قلادة الملك! - صاحت ناديا، التي حضرت المشهد بين المُتخصّص وتِكس أرماديّو قبل أن يقتحم أصدقاؤها القاعة.

اعتذرت ناديا عمّا كانت ستفعله وشرعت بأكبر قدر من الحذر تفتش شخص الملك المطروح، إلى أن وقعت على القلادة الملكية التي كانت قد انزلقت بين عنق الملك وسترته. طلبت من الأمير أن يُساعِدها في انتزاعها فتردَّد، لأنّ لهذه الحركة معنى عميقاً:

فالقلادة تُمثِّل القوّة الملكية، ولا يجرؤ بأيّ شكلٍ من الأشكال على انتزاعها من أبيه. لكنّ العجلة في صوت صديقته ناديا أجبرته على القيام بذلك.

أخذ ألِكساندر الجوهرةَ إلى النور وتفحَّصها قليلاً. اكتشف على الفور الكاميرا المصغَّرة مُموَّهة بين تزيينات المرجان. أراها لديل باهادور والبقية.

ـ بالتأكيد جوديت كينسكي وضعتها هنا. هذا الجهاز الذي كان بحجم بذرة خرنوب صوّر خطَّ سيرِ الملك داخل الحظار المُقدَّس، وهكذا استطاع تِكس أرماديّو ومحاربوه الزرق أن يتبعوه، فكلّ خطواته مسجّلة في جهاز الـ(GPS).

ـ لماذا فعلت هذه المرأة هذا ـ سأل الأميرُ مذعوراً لأنّ عقله لا يستوعب مفهوم الخيانة ولا الطمع.

ـ أعتقدُ أنه من أجل التمثال، القيِّم جدّاً ـ غامر ألِكساندر.

ـ هل سمعتم الانفجار؟ تحطّمت المروحيّةُ ودُمّر التمثال ـ قال الطيّار.

ـ ربّما كان هذا أفضل... ـ تنهّد الملك دون أن يفتح عينيه.

ـ بأكبر قدر ممكنٍ من التواضع أسمح لنفسي بالتلميح إلى أن يرافق الشابّان الأجنبيان الأميرَ إلى القصر. ألِكساندِر ـ جغوار وناديا ـ نسر نقيّا القلب مثل الأمير ديل باهادور، فربّما استطاعا أن يُساعِداه في مهمّته يا صاحب الجلالة. الشابّ ألِكساندر يعرف استخدام هذا الجهاز وناديا تعرف كيف ترى وتسمع بقلبها ـ اقترح تِنسينغ.

ـ وحدهما الملكُ ووليّ العهد يستطيعان الدخول إلى هناك ـ تمتم الملكُ.

ـ بكلّ احترام أجرؤ، يا صاحب الجلالة، على مناقضتك. ربّما كانت هناك لحظات يجب فيها كسر التقليد... ـ أصرّ اللاما.

تبع كلماتِ تِنسينغ صمتٌ طويل. بدا كأنّ قوى الجريح بلغت نهاياتها لكن سرعان ما سُمِع صوته من جديد.

- حسناً ليذهب الثلاثة - قبل الملكُ أخيراً.

- ربّما ليس من السيّئ جدّاً أن أُلقي نظرة على جرحكَ ياصاحب الجلالة - اقترح تِنسينغ.

- ولماذا، يا تِنسينغ؟ ها قد صار عندنا ملك آخر. انتهى وقتي.

- ربّما لن يكون عندنا ملك حتى يجرِّب الأميرُ أنّ باستطاعته أن يكون كذلك - ردّ اللاما رافعاً الجريحَ بين ذراعيه الجبّارتين.

عثر البطل النيبالي على كيس نوم تركه تِكس أرماديّو في زاوية ليرتجل سريراً، وضع تِنسينغ الملكَ عليه. فتح اللاما السترة المدماة وشرع بغسل صدرَه ليفحصه. كانت الرصاصةُ قد اخترقته مخلِّفة ثقباً وحشياً ومخرجاً في الظهر. أدرك تِنسنيغ من مظهر وموضع الجرح ولون الدم أنّ الرئتين في وضع حرج. فقدرته على أن يشفيه وقدراته العقلية لا تكاد تفيده في مثل هذه الحالة. المحتَضَر كان يعرف هذا أيضاً؛ لكنَّه يحتاج إلى مزيد من الوقت القليل المُتبقي كي يتخذ إجراءاته الأخيرة. أوقف اللاما النزيف، ضمّد القفا جيّداً وأمر الطيار أن يأتيه بماء مغليّ من الموقد المرتجل كي يصنع شاياً طبّيّاً. بعد ساعة استعاد الملكُ وعيه وفطنته، مع أنّه كان واهناً جدّاً.

- يا بُنيّ، عليك أن تكون ملكاً أفضل منّي - قال لِديل باهادور، مشيراً إليه كي يُعلّق القلادة الملكية إلى عنقه.

- هذا محالٌ، يا أبتِ.

- اسمعني، لأنّه ليس هناك وقت طويل. هذه تعليماتي. أوّلاً: تزوّج سريعاً من امرأة قوّية مثلك. هي من يجب أن تصبح أمّ شعبنا وأنت أبوه. ثانياً: حافِظ على طبيعة وتقاليد مملكتنا؛ ولا تثِق بما

يأتي من الخارج. ثالثاً: لا تُعاقِب جوديت كينسكي، المرأة الأوروبية. لا أرغب بأن تقضي حياتها في السجن. لقد ارتكبت أخطاءً في غاية الخطورة. لكن ليس من شأننا تنظيف كارماها. عليها أن تعود في تقمّصٍ آخر كي تتعلّم ما لم تتعلَّمه في هذا.

على الفور تذكّر المرأةَ المسؤولة عن المأساة القائمة. كانوا يفترضون أنّها لا يمكن أن تمضي بعيداً جدّاً، لأنّها لا تعرف المنطقة، فهي بلا سلاح ولا مؤونة ولا ثياب واقية وحافية ظاهرياً، لأنّ أرماديّو أجبرها على خلع جزمتها. لكنّ ألِكساندِر فكّر بأنّها إذا كانت قد استطاعت أن تسرقَ التنين بتلك الطريقة المذهلة فستستطيع أيضاً أن تهرب من الجحيم ذاته.

ـ لا أشعر بنفسي قادراً على الحكم، يا أبتِ ـ أنّ الأميرُ مطأطأ الرأس.

ـ ليس أمامك خيار، يا بُنَيّ. لقد أُحسِن تدريبُك، وأنت شجاع ونقيّ القلب. اطلب نصيحة التنين الذهبي.

ـ لقد دُمّر!

ـ اقترِبْ، عليَّ أن أقول لك سرّاً.

انسحب البقيّة عدّة خطواتٍ إلى الوراء كي يتركوهما وحيدين، بينما وضع ديل باهادور أذنه على شفتي الملك. سمع الأميرُ أكثر أسرار المملكة كتماناً، السر الذي لا يعرفه منذ ثمانية عشر قرناً غير الملوك المُتوَّجين.

ـ ربّما حانت ساعة أن تودّعه يا ديل باهادور ـ اقترح تِنسينغ.

ـ هل أستطيع أن أبقى مع أبي حتى النهاية...؟

ـ لا، يا بُنَيّ، عليك أن تنطلق الآن بالذات... ـ تمتم العاهل.

قبّل ديل باهادور أباه على جبينه وتراجع. ضمّ تِنسينغ تلميذَه في عناق قويّ. لقد تودّعا لزمن طويل، ربّما للأبد. على الأمير أن

يواجه تجربة الشروع بالعمل ويمكن ألاّ يعود حيّاً، وعلى اللاما من ناحيته أن يفي بوعده الذي أعطاه لِـ غرر - يمبّر ويذهب ليحلّ محلّها لستّ سنوات في وادي أهل الثلج. وشعر تِنسينغ، للمرّة الأولى في حياته، بنفسه مهزوماً بالتأثّر: كان يُحبّ ذلك الفتى كما يُحبّ ولده وأكثر من نفسه. والانفصال عنه يؤلمه مثل حرق. حاول اللاما أن يتخذ مسافة بينه وبين الفتى ويسكّن لهفة قلبه. راقب تطوّر عقله ذاته وتنفّس بعمق مراقباً عواطفه الجامحة وأنّه ما زال أمامه طريق طويلة كي يُدرِك التخلّص المطلق من الشؤون الدنيوية، بما فيها العواطف. كان يعرف أنّه لا يوجد انفصال على المستوى الروحي. وتذكّر أنّه هو نفسه علَّمَ الأمير أنّ كلّ كائن يشكّل جزءاً من وحدةٍ واحدة. كلّ شيء متصل. هو وديل باهادور سيبقيان أبداً متواصلين في هذا الدورِ من التقمّص وفي تقمصاتٍ أخرى. لماذا يشعر إذن بهذا الضيق؟

- ترى هل سأكون قادراً على الوصول إلى الحظار المقدّس، يامُعلّمي المحترم؟ - سأل الشابُ مقاطعاً أفكاره.

- تذكّر أنّ عليك أن تكون مثل نمر الهيمالايا: اسمع صوت الحدس والغريزة. ثقْ بفضائل قلبِك - ردّ الراهبُ.

شرعَ الأمير وناديا وألِكساندِر برحلة العودة إلى العاصمة. بما أنّهم كانوا يعرفون الطريق فقد جهّزوا أنفسهم للعوائق. استعملوا طريق وادي أهل الثلج المختصر، بحيث لم يعبروا بفصيلة جنود الجنرال ميار كونغلونغ، الذي كان يصعد في تلك اللحظة في طريق الجبل الوعر ترافقه كاتْ كولدْ وبِمّا.

بالمقابل لم يتمكّن الرجالُ الزرقُ من تفادي كونغلونغ. فقد جروا هابطين الجبل بأسرع مما تسمح به الأرض الوعرة، هاربين من الشياطين المريعة التي تُلاحقهم. لم يتمكّن رجالُ أهلِ الثلج من

إدراكهم لأنّهم لم يجرؤوا على الهبوط أبعدَ من الحدود المعتادة. فهذه المخلوقات محفور في ذاكرتها الجينية قانونها الأساسيّ: البقاء معزولين. نادراً ما كانوا يغادِرون واديهم السرّي، وإذا فعلوا فللبحث عن الغذاء في أعصى القمم فقط، بعيداً عن البشر. هذا ما أنقذ رجال طائفة العقرب لأنّ غريزة البقاء عند أهل الثلج كانت أقوى من الإمساك بأعدائهم؛ وقد جاءت لحظة توقّفوا فيها جامدين. لم يفعلوا ذلك برغبة طيّبة لأنّ التخلّي عن معركة لذيذة، ربما الوحيدة المتاحة لهم خلال سنوات كثيرة، شكّلت بالنتيجة تضحية كبيرة. بقوا برهة طويلة يعوون من الخيبة، تبادلوا فيما بينهم بعض ضربات الهراوات كي يواسوا أنفسهم، ثمّ شرعوا مطأطئي الرؤوس بالعودة إلى أماكنهم.

لم يدرِ محاربو العقرب لماذا تخلّى شياطين الخوذات المدماة عن ملاحقتهم، لكنّهم شكروا الآلهة كالي على ذلك. كانوا من الخوف بحيث أنّ فكرة العودة للسطو على التمثال، كما خطّطوا، لم تخطر ببالهم. تابعوا هبوطهم في الدرب ذاته الممكن فوجدوا أنفسهم حكماً أمام جنود المملكة الممنوعة.

- إنّهم هم، الرجال الزرق! - صاحت بِمّا ما إن لمحتهم من بعيد.

لم يجد الجنرال ميار كونغلونغ صعوبة في القبض عليهم لأنّه لم يكن أمامهم مجال للهرب. سلّموا أنفسهم دون أن يُبدوا أيّة مقاومة. أخذ ضابط على عاتقه أمر سوقهم إلى العاصمة تحرسهم غالبية الجنود، بينما تابعت بِمّا وكاتْ والجنرال وعددٌ من أفضل رجاله طريقهم باتجاه تشينتان دزونغ.

- ماذا ستفعلون بهؤلاء اللصوص؟ - سألت كات الجنرال.

- ربّما درس اللاماتُ حالتهم واستُشيرَ القضاةُ ليقرّر الملك عقوبتهم. على الأقل هذا ما تمّ في مرّات سابقة، لكنّنا في الحقيقة لا نملك تجربة كبيرة في معاقبة المجرمين.

- في الولايات المتحدة ربّما كانوا سيقضون بقيّة حياتهم في السجن.

- وهل سيُدركون هناك الحكمةَ؟ - سأل الجنرال.

بلغت قهقهات كاتْ حدّاً أوشكت معه على السقوط عن الجواد.

- أشكُّ بذلك يا جنرال - ردّت وهي تجفِّف دموعها حين استعادت أخيراً توازنها.

لم يعلم ميار كونغلونغ ما الذي سبب كلّ ذلك الضحك عند الكاتبة العجوز. وخلص إلى أنّ الأجانب أشخاص غريبو الأطوار قليلاً، آدابهم غير مفهومة، ومن الأفضل عدم إضاعة الطاقة في محاولة تحليلهم؛ يكفي قبولهم.

في هذه الأثناء كان الليل قد بدأ يخيّم وصار من الضروري التوقّف ونصب مخيّم صغير، مستغلين إحدى الشرفات المقطوعة في الجبل. كانوا متلهفين للوصول إلى الدير، لكنّهم كانوا يُدركون أن التسلّق أكثر دون أيّ نور آخر غير نور المصابيح الكهربائية، عمل جنونيّ.

كانت كاتْ مُنهَكة. فقد أُضيف إلى الرحلة الارتفاعُ الذي لم تكن معتادة عليه، والسعالُ الذي لم يكن يتركها بسلام. ولم يكن يسندها غير إرادتها الحديدية والأمل بأن تعثر هناك على ألْكساندِر ونادِيا.

- ربّما عليك ألاّ تنشغلي، يا جُديْدة. فحفيدك ونادِيا في أمان لأنّه بوجود الأمير وتِنسينغ لا مكروه يمكن أن يحدث لهما - طمأنتها بِمّا.

- لا بدّ أن أمراً سيئاً جدّاً حدث في الأعلى حتى هرب هؤلاء اللصوص بهذه الطريقة - ردّت كاتْ.

- لقد ذكر هؤلاء الرجال شيئاً عن سحر التنين الذهبي وملاحقة بعض الشياطين. هل تعتقدين أنّه يوجَد شياطين في هذه الجبال ياجُدَيْدة؟ - سألت الشابّة.

ـ لا أعتقد بأيّ من هذه الترهات، يا صغيرة ـ ردّت كاتْ التي كانت قد أذعنت لأن تُنادى بِجُدَيْدَة من قِبل الجميع في ذلك البلد.

بدا لهم الليل طويلاً جدّاً. حضّر الجنودُ فطوراً بسيطاً من الشاي المالح مع الزبدة والرز وبعض النباتات الجافّة التي لها مظهر وطعم نعل حذاء، تابعوا بعدها المسير. لم تبق كاتْ في الخلف على الرغم من سنواتها الخمس والستين ورئتيها المنهكتين بدخان التبغ. ولم يكن الجنرال ميار كونغلونغ يقول شيئاً أو يوجّه إليها نظرته خوفاً من أن تلتقي عيناه بعينيها الزرقاوين النافذتين، لكن في قلبه، قلب المحارب، بدأ ينبثق إعجاب حتمي. في البداية كان يمقتها ولا يتصوّر الساعة التي سيتخلّص فيها منها، لكنه تخلّى مع مرور الأيّام عن اعتبارها عجوزاً مستحيل التعامل معها واحترمها.

جاءت بقيّة الصعود دون مفاجآت. حين استطاعوا أخيراً أن يُطلّوا على الدير المحصّن ظنّوا أنّه لا أحد هناك. فصمت مُطبق كان يُخيّم على الأطلال القديمة. تابع الجنرال والجنودُ تقدّمهم مستنفرين وأسلحتهم في أيديهم، تتبعهم عن قرب المرأتان. وهكذا جابوا القاعات الفسيحةَ قاعةً بعد قاعة إلى أن وصلوا إلى الأخيرة، أوقفهم عند مدخلها راهب عملاق مزوّد بعصوين متصلتين بسلسلة وشهر بحركة رقص معقّدة سلاحه، ثمّ لفّ السلسلة حول عنق الجنرال قبل أن تتمكّن المجموعة من القيام بردّ فعل. تجمّد الجنود مرتبكين بينما القائد يتخبّط بقدميه في الهواء بين ذراعي الراهب الهائلتين.

ـ المعلّم المحترم، تِنسينغ! ـ صاحت بِمّا سعيدة برؤيته.

ـ بِمّا؟ ـ سأل هو.

ـ هذه أنا أيّها المُعلّم المحترم! ـ قالت وأضافت مشيرة إلى العسكريّ المُهان ـ: ربّما كان من الحكمة أن تفلت الجنرال المحترم ميار كونغلونغ...

وضعه تِنسينغ على الأرض برفق، نزع السلسلة عن عنقه وانحنى أمامه باحترام جامعاً يديه على مستوى جبينه.

ـ *تامبّو كاتشي*، أيّها الجنرال المحترم ـ حيّاه.

ـ *تامبّو كاتشي*. أين الملك؟ ـ ردّ الجنرال محاولاً أن يُغطّي على انزعاجه ومسوّياً سترته العسكرية.

أفسح لهم تِنسينغ الطريق ودخلت المجموعة إلى الغرفة الفسيحة. نصف سقفها انهار منذ سنوات والباقي قائم بصعوبة، وكان هناك فجوة كبيرة في أحد الجدران الخارجية يدخل منها نور النهار الباهت. سحابة متوقّفة في قمّة الجبل خلقت جوّاً ضبابياً بدا فيه الجميع وقد امّحت ملامحهم مثلَ صورٍ في حلم. سجادة من نسالة معلّقة بين الخرائب وتمثال أنيق لبوذا، مائل، سَلِمَ بأعجوبة، ملقى على الأرض كما لو أنّه فوجئ في عزّ راحته.

كان جثمان الملك يجثو على طاولةٍ مرتجلة محاطاً بستّ شموع من الزبدة المشتعلة. نفحات من هواء بارد مثل البلور تمايل لهب الشموع في الضباب الذهبي. والطيار النيبالي البطل الذي يسهر بجانب الجثمان لم يتحرّك أمام اقتحام العسكر.

بدا لكاتْ كولْدْ أنّها تحضر تصوير فيلم. فالمشهد غير واقعي: القاعة الخربة ملفوفة بضباب قطني، بقايا تماثيل مئوية وأعمدة محطّمة على الأرض، وبقع ثلج وصقيع في تعرّجات الأرض. كانت الشخصيات مسرحية مثل المشهد: الراهب العملاق بجسد محارب منغولي ووجه قدّيسٍ، يتمايل على كتفه القرد الصغير بوروبا؛ والجنرال الحازم ميار كونغلونغ، وعدد من الجنود والطيار جميعهم في لباس موحّد، وكأنّهم سقطوا هناك خطأً؛ وأخيراً الملك الذي يفرض حتى في موته حضورَه الرزين والجليل.

ـ أين ألِكساندِر وناديا؟ ـ سألت الجدَّةُ وقد هزمها التعب.

19

الأمير

كان أَلِكساندِر يسير في المقدّمة متبعاً تعليمات الفيديو والـ(GPS) لأنّ الأمير لم يكن يعرف كيف يعملان ولم تكن تلك اللحظة المواتية لإعطائه درساً. لم يكن أَلِكساندِر خبيراً بتلك الأجهزة ثمّ إنّ ذلك الجهاز كان حديثاً جدّاً لا يستخدمه غير الجيش الأمريكي، لكنّه كان معتاداً على استخدام التكنولوجيا ولم يجد صعوبة في اكتشاف طريقة استعماله.

كان ديل باهادور قد أمضى اثني عشر عاماً من حياته يُعدّ نفسه من أجل لحظة أن يجوب متاهةَ أبواب الطابق الأسفل من القصر، وعبور الباب الأخير. وتخطّي العوائق المزروعة في الحظار المقدّس واحداً فواحداً. تعلّم التعليمات واثقاً من أنّه إذا خانته ذاكرته سيجد إلى جانبه والده الذي يستطيع أن يفعل ذلك وحده. والآن عليه أن يواجه التجربة من خلال نصائح معلِّمه تِنسينغ ووجود صديقيه الجديدين، ناديا وأَلِكساندِر، مساعديه الوحيدين. في البداية راح ينظر بعدم ثقة إلى الشاشة الصغيرة التي يحملها أَلِكساندر في يده، إلى أن انتبه إلى أنّها تقودهم مباشرة إلى الباب المناسب. ما من مرّة اضطرّوا لأن يتراجعوا، كما لم يُخطئوا في فتحِ باب، وهكذا وجدوا أنفسهم أمام قاعة المصابيح الذهبية. لم يكُن هناك هذه المرّة من يحرس الباب الأخير. فالجنديّ الجريح وجثّة زميله الذي

قتله الرجال الزرق سُحبا دون أن يحلّ محلّهما أحد وغسل الدم عن الأرض دون أن يُترك له أثر.

- واو! - صاحت ناديا وألِكساندِر بصوتٍ واحد حين رأيا الباب الرائع.

- علينا أن نُدير حجارة اليشم الدقيقة، إذا أخطانا فإن النظام سوف يتعطّل ولن نستطيع الدخول - نبّههما الأمير.

- كلّ المسألة في أن نمعن جيّداً فيما فعله الملكُ. إنّه مسجّل في الفيديو - وضّح ألِكساندِر.

شاهدوا الفيلم مرّتين إلى أن تأكّدوا من الأمر تماماً، فحرّك ديل باهادور أربعة يشبات منقوشة على شكل زهرة لوتس. لم يحدث شيء. انتظر الشبّان الثلاثة دون تنفّس، عادّين الثواني. وفجأة بدأ مصراعا الباب يتحرّكان ببطء.

وجدوا أنفسهم في القاعة الدائرية بأبوابها التسعة المتطابقة ووقف ألِكساندر كما يمكن أن يكون قد فعل أرماديّو قبل أيّام فوق العين المرسومة على الأرض، فتح ذراعيه ودار بزاوية خمس وأربعين درجة، فأشارت يده إلى الباب الذي عليهم فتحه.

سمعوا جوقة نحيب مقشعرة وصفعتهم في أنوفهم رائحةُ قبر وتفسُّخٍ نتنة. لا شيء كان يُرى، لا شيء غير ظلمة مطبقة.

- أنا سأذهب أوّلاً، لأنّني أفترض أنّ حيواني الطوطميّ، الجغوار يستطيع أن يرى في الظلام - قدّم ألِكساندِر نفسه عابراً العتبة يتبعه صديقاه.

- هل ترى شيئاً؟ - سألت ناديا.

- لا شيء - اعترف ألِكساندر.

- في وضع كهذا من المناسب امتلاكُ حيوانٍ طوطميّ أكثر تواضعاً من الجغوار. الصرصور مثلاً - ضحكت ناديا بعصبية.

ـ ربما ليست فكرة سيِّئة تماماً أن نستخدم مصباحك الكهربائيّ... ـ اقترح الأمير.

شعر ألِكساندر بنفسه غبيّاً: فقد نسي تماماً أنَّه يحمل معه مصباحاً وسكين جيب في جيوب بَرْكته. حين أشعل المصباح وجدوا أنفسهم في ممرّ، قطعوه متردّدين إلى أن وصلوا إلى الباب الموجود في النهاية. فتحوه بكثير من الحذر. كان النتنُ هناك لا يُحتمل على إطلاقاً، لكن هناك نوراً باهتاً يسمح لهم بالرؤية. كانوا محاطين بهياكل عظمية بشرية معلّقة إلى السقف يهزهزها الهواء، فتحدث خشخشة عظام مروِّعة، بينما تفور عند أقدامهم نضيدة من الأفاعي. أطلق ألِكس صيحةً وحاول أن يتراجع، لكنَّ ديل باهادور أمسكه من ذراعه.

ـ إنّها عظام قديمة جدّاً، وضعت هنا كي تُثبط همّة الدخلاء ـ قال.

ـ والأفاعي؟

ـ مرّ رجال العقرب من هنا، يا جغوار، وهذا يعني أنَّ باستطاعتنا أن نمرّ نحن أيضاً ـ شجَّعته ناديا.

ـ قالت بِمّا إنّ هؤلاء محصّنون ضدَّ سمّ الحشرات والزواحف ـ ذكَّرها ألِكساندِر.

ـ ربّما هذه الأفاعي ليست سامّة. فشكل رؤوس الأفاعي الخطيرة، حسب ما علّمني معلّمي المحترم تِنسينغ، مُثلَّثة أكثر. لنتابع ـ أمر الأميرُ.

ـ لا تظهر هذه الأفاعي في الفيديو ـ لاحظت ناديا.

ـ كان الملكُ يحمل الكاميرا في القلادة، وبذلك صوّر ما كان أمامه وليس ما كان عند قدميه ـ وضّح ألِكساندِر.

ـ يعني هذا أنّ علينا أن نكون حذرين جدّاً ممّا يوجد تحت صدر الملك وفوقه ـ خلصت هي.

أبعد الأميرُ وصديقاه الهياكل العظمية بأيديهما وتقدّموا يدوسون على الأفاعي حتى الباب التالي الذي يؤدّي إلى غرفة شبه مظلمة وفارغة.

ـ انتظر ـ أوقفه ألِكساندر ـ هنا حرّك أبوك شيئاً موجوداً في العتبة.

ـ أتذكّره، إنّها أناناسة محفورة في الخشب ـ قال ديل باهادور متلمّساً الجدار.

عثر على الرافعة التي كان يبحث عنها ودفعها. فغارت الأناناسة وسمعوا على الفور صوتاً مرعباً ورأوا غابة من السهام تسقط من السقف وتنغرز في الأرض.

ـ الآن نحن في أمسّ الحاجة إلى بوروبا. فهو يستطيع أن يختبر الطريق. أخيراً أنا سأمّر أوّلاً لأنّني أكثركم نحولاً وخفّة ـ قرّرت ناديا.

ـ يخطر لي أنّ هذا الفخّ يمكن ألّا يكون بسيطاً كما يبدو ـ نبّههم ديل باهادور.

مرّت ناديا منسابة مثل نسر بين الحواجز المعدنية الأولى. كانت قد قطعت قرابة مترين حين لامست بمرفقها أحدها فانفتحت فجأة فجوةٌ تحت قدميها. تمسّكت غريزياً بأقرب رمحين إليها وبقيت معلّقةً عملياً في الفراغ. راحت يداها تنزلقان على المعدن بينما هي تبحث بقدميها عن نقطة تستند إليها. عندها أدركها ألِكساندِر دون أن يهتمّ أين يضع قدمه بسبب السرعة لمساعدتها. أخذها من خصرها بذراعٍ وشدّها ضامّاً إيّاها إلى جسده. بدا وكأنّ القاعة بكاملها تهتزّ، كما لو أنَّ هناك زلزالاً وسقطت عدّة رماح أخرى من السقف، لكن ما من واحد منها نزل قريباً منهما. بقي الصديقان عدّة دقائق جامدين، متعانقين، ينتظران. بعدها بدآ ينفصلان ببطءٍ.

ـ لا تلمس شيئاً ـ همست ناديا، خائفة حتى من أن يتسبَّب الهواء الذي تزفره بكارثة.

وصلا إلى الطرف الآخر وأشارا إلى ديل باهادور بأن يمرّ، رغم أنّه كان قد بدأ يشقّ طريقه لأنّه لم يكن يخاف الرماح: كان محميّاً بتميمته.

ـ كان من الممكن أن نموت مطعونين مثل حشرات ـ علّق ألِكساندِر وهو ينظّف نظارته المغبّشة.

ـ لكنّ هذا لم يحدث، أليس صحيحاً؟ ـ ذكّرته ناديا رغم أنّها كانت خائفة خوف صديقها.

ـ إذا تنفَّستما بعمقٍ ثلاث مرّات وتركتما الهواء يصل إلى بطنيكما وزفرتماه ببطء من المحتمل أن تهدآ... ـ نصحهما الأمير.

ـ لا وقت لممارسة اليوغا. لنتابع ـ قاطعه ألِكساندِر.

أشار جهازُ الـ(GPS) إلى الباب الذي عليهم أن يفتحوه، وما كادوا يفعلون ذلك حتى ارتفعت الرماح في آن معاً وعادت الغرفة لتظهر فارغة من جديد. بعدها وجدوا غرفتين في كلّ منهما عدّة أبواب، لكن دون أفخاخ. استرخوا قليلاً وبدؤوا يتنفّسون بشكلٍ طبيعي لكنّهم لم يغفلوا أنفسهم.

فجأة وجدوا أنفسهم في مكان مظلم تماماً.

ـ لا شيء يظهر في الفيديو. الشاشة سوداء ـ قال ألِكساندِر.

ـ ترى ماذا يوجد هنا؟ ـ سألت ناديا.

أخذ الأمير المصباحَ الكهربائي وأضاء الأرضية فرأوا شجرة وارفة ومليئة بالثمار والعصافير، صوّرت بمهارة جعلتها تبدو كأنّها زرعت في أرض يابسة، وتنتصب وسط الغرفة. كانت من الجمال والمظهر المُسالم بحيث أنّها تغري بالاقتراب منها ولمسها.

ـ لا تخطُوَا أيّة خطوة أخرى! إنّها شجرة الحياة. سمعتُ عدّة

قصص عن خطورة الدوس عليها ـ صاح ديل باهادور، ناسياً لمرّةٍ واحدة آدابه الحسنة.

أخذ الأمير قصعته الصغيرة التي يُحضِّر فيها طعامه ويحملها دائماً بين طيات غفّارته ورماها على الأرض. كانت شجرة الحياة مرسومة على حرير رقيق منشورٍ فوق بئر عميق. خطوة واحدة إلى الأمام ستودي بهم إلى الفراغ. لم يكونوا يعلمون أنّ أحد أتباع تِكس أرماديّو مات في ذلك المشوار ذاته. كان اللص ممدداً في قاع بئر وانتهت في تلك اللحظة ذاتها الجرذان من تجريد عظامه.

ـ كيف يمكننا أن نمرّ ـ سألت ناديا.

ـ ربّما كان من الأفضل لكما أن تنتظرا هنا ـ أشار الأميرُ.

بحث ديل باهادور بحذرٍ شديدٍ بقدمه حتى عثر على كفافٍ رقيق على امتداد الجدار. لم يكن يظهر لأنّه مرسوم بالأسود ويختلط بلون الأرض. راح يتقدَّمُ ملتصقاً بظهره إلى الجدار. يُحرِّك ساقه اليمنى عدّة سنتيمترات يبحث عن التوازن ثم يُحرّك اليسرى. هكذا وصل إلى الجانب الآخر.

أدرك ألِكساندر أنّ هذا الاختبار سيكون الأصعب بالنسبة إلى ناديا نظراً لخوفها من المرتفعات.

ـ الآن عليكِ أن تلجئي إلى روح النسر. أعطني يدك، أغمضي عينيكِ، وركّزي كلّ انتباهك في قدميك. ـ قال لها.

ـ لماذا لا أنتظر هنا؟هذا أفضل ـ اقترحت هي.

ـ لا. سنمرّ معاً ـ دعاها صديقها.

لم يكونا يتوقّعان أن تكون الفجوة بذلك العمق، كما لم يفكّروا بالتحقّق من ذلك. لقد انزلق لصّ تِكس أرماديّو الذي سقط إلى البئر دون أن يتمكّن أحد أن يمنع ذلك. بدا للحظة أنّه يطفو في الهواء، يسنده رأس شجرة الحياة، مفتوح الساقين والذراعين ملفوفاً بملابسه السوداء مثل خفّاش كبير. دام الوهمُ طرفةَ عين. سقط

الرجل في فتحة البئر السوداء مطلقاً صيحة ذعر مطلق. سمع رفاقُه ارتطام الجسد بالقاع؛ ساد بعدها صمتٌ مريع. من حسن الحظّ أنّ ناديا لم تكن تعرف شيئاً من هذا. أمسكت بيد ألِكساندِر وتبعته خطوة فخطوة حتى الطرف الآخر.

حين فتح الأصدقاءُ الثلاثة باباً آخر وجدوا أنفسهم محاطين بالمرايا. لم تكن على الجدران وحسب بل في السقف وعلى الأرض، مضاعفة أخيلتهم إلى اللانهاية. كما أنّ الغرفةَ كانت منحنية مثل مكعّبٍ مرتكزٍ إلى إحدى زواياه. لم يكن باستطاعتهم أن يتقدّموا على أقدامهم بل حبواً، مستنداً الواحدُ منهم إلى الأخر، تائهين تماماً. لم تكن الأبوابُ تُرى، لأنّها مرايا أيضاً. أخذهم الغثيان ثواني قليلة، وشعروا برؤوسهم تنفجر وبعقولهم تُفقد.

ـ لا تنظرا إلى الجوانب. ثبّتا نظركما في الذي أمامكما. اتبعاني صفّاً دون أن تنفصلا. الاتجاه ظاهر على شاشتي ـ أمر ألِكساندِر.

ـ لا أدري كيف سنجد المخرج ـ قالت ناديا مشوّشةً تماماً.

ـ إذا أخطأنا بفتحِ الباب، بالتأكيد سيُفَعّل أحدُ أجهزةِ الأمان وسنبقى محاصرين هنا إلى الأبد ـ نبّهّهما الأميرُ بهدوئه المُعتاد.

ـ لهذا نحن مُجهّزون بأحدث التكنولوجيات ـ طمأنه ألِكساندِر رغم أنّه هو نفسه لم يكد يتحكّم بأعصابه.

كانت الأبوابُ كلّها متطابقة، لكنّ ألِكساندر انتبه إلى الاتجاه الذي عليهم أن يسلكوه بوساطة جهاز الـ(GPS). كان الملكُ قد توقّف في عدّةِ أماكن قبل أن يفتح الباب الصحيح. أعاد صور الفيديو ليلاحظَ التفاصيل ولاحظ أنّ المرآةَ تعكسُ صورةً مشوّهة للملك.

ـ إحدى المرايا مقعّرة. هذه هي الباب ـ خلُص.

حين رأى ديل باهادور نفسه بديناً وقصيرَ الساقين في المرآة

دفعها فانصاعت واستطاعوا الخروج. وجدوا أنفسهم في ممرّ ضيِّق وطويل يلتف حول نفسه مثل لولب. كان يختلف عن بقية حِظارات القصر بأنّه ليس فيه أبواب مرئيّة، لكنّهم لم يشكّوا بأنّهم سيعثرون على واحدٍ منها في النهاية، إذ هكذا كان يشير الفيديو. لم يكن هناك مكان يضيعون فيه، فالمسألة كانت ببساطة مسألة تقدّم. كان الهواء مخلخلاً ويطفو فيه غبارٌ ناعم يبدو ذهبياً تحت ضوء الثريات الصغيرة المتدلية من السقف. رأوا الملك يمرُّ في الفيديو سريعاً ودون تردّدٍ، هذا لا يعني أنّه كان واثقاً إذ يمكن أن توجد مخاطر لا يُسجّلها الفيديو.

دخلوا الممرّ، وهم يراقبون ما يحيط بهم، لا يعلمون من أين يأتيهم التهديد، إلاّ أنهم واعون إلى أنّهم لا يمكن أن يُغفلوا أنفسهم ثانيةً واحدة. كانوا قد خطوا عدّة خطواتٍ حين انتبهوا إلى أنّهم يدوسون شيئاً ليّناً. انتابهم إحساس بأنّهم يدوسون خيشاً مشدوداً ينصاع لثقل أجسادهم.

غطى ديل باهادور فمه وأنفَه بغفّارته، وأشار إشارة يائسة إلى صديقيه ليتبعاه دون توقُّفٍ. فقد انتبهوا إلى أنّهم يتقدّمون في الحقيقة فوق نظامٍ من النوابض. مع كلّ خطوة يخرج من بعض الثقوب في الأرضِ الغبارُ الذي لاحظوه عند دخولهم. وخلال ثوانٍ قليلة صار الهواء مشبعاً بحيث لم تعد الرؤية ممكنةً على مسافة ثلاثين سنتيمتراً. صارت الرغبة بالسعال لا تُحتمَل، لكنّهم تحكّموا بأنفسهم قدر ما استطاعوا، لأنّهم يستنشقون الغبار ملء أفواههم. الحل الوحيد كان الوصول إلى المخرج بأسرع ما أمكن. راحوا يركضون محاولين ألاّ يتنفّسوا، وهو ما كان محالاً نظراً لطول الممر. خافوا أن يكون سمّاً قاتلاً، لكنّهم فكَّروا أنّه إذا كان الملكُ قد عبر ذلك الممر مرّاتٍ كثيرةً فلا يمكن أن يكون كذلك.

كانت ناديا سبّاحة جيّدة، لأنّها ترعرعت في الأمازون، حيث تجري الحياة فوق الماء، ويمكنها أن تبقى غاطسة أكثر من دقيقة.

هذا ما سمح لها بأن تمسك نفسها أفضل من صديقيها، ومع ذلك اضطرَّت لأن تستنشق الهواء مرّتين. قدَّرت أنَّ جهازي تنفّس ألِكساندِر وديل باهادور يحتويان من ذلك الغبار الغريب أكثر منها. وبأربع قفزات وصلت إلى نهاية الممر فتحت الباب الوحيد الموجود وقذفت بالآخَرَين باتجاه العتبة.

اندفع الأصدقاء الثلاثة خارج الممر إلى الغرفة التالية دون أن يُفكِّروا بالمخاطر التي يمكن أن تحتوي عليها مختنقين، يتنفّسون ملء رئاتهم محاولين أن ينفضوا الغبار العالق بثيابهم. لم يكن يظهر في الفيديو أيّ شيء مهدِّد، فالملك قطع تلك الغرف بالطمأنينة ذاتها التي قطع بها الممر. ناديا، التي كانت في حالةٍ أفضل من الفتيين، أشارت إليهما ألاّ يتحرّكا ريثما تتفحّص هي المكان.

كانت الغرفة حسنة الإضاءة والهواء يبدو طبيعياً، وهناك عدّة أبواب، لكنّ الفيديو يشير بوضوح إلى الباب الذي عليهم أن يستخدموه. تقدّمت عدّة خطوات وانتبهت إلى أنّها تجد مشقّة بتثبيت نظرها: ملايين النقاط والخطوط والأشكال الهندسية تتراقص بألوان برّاقة أمام عينيها. مطّت ذراعها محاولة الحفاظ على توازنها. رجعت إلى الخلف وتأكّدت من أنّ ألِكساندر وديل باهادور يترنّحان أيضاً.

ـ أشعر بأنّني في حالة سيّئة جدّاً ـ تمتم ألِكساندِر، تاركاً نفسه يسقط جالساً على الأرض.

ـ افتح عينيك، يا جغوار! ـ هزَّته ناديا ـ فتأثير هذا الغبار يشبه الجرعة التي أعطاها لنا الهنود الحمر في الأمازون. ألا تذكر أنّنا رأينا أشباحاً؟

ـ مُهلوِس؟ هل تعتقدين أنّنا مخدَّرون؟

ـ ما هو المهلوِس؟ ـ سأل الأميرُ الذي بقي واقفاً فقط بفضل التحكّم الذي كان يمارسه دائماً على جسده.

ـ نعم، هذا ما أعتقده. بالتأكيد سيرى كلٌّ منا أشياء مختلفة. ليست حقيقية ـ وضّحت ناديا، ساندة صديقيها كي تساعدهما على المتابعة دون أن تتصوّر أنّها هي نفسها ستقع في جحيم ذلك المخدِّر.

على الرغم من تنبيه ناديا ما من أحدٍ من الثلاثة انتابه شكّ بالقدرة الرهيبة لذلك الغبار الذهبيّ. العَرَض الأوّل كان أنّهم راحوا يغوصون في متاهة انشراحٍ نفسيّ من الألوان والصور القوس قزحية التي تتحرَّك بسرعة مدوّخة. استطاعوا بجهد خارق أن يبقوا على عيونهم مفتوحة ويتقدّموا متعثّرين، متسائلين ماذا كان يفعل الملكُ كي يتحمَّل المخدِّر. كانوا يشعرون بأنّهم ينفصلون عن العالم والواقع كأنّهم سيموتون، ولم يستطيعوا كبحَ أنّات الضيق. وصلوا في هذه الأثناء إلى القاعة التالية التي كانت بالنتيجة أوسع من سابقاتها. عندما رأوا ما كان موجوداً هناك أفلتت منهم صيحة رعب، رغم أنّ جزءاً من دماغهم كان يُردِّد أنّ تلك الصور ليست إلا ثمرة الخيال.

وجدوا أنفسهم في الجحيم، محاطين بالمسوخ والشياطين التي راحت تُهدِّدهم مثل قطيع من الضواري. رأوا أجساداً ممزّقة، تعذيباً، والدم والموت في كلّ مكان. جوقة مريعة من الأصوات تصمّ آذانهم: أصوات كهوف تناديهم بأسمائهم مثل أشباح جائعة.

رأى أَلِكساندِر أمَّه بوضوحٍ بين مخالب طائر جبّار أسود ومتوعّد. مدّ يديه في محاولة لإنقاذها فالتهم طائرُ الموتِ في هذه اللحظة رأسَ ليزا كولْدْ فأفلتت صرخة من أعمق أعماق صدره.

كانت ناديا واقفة على قدميها في توازن دقيق فوق دعامة ضيقة في آخر طابق من واحدة من ناطحات سحاب زارتها سابقاً مع كاتْ في نيويورك. وتحت قدميها بمئات الأمتار ترى كلّ شيء مغطى

بحمم ملتهبة. دوار الموت هيمن على عقلها، لاغياً قدرتها على التفكير، بينما الدعامة تنحني أكثر فأكثر. سمعت نداء الهاوية إغواءً مشؤوماً.

شعر ديل باهادور، من ناحيته، أنّ روحه تنفصل وراح يعبر قبّة السماء مثل شعاع ويصل إلى الدير المُحصّن تماماً في اللحظة الدقيقة لموت أبيه بين ذراعي تِنسينغ. وعلى الفور رأى جيشاً من الكائنات الدموية تهاجم مملكة التنين الذهبي العزلاء. الوحيد الذي كان بينهما عارياً معطوباً هو نفسه.

كانت الرؤى مختلفة من واحد إلى آخر وجميعها مريعة؛ تمثّلُ أكثرَ ما كانوا يخافونه، أسوأ ذكرياتهم، كوابيسهم ونقاط ضعفهم. تلك كانت رحلة شخصية إلى حجرات ضمائرهم الممنوعة ذاتها. ومع ذلك فقد كانت بالنسبة إليهم رحلة أقل وعورة من رحلة تِكس أرماديّو ومحاربي العقرب، لأنّ الشبّان الثلاثة كانوا أرواحاً طيّبة ولم يكونوا محملين بثقل الجرائم البغيضة للأفراد الآخرين.

أوّل من قام بردّ فعل هو الأمير الذي مارس لسنواتٍ طويلة التحكّمَ بعقله وجسده. تخلّص بحركة وحشية من الصور المريعة التي هاجمته وخطا خطوات عدّة في الغرفة.

ـ كلّ ما رأيناه وهمٌ ـ قال وقاد صديقيه بالقوّة، آخذاً إيّاهما من يديهما باتجاه المخرج.

لم يكن ألِكساندر يستطيع أن يركِّز نظره جيّداً كي يستطيع متابعة تعليمات الشاشة، إلاّ أنّ الوعي أدركه فانتبه إلى أنّه لا يظهر شيء في الفيديو غير غرفة فارغة، وهذا برهان على أنّ ديل باهادور كان على حقّ وأنّ تلك المشاهد الشيطانية ليست سوى نتاج خيالهم. جلسوا هناك يستندُ بعضهم إلى بعض، ارتاحوا برهة حتى هدؤوا وتمكّنوا من التحكم برؤى المهلوِس المريعة التي لم تختفِ. استطاع الشبان الثلاثة، مشجعاً بعضهم بعضاً، أن ينهضوا على

أقدامهم. كان الملكُ قد توجّه إلى الباب الدقيق، دون أن يُعاني ظاهرياً من شيء مما كانوا يعانون منه الآن. فكّرَ أنّه لا شكّ تعلّم ألاّ يستنشق الغبار أو أنَّه كان يملك ترياقاً ضدَّ المخدِّر. في جميع الأحوال كان الملك يظهر في الفيديو في منجاة من كلّ العذاب النفسي الذي عانوا هم منه.

في الغرفة الأخيرة من المتاهة، التي تحمي التنين الذهبي، وهي أوسعها جميعاً، اختفت الشياطين ومشاهدُ الرعب فجأة وحلّ محلّها مشهد ساحر. الانزعاج الناتج عن المخدِّر أفسح الطريق إلى انتعاش غير مفهوم. كانوا يشعرون بأنفسهم خفافاً، جبّارين لا يُقهَرون. رأوا تحت ضوء مئات مصابيح الزيت حديقةً يلفّها ضبابٌ ورديٌّ خفيف ينبثق من الأرض ويتصّاعد إلى قمم الأشجار وتصل إلى مسامعهم جوقة أصوات ملائكية، لاحظوا وجودَ أريجِ أزهارٍ برّية وثمارٍ استوائية دائم. كان السقفُ قد اختفى ورأوا مكانه سماءً ساعةَ غروبِ الشمس، تعبرها عصافير حيّة الألوان. فتراجعت عيونهم غير مصدّقة.

ـ هذا أيضاً غير واقعي. بالتأكيد ما زلنا مخدَّرين ـ همست ناديا. ـ هل جميعنا نرى الشيءَ ذاته؟ أنا أرى حديقة كبيرة. أضاف ألِكساندِر.

ـ وأنا أيضاً ـ قالت ناديا.

ـ وأنا. إذا كنّا نرى نحنُ الثلاثة الشيءَ ذاته، فهذا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق برؤى. هذا فخّ، وربّما أخطرها جميعاً. أقترح ألاّ نلمسَ شيئاً وأن نعبر بسرعة... ـ نبَّه ديل باهادور.

ـ هل يعني هذا أنّنا لا نحلم؟ هذا يُشبه جنّة عدن ـ علّق ألِكساندِر وهو ما يزال سكراناً قليلاً بغبار القاعات السابقة الذهبيّ.

ـ ما هذه الجنّة ـ سأل ديل باهادور.

ـ تظهر جنّة عدن في الكتاب المقدّس. هناك وضعَ الخالقُ أوّلَ زوجين بشريين. أعتقد أنّ كلّ الأديان فيها جنّة مماثلة. الفردوس مكان أبديّ الجمال والسعادة ـ وضّح صديقُه.

فكّر ألِكساندِر أنّ ما يرونه يمكن أن يكون صوراً افتراضيّة أو عرضاً سينمائيّاً، لكنّه سرعان ما أدرك استحالةَ أن تكون تكنولوجيا بهذه الحداثة. فالقصر بُني منذ قرون كثيرة.

ظهرت بين الضباب، حيث تطير فراشات رقيقة، ثلاثُ هيئات بشرية، فتاتان وشابّ يشعّون حسناً؛ بشعر كأنّه خيوط حرير ترفعه النسمة، يرتدون حريراً هفهافاً مطرّزاً، وأجنحة من ريش ذهبيّ. يتحرّكون بملاحة رائعة، وينادونهم بالإشارة مادّين إليهم أذرعَهم. كان إغواء الاقتراب من تلك الكائنات النورانية والاستسلام لمتعة الطيران معهم محمولين على تلك الأجنحة الجبّارة شيئاً لا يُقاوم. تقدّم ألِكساندِر خطوةً إلى الأمام، مسحوراً بإحدى الفتاتين وابتسمت ناديا بدورها للشاب المجهول. لكنّ ديل باهادور امتلك من الحضور ما يكفي كي يمسك صديقيه من ذراعيهما.

ـ لا تلمساهم، إنّهم نحس. هذه هي حديقة الإغراءات ـ حذّرهما.

لكنّ ناديا وألِكساندر وقد ضاع عقلاهما كانا ينتفضان محاولين الإفلاتَ من يديّ الأمير.

ـ ليسوا حقيقيّين، إنّهم رسوم على الجدران أو تماثيل. تجاهلاهم ـ كان يردّد هذا.

ـ إنّهم يتحرّكون وينادوننا... ـ تمتم ألِكساندِر مخبولاً.

ـ إنّها خدعة، وهمٌ بصريّ. انظرا هناك! ـ صاح ديل باهادور مجبراً إيّاهما على الالتفات نحو زاوية من الحديقة.

كانت جثّة أحد الرجال الزرق ممدّدة على الأرض فوق طبقة من

الأزهار المرسومة. قاد ديل باهادور صديقيه نحوه. انحنى فوقه وقلبه، وعندها رأوا الطريقة الرهيبة التي مات بها.

كان الرجالُ الزرق قد دخلوا إلى هذه الحديقة الخيالية، كما في حلم، مخدَّرين بالغبار الذهبيّ، الذي جعلهم يُصدِّقون كلَّ ما راحوا يرونه. كانوا رجالاً أفظاظاً، يقضون حياتهم على صهوات جيادهم، ينامون على الأرض القاسية، معتادين على الخشونة والمعاناة والفقر. لم يروا قط شيئاً رقيقاً وجميلاً، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أيّة موسيقى أو أزهار أو أريج أو فراشات، كتلك الموجودة في تلك الحديقة. كانوا يعبدون الأفاعي والعقارب وآلهة الضريح الهنديّ الدموية. يخافون الشياطين والجحيم، لكنّهم لم يسمعوا عن جنّة أو كائنات ملائكية، كتلك الموجودة في الفخّ الأخير من الحظار المقدّس. أقرب شيء للحميمية أو الحبّ الذي كانوا يعرفونه هي الصحبة الفظّة القائمة بينهم. اضطرّ تِكس أرماديّو لأن يُهدِّدهم بمسدَّسه حتى منعهم من التوقّف في تلك الحديقة المسحورة. لكن كان هناك واحد لم يستطع منعه من الاستسلام للإغواء.

مدّ الرجلُ يده ولمس الذراع الممدودة لإحدى الفتاتين الجميلتين المجنَّحتين فوجد برودة المرمر، لكنّ النسيج لم يكن أملس كالمرمر، بل خشناً، مثل مبرد أو زجاج مسحوق. سحبَ يده مندهشاً فوجدها مخدوشة، وعلى الفور راح جلده يتشقّق ويتفتح بينما اللحم يذوب كما لو أنه حُرق حتى العظم. هرع البقية على صياحه، لكن لم يكن هناك ما يستطيعون فعله، فقد نفذ السمّ القاتلُ إلى تيار الدم وتقدّم سريعاً عبر الذراع مثل أسيد قاشِط. مات المنحوس في أقل من دقيقة.

كان ألكساندر وناديا وديل باهادور أمام الجثّة التي جفّت خلال تلك الأيّام مثل مومياء بفعل السمّ. ضمر الجسد فصار هيكلاً بجلدٍ مسودٍّ ملتصقاً بالعظام تفوح منه رائحة فطر وأشنيات نفّاذة.

ـ كما قلتُ، ربّما من الأفضل ألا نلمس شيئاً... ـ كرَّر الأمير، لكنّ التحذير لم يعد ضرورياً لأنّ ناديا وألِكساندر أفاقا من غيبوبتهما أمام ذلك المشهد.

أخيراً وجد الشبّان الثلاثة أنفسهم في قاعة التنين الذهبيّ. وعلى الرغم من أنّ ديل باهادور لم يرها من قبل قط فقد عرفها من الأوصاف التي قدّمها له الرهبانُ في الأديرة الأربعة، حيث تعلّم الشيفرة. كانت الجدران مغطاة هناك بألواح من الذهب نُقِشت عليها بالحفر الغائر حياةُ سد هارتا غوتاما، والشمعدانات الذهبية بشموعِ شمع النحل وقناديل الزيت الناعمة بمرايا ذهبية مخرّمة ومباخر ذهبية يُحرق فيها المرُّ والبخورُ. ذهب، ذهب في كلّ مكان. ذلك الذهب الذي أثار جشع تِكس أرماديّو والرجالِ الزرق مرَّ به ديل باهادور وألِكساندر وناديا غير مبالين إطلاقاً. فهذا المعدن الأصفر كان بالنسبة إليهم أقرب إلى القبح.

ـ ربّما ليس كثيراً أن نطلب منك أن تقول لنا ماذا نفعل هنا ـ طلب ألِكساندر من الأمير، دون أن يستطيع تفادي السخرية في نبرته.

ـ ربّما أنا نفسي لا أعرف ـ ردّ ديل باهادور.

ـ لماذا طلب منك أبوك أن تأتي إلى هنا؟ ـ أرادت ناديا أن تعرف.

ـ ربّما لاستشارة التنين الذهبي.

ـ لكنّهم سرقوه! فهنا لا يوجد غير هذه القاعدة السوداء وعليها هذه القطعة من الكوارتز، التي يجب أن تكون القاعدة التي كان عليها التمثال قبل ذلك ـ قال ألِكساندر.

ـ هذا هو التنين الذهبي ـ أخبرهما الأميرُ.

ـ أيّها؟

ـ القاعدة الحجرية. لقد أخذوا تمثالاً جميلاً جدّاً لكنّ الصوتَ يخرج في الحقيقة من الحجر. هذا هو سرُّ الملوك الذي لا يعرفه حتى رهبانُ الأديرة. هذا هو السرّ الذي سلّمني إيّاه أبي ولا تستطيعان أنتما أن تكرِّراه أبداً.

ـ كيف يعمل؟

ـ أولاً عليّ أن أرتّل السؤالَ بلغةِ أهل الثلج، وعندها يبدأ الكوارتز بالذبذبة ويصدر صوتاً عليّ أن أفسّره.

ـ هل أنت تأخذني من شعري(*)؟ ـ سأل ألِكساندر.

لم يفهم ديل باهادور ماذا أراد أن يقول. فهو لم يكن في نيّته أن يأخذ أحداً من شعره.

ـ لنر كيف يتمّ ذلك. ماذا تفكّر أن تسأله؟ ـ قالت ناديا، العمليّة دائماً.

ـ ربّما أهمّ ما في الأمر هو أن أعرف ما هي كارماي كي أُتِمّ قدري دون انحراف ـ قرّر ديل باهادور.

ـ هل وصلنا إلى هنا مُتَحَدّين الموت كي نستشيره حول كارماك؟ ـ سخر ألِكساندِر.

ـ هذا ما أستطيع أن أقوله لك أنا: أنت أمير طيّب وستصبح ملكً جيّداً ـ أضافت ناديا.

طلب ديل باهادور من صديقيه أن يجلسا في عمق القاعة، ثمّ اقترب من المنصّة التي كانت تستند إليها أرجل التمثال الرائع. أشعل المباخر والشموع، ثم جلس متربّعاً زمناً بدا للآخرَيْن طويلاً جدّاً. تأمّل الأمير بصمت كي يسكن حزنه ويُنظّف عقله من كلّ تفكير ورغبة وخوف ومن الفضول أيضاً. تفتّح في داخله مثلَ زهرة لوتس، تماماً كما علّمه مُعلّمه، كي يتلقى طاقةَ الكون.

(*) هل أنت تهزأ منّي؟ هذا هو معنى الجملة، التي كان لا بدّ من ترجمتها حرفيّاً، لأنّ النصّ يتطلّب ذلك. م.

جاءت العلامات الأولى كأنّها همس، لكن ترتيل الأمير سرعان ما تحوّل إلى زمجرة جبّارة تنبثق من الأرض ذاتها، صوت حلقيّ لم يسمعه الشابان الآخران قط.

كان من الصعب تصوّر أنّه صوت بشري. إذ بدا قادماً من طبل عظيم إلى وسط كهف هائل. كانت العلامات المبحوحة تدورُ، تصعدُ وتهبط، تكتسب إيقاعاً وحجماً وسرعة؛ ثم تهدأ لتعود وتبدأ من جديد. تنفجر كلُّ علامة مثل موج البحر على رقائق الجدران الذهبية وتعود مضاعفة؛ فتشعرُ ناديا وألِكساندر باهتزازها داخل بطنيهما كما لو أنّهما هما من يبثّانها. وسرعان ما انتبها إلى أنّه انضمَّ إلى ترتيل الأمير صوتٌ آخر مختلف جدّاً: كان هذا جوابَ قطعة الكوارتز الأصفر المعشّقة في الحجر الأسود. صمت ديل باهادور كي يسمع رسالةَ الحجر، التي كانت تستمرّ في الهواء مثل رجْع نواقيس برونزية كبيرة تُقرع معاً. كان تركيزه كاملاً، ما من عضلة واحدة تتحرّك في جسده، بينما عقله يحجز العلامات أربعاً بأربعٍ ويترجمها إلى أفكار تصويرية بلغة أهل الثلج الضائعة التي حفظها خلال اثني عشر عاماً عن ظهر قلب.

استمرّ ترتيل ديل باهادور أكثر من ساعة، لكنها لم تكد تبدو بالنسبة إلى ناديا وألِكساندِر إلا دقائق قليلة، فقد نقلتهما تلك الموسيقى الرائعة إلى حالة أسمى من الوعي. كانا يعرفان أنّ تلك القاعة لم يَزرها خلال ثمانية عشر قرناً إلا ملوك المملكة الممنوعة، وأنّه ما من أحدٍ قبلهم حضر هاتفاً. تابع الشابّان صوتَ الحجر المتموّج صامتين جاحظَي العيون من الدهشة، دون أن يفهما بالضبط ما يفعله ديل باهادور، لكنّهما كانا واثقين من أنّه عمل عجيب له معنى روحيّ عميق.

أخيراً ران الصمتُ في الحظار المقدَّس. قطعة الكوارتز، التي بدا أنّها تلمع خلال الترتيل بنور داخليّ، عادت معتمة، كما في

البداية. بقي الأمير، المنهك، في الوضعية ذاتها برهةً طويلة نسبيّاً، دون أن يتجرَّأ صديقاه على مقاطعته.

ـ لقد مات أبي ـ قال ديل باهادور أخيراً ناهضاً على قدميه.

ـ هل هذا ما قاله الحجر ـ سأل ألِكساندِر

ـ نعم. لقد انتظر أبي وصولي إلى هنا وتمكّن بعدها أن يغادِر ذاتَهُ إلى الموت.

ـ وكيف علم بوصولك؟

ـ أخبرَهُ مُعلّمي تِنسينغ بذلك ـ قال الأميرُ الشابّ بحزن.

ـ وماذا قال الحجر أيضاً؟ ـ سألت ناديا.

ـ كارماي هي أن أصبح ملكَ مملكة التنين الذهبي ما قبل الأخير. سأنجب ولداً وسيكون آخر ملك. بعدها سيتغيّر العالمُ وهذه المملكةُ ولن يعود أيّ شيءٍ كما كان من قبل. سألقى، كي أحكمَ بعدلٍ وحكمة، مساعدةَ أبي، الذي سيهديني في أحلامي. كذلك سألقى مساعدة بِمّا التي سأتزوَّج منها، ومساعدةَ تِنسينغ والتنين الذهبي.

ـ أي هذا الحجر لأنّ التمثال صار رماداً ـ أبدى ألِكساندِر رأيه.

ـ ربّما أسأتُ الفهم، لكن يبدو أنّنا سنستعيده ـ علَّق الأميرُ مشيراً بحركة منه إلى أنّ لحظة العودة قد حانت.

كان تيموثي بروس وجول غونثالِث، مصوِّرا *الإنترناشيونال جيوغرافيك*، قد نفَّذا أوامر كاتْ كولْدْ حرفيّاً. فقد أمضوا ذلك الوقت بالتجوال في أكثر أماكن المملكة مناعة. يدلّهم *شِربًا* قصير القامة، يحمل المتاع الثقيل والخيام دون أن يفقدَ ابتسامته الهادئة ولا إيقاع خطواته العاديّ. بالمقابل كان الأجنبيّان يخوران من الجهد المبذول للحاق به ومن المرتفعات التي كانت تخنقهما. وصلَ المصوِّران اللذان لم يعلما بالتقلّبات التي عانى منها زملاؤهما، متحمِّسَيْن جدّاً لرواية مغامراتهما مع السحالي الغريبة ودببة الباندا،

لكنّ كاثْ كولْدْ لم تُبدِ أيّ اهتمام. فقد أخبرتهما بخبر أنّ حفيدها وناديا قد ساهما في تدمير مُنظَّمة مجرمة، وإنقاذ عدّة طفلات مخطوفات، وأسر طائفة من اللصوص المريعين، وتنصيب الأمير ديل باهادور على العرش، كلّ ذلك بمساعدة عصابة من رجال أهلِ الثلج وراهبٍ غامِض يتمتّع بقدرات عقلية. أغلق تيموثي بروز وجول غونثالث فميهما ولم ينبسا ببنت شفة حتى صعدا إلى الطائرة للعودة إلى بلدهم.

ـ في جميع الأحوال لن أسافر مرّة أخرى مع ألِكساندر وناديا لأنّهما يجلبان المخاطر، كما يجلب العسلُ الذباب. لقد أصبحتُ عجوزاً جدّاً، ولا أتحمّل كلّ هذا الخوف ـ علّقت الكاتبة التي لم تكن قد استفاقت بعد من الروع الماضي.

تبادل ألِكساندِر وناديا نظرة تواطؤ لأنّهما قرّرا في جميع الأحوال أن يرافقاها في تحقيقاتها المقبلة. لم يكن باستطاعتهما أن يفوّتا فرصة أن يعيشا مغامرةً أخرى مع كاثْ كولْدْ.

لم يبح الصبيّان للجدّة بتفاصيل الحظار المقدّس، ولا بالطريقة التي يعمل بها حجر الكوارتز العجيب. اكتفيا بالقول بأن ديل باهادور، وككل ملوك المملكة الممنوعة كان يملك في ذلك المكان كلّ وسائل التنبّؤ بالمستقبل.

ـ في اليونان القديمة كان هناك معبد في دلفي يذهب إليه الناس للاستماع إلى نبوءات عرَّافة كانت تدخل في غيبوبة ـ حكت لهما كاث ـ وكانت كلماتها دائماً ملغزة لكنّ الزبائن يجدون لها معنى. والآن يُعرف أنّه يخرجُ من الأرض في ذلك المكان غازٌ، لا شكّ أنّه أثير. كانت العجوز تدوخ من الغاز وتتكلّم بالشيفرة، أمّا ما تبقى فيتصوّره الزبائن السذَّج.

ـ الحالة غير قابلة للمقارنة. ما رأيناه لا يُفَسّر بالغاز ـ ردَّ حفيدها.

أطلقت الكاتبةُ قهقهة جافّة.

- انقلبت الأدوار يا كاث: في السابق كنتُ أنا الشكّاك الذي لا يُصدّق شيئاً دون برهان وكنتِ أنتِ التي تردِّدين عليَّ أنَّ العالمَ مكانٌ غامِض ولا يوجد تفسير عقلانيّ لكلّ شيء - ابتسم ألِكساندِر.

لم تستطع المرأة أن تُجيب لأنّ ضحكتها تحوَّلت إلى نوبة سعالٍ وأوشكت على الاختناق. ضربها حفيدها عدّة ضربات على ظهرها بقوّة أكبر من الضرورية، بينما راحت ناديا تبحث عن ماء.

- من المؤسف أنّ تِنسينغ غادر إلى وادي أهل الثلج، وإلاّ لكان باستطاعته أن يشفيكِ من السعال بإبره السحرية وصلواته. أخشى أن يكون عليك أن تتركي التدخين يا جدّتي - قال ألِكساندِر.

- لا تُنادِني جدّة!

في المساء، عشيّة سفرهم إلى الولايات المتحدة، كان أعضاء فريق حملة *الإنترناشيونال جيوغرافيك* مجتمعين في قصر الألف غرفة مع الأسرة المالكة والجنرال ميار كونغلونغ بعد حضور جنازة الملك، الذي كان قد أُحرق كما تقتضي التقاليد، ووزِّع رمادُه في أربع أوانٍ من المرمر الشفاف، حملها أفضل الجنود على ظهر جوادٍ باتجاه جهات المملكة الأربع، حيث ذرّيت في الريح. لا شعبه ولا أسرته الذين كانوا يحبونه كثيراً بكوا موته، لأنّهم يعتقدون أنّ الموتَ يحتجز الروح في الدنيا لمواساة الأحياء. الصحيح هو إظهار الفرح كي تمضي الروح سعيدة لتقوم بدورة أخرى في عجلة التقمّص، وتتطوّر في كلّ حياة حتى تُدرِك الاستنارة والسماء، أو النيرفانا.

- ربّما شرّفنا أبي وتجسّد في ابننا الأوّل - قال ديل باهادور.

ارتعش فنجان الشاي في يدي بُما، كاشفة بذلك عن ارتباكها. كانت الفتاة ترتدي الحرير والبروكار وتنتعل جزمة جلدية وتتزين بالذهب في ذراعيها وأذنيها، لكنّها مكشوفة الرأس، فخورة لأنّها استخدمت شعرها الجميل في قضيّة بدت لها عادلة. وقد أفاد مَثَلُها

في ألاّ تُصاب الفتيات الأربع الأخريات بالتعقيد. جديلة الخمسين متراً الطويلة التي صنعنها من شعرهنَّ وُضِعت كتقدمة أمام بوذا العظيم في القصر، يحجُّ الناس إليها لرؤيتها. ومن كثرة ما علّقَ الناس على الموضوع وظهرت الفتيات في التلفزيون حدث ردُّ فعلٍ هيستيري فحلقت مئات الفتيات شعورهُنّ محاكاةً لهنّ، حتى أنّ ديل باهادور نفسه اضطرّ لأن يظهر على شاشة التلفزيون كي يُلمِّح إلى أنّ المملكة لا تحتاج إلى هذه البراهين الوطنيّة المتطرّفة جدّاً. علّق ألِكساندِر قائلاً إن حلاقة الشعر في الولايات المتحدة موضة وكذلك الوشم وثقب الأنف والأذنين والسرّة لوضع الزينة المعدنية، لكنَّ أحداً لم يُصدِّقه.

كان الجميع جالسين فوق وسائد على الأرض يشربون الشاي، شاي الهند الفوّاح، ويحاولون أن يبلعوا حلوى شوكولا رديئة جدّاً، اخترعتها راهبات القصر الطاهيات للاحتفاء بالزوّار الأجانب. تشسيوانغ، الفهد الملكيّ استلقى بجانب ناديا مسدل الأذنين. فمنذ موت صاحبه الملك والفهد الجميل مُثبَط. بقي عدّة أيّام يرفض تناول الطعام، إلى أن استطاعت ناديا إقناعه بلغة القطط، بأنّ على عاتقه تقع مسؤولية العناية بديل باهادور.

ـ عندما ودّعنا ليذهب إلى وادي أهل الثلج، سلَّمني مُعلِّمي المحترم تِنسينغ شيئاً لك ـ قال ديل باهادور إلى ألِكساندِر.

ـ لي؟

ـ ليس لكَ بالضبط، بل لأمِّك المحترمة ـ ردّ الملكُ الجديدُ، ممرِّراً إليه علبة خشبية.

ـ ما هذا؟

ـ روث تنين.

ـ ماذا؟ ـ سأل ألِكساندِر وناديا وكاث بصوتٍ واحد.

ـ مشهور بأنّه علاج قويّ جدّاً.

ـ ربّما إذا أذبته في قليلٍ من كحول الرز وأعطيته لأمّك ستتحسّن من مرضها ـ قال ديل باهادور.

ـ كيف سأطعم أمّي هذا؟ ـ هتف الشابُّ مهاناً.

ـ ربّما من الأفضل ألاّ تقول لها ما هو. إنّه متحجّر. يبدو لي أنّه ليس نفسه الروث الطريّ... في جميع الأحوال له مفعول سحريّ. قطعة صغيرة منه نجّتني من خناجر الرجال الزرق ـ وضّح ديل باهادور مشيراً إلى الحجر الصغير الذي يتدلّى من رباط جلديّ فوق صدره.

لم تستطع كاث أن تتفادى جحوظ عينيها وراحت حركة ساخرة تتراقص فوق شفتيها، لكنَّ الِكساندِر شكر صديقَه وخبّأه في جيب قميصه.

ـ لقد انصهر التنين الذهبيّ في انفجار المروحية؛ إنّها خسارة خطيرة جدّاً، لأنَّ شعبنا يعتقد أنّ التمثال يحمي الحدود ويحافظ على ازدهار الأمّة ـ قال الجنرال كونغلونغ.

ـ ربّما ليس التمثال بل حكمة وأناة حكّامه هي التي حفظت البلد ـ ردَّت كاث، مقدِّمة بمداراة حلوى الشوكولا للفهد، الذي شمّها قليلاً وجعد فرطوسه بحركة اشمئزازٍ وعاد ليستلقي بجانب ناديا.

ـ كيف نستطيع أن نُقنِع الشعبَ أنّ باستطاعته أن يثق بالملك الشاب ديل باهادور حتى ولو لم يعد يعتمد على التنين المقدّس؟ ـ سأل الجنرال.

ـ بكلّ احترام أيّها الجنرال المحترم، من الممكن أن يصبح عنده تمثال آخر خلال وقت قصير ـ قالت الكاتبة التي تعلّمت أخيراً الكلام حسب آدابِ ذلك البلد.

ـ هل ترغب الجُديدَة المحترمة أن توضِّح ماذا تقصد؟ ـ قاطعها ديل باهادور.

ـ رّبما هناك صديق لي يستطيع أن يحلَّ المُشكلة ـ قالت كاث وشرعت تشرح خطَّتها.

بعد عدّة ساعات من الصراع مع شركة الهاتف البدائية في المملكة الممنوعة، تمكّنت الكاتبة من الاتصال بإسحاق روزنبلات مباشرة في نيويورك، لتسأله عمّا إذا كان باستطاعته أن يصنّع تنيناً مشابهاً للسابق، استناداً إلى أربع صور بولارويد، صور ضبابية قليلاً مصوّرة بالفيديو ووصف مفصّل قدّمه لصوص طائفة العقرب، مُحاولين أن يستلطفوا سلطات البلد.

- تطلبين منّي أن أُصنِّع تمثالاً من ذهب؟ - سألها إسحاق روزنبلات صارخاً من الجانب الآخر من الكوكب.

- نعم، نعم بحجم الكلب تقريباً يا إسحاق. ثم إنّه يجب تطعيمه بمئات الأحجار الكريمة، طبعاً بما في ذلك الماس والياقوت الأزرق والزمرد وبياقوتتين حمراوين متطابقتين للعينين.

- بالله عليك من سيدفع ثمن هذا كلّه يا صبيّة؟

- مُقتنٍ، مكتبه قريب من مكتبك، يا إسحاق - ردّتْ كاتْ كولْدْ، ميتة من الضحك.

كانت الكاتبة فخورة جدّاً بخطّتها. فقد جعلتهم يرسلون إليها من الولايات المتحدة مسجّلة خاصّة، لا تباع في الأسواق، لكنّها حصلت عليها بفضل علاقاتها بعميل للمخابرات المركزية الأمريكية الذي صارت صديقة له خلال تحقيق قامت به في البوسنة. استطاعت بهذا الجهاز أن تسمع الأشرطة المصغّرة التي كانت تُخفيها جوديت كينسكي في محفظتها. كانت تحتوي على المعلومات الضرورية لاكتشاف هويّة الزبون المدعو بالمُقتني. أرادت أن تضغط عليه بذلك. وسوف تتركه بسلام فقط مقابل أن يُعيد التمثال الضائع، كان هذا أقلّ ما يمكن أن تفعله لإصلاح الضرر المرتكب. كان المُقتني قد اتخذ احتياطاته كيلا يدخل أحد على مكالماته الهاتفية، ولم يخطر بباله بأنّ كلّ واحد من العملاء المرسلين من قِبل المُتخصّص لإتمام العقد قد سجّل المكالمات. كانت تلك الأشرطة المسجّلة بالنسبة

لجوديت ضماناً لحياتها، يمكن أن تستخدمها في حال ساءت الأمور أكثر من اللازم؛ لذلك كانت تحملها معها دائماً إلى أن فقدت المحفظة في معركتها مع تِكس أرماديّو. كانت كاث كولد تعلم أنّ ثاني أغنى رجل في العالم لن يسمح بأن تظهر قصّة تعامله مع تنظيم مجرم في الصحافة تتضمّن اختطاف ملك مملكة مسالمة، وبذلك سيضطرّ لأن يذعن لمطالبها.

فاجأت الخطّة التي عرضتها كاث رجالَ بلاط المملكة الممنوعة كثيراً.

- ربّما كان على الجُديدة المحترمة أن تستشير اللامات في هذه المسألة. ففكرتها حسنة النيّة، لكن ربّما كان العمل الذي ستقوم به غير شرعي... - اقترح ديل باهادور بلطف.

- لنقل إنّه قد لا يكون شرعياً جدّاً، لكنَّ المُقتني لا يستحقّ معاملة أفضل. اتركْ كلّ شيء لي يا صاحب الجلالة. وعندها يكون مبرّراً لي أن أوسّخ كارماي بفضيحة صغيرة. بالمناسبة، إذا لم يكن هذا تهوّراً هل باستطاعتي أن أسأل صاحب الجلالة ما المعاملة التي ستلقاها جوديت كينسكي؟ - سألت كات.

كان قد عُثِر على المرأة فاقدة الوعي ومخدّرة من قِبل الفصائل التي أرسلها الجنرال كونغلونغ للبحث عنها. تاهت في الجبال أيّاماً، ضائعة جائعةً إلى أن تجمّدت قدماها وما عاد باستطاعتها الاستمرار. لقد خدّرها البردُ وراح ينزع منها رغبتها بالحياة. استسلمت جوديت كينسكي إلى قدرها بنوع من الراحة السرّية. فبعد كلّ المخاطر وكلّ ذلك الجشع صار إغواءُ الموت محبّباً بالنسبة لها. لم تتوارد إلى عقلها في لحظات وعيها القصيرة انتصاراتُ ماضيها بل وجه دورجي، الملك الرزين. ما الداعي لهذا الحضور الملحّ في ذاكرتها؟ في الحقيقة لم تُحبّه قط. تظاهرت بحبّه لأنّها كانت بحاجة لأن يسلِّمها شيفرة التنين الذهبي، ليس أكثر. بالمقابل كانت تعترف

بإعجابها به. ذلك الرجل الطيّب ولّد لديها انطباعاً عميقاً. فكّرت أنّها لو كانت الظروف مختلفة أو لو أنّها كانت امرأة مختلفة لعشقته حتماً. لكن لم تكن هذه هي الحالة فهي واثقة من ذلك. وللسبب ذاته كانت تستغرب أن ترافقها روح الملك في ذلك المكان الجليدي حيث تنتظر موتها. كانت عينا العاهل الوديعتان والمهتمتان آخر ما رأته يطلّ عليها في الظلمة.

عثرت عليها الدورية في اللحظة المناسبة تماماً لإنقاذ حياتها. كانت في تلك اللحظة في مستشفى، حيث يبقون عليها مسكَّنة بعد أن قطعوا بعض أصابع قدميها ويديها التي تجمَّدت.

ـ والدي، قبل موته، أمرني بأن لا أحكم على جوديت كينسكي بالسجن. أرغب بأن أقدّم لهذه السيّدة فرصة أن تُحَسّن كارماها وتتطوّر روحيّاً. سأرسلها لتقضي بقيّة حياتها في دير بوذي على الحدود مع التيبت. الطقس هناكَ قاس قليلاً والمكان معزول قليلاً، لكنّ الراهبات قدّيسات جدّاً. يقولون لي إنهنّ يَنهضْنَ قبل شروق الشمس، يقضين النهار بالتأمّل ويتغذين على بعض حبّات الرز ـ قال ديل باهادور.

ـ وهل تعتقد أنّ جوديت ستدرك الحكمة هناك؟ ـ سألت كات ساخرةً، وناظرة نظرة تواطؤ إلى الجنرال ميار كونغلونغ.

ـ يتعلّق هذا بها وحدها أيّتها الجُدَيّدة المحترمة ـ ردّ الأمير.

ـ هل أستطيع أن أرجو صاحب الجلالة أن يناديني كات؟

ـ سيكون امتيازاً لي أن أناديك باسمك. ربّما رغبت الجدَيّدة المحترمة كات ومصوراها الشجاعان وصديقاي ناديا وألِكساندِر بالعودة إلى هذه المملكة المتواضعة، حيث سنبقى أنا وبِمّا بانتظارهم دائماً... ـ قال الملكُ الشابّ.

ـ طبعاً نرغب! ـ هتف ألِكساندِر، لكنّ لكزة من كوع ناديا ذكّرته

بآدابهم فأضاف ـ: مع أنَّ من المحتمل أنّنا لا نستحق كرم صاحب الجلالة وخطيبته الكريمة، ربّما تجرّأنا وقبلنا مثل هذه الدعوة المشرّفة.

وراح الجميع يضحكون دون أن يتمكّنوا من تفادي ذلك، بمن فيهم الراهبات اللواتي كنّ يقدمن الشاي باحتفالية وبوروبا الصغير الذي كان يقفز قفزات سعيدة، رامياً قطع حلوى الشوكولا في الهواء.

الفهرس

«مملكة التنين الذهبي» بلدٌ مسالم، غير معروف كثيراً، وغارق بين وديان الهميلايا الباردة. يعتنق سكانه البوذية ويعيشون حسب أعرافها وتقاليدها الطيبة المُغرقة في القِدم.

يقال بأن في تلك المملكة تمثال قيّم وغامض لتنين ذهبي قادرٌ على التنبؤ بالمستقبل، ويرشد ملكها المحبوب من شعبه لِما فيه خير الناس في أوقات الضِيق.

إلى هناك اتجهت كاتِ كولد، الصحافية في «الإنترناشيونال جيوغرافيك»، مع حفيدها ألِكساندر وصديقته ناديا، وفريق المجلة، لكن هناك عيون أخرى أيضاً ترغب بمعرفة قصة التنين الذهبي: عيون يملؤها الجشع والطمع، وهي مستعدة للقيام بأي شيء للحصول عليه.

إيزابيل ألليندي الشبيهة بكاتِ كولد، وإحدى أهم الأصوات الأدبية المعاصرة تعود لتكتب إلى جمهور الشباب، فتتابع من خلال رواية «مملكة التنين الذهبي» ما بدأته في «مدينة البهائم». هاجسها الأساسي جشع الإنسان، وهي في ذلك تدعونا لنعيش مغامرة جديدة يمتزج فيها السحر مع الخيال، من خلال عوالم أبطال القصة، باكتشاف طريقة أخرى لفهم الحياة.

الناشر